تأليف : كارل إسكلوند   ترجمة : عمر الإسكندري

جولة فى الصين

تأليف
كارل اسكلوند

ترجمة
ا . عمر الإسكندرى

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

THE RED MANDARINS
TRAVELS IN RED CHINA

by Karl Eskelund

Published by Taplinger Publishing Co. Inc.

Copyright (c) Karl Eskelund 1959

مطبعة المدني
٢٩٥ ش رمسيس بالقاهرة ت ٨٢٧٨٥١ ٨٢

محتويات الكتاب

الفصل الأول : العودة إلى بكين ٥

الفصل الثانى : الأقنعة البيضاء ١٦

الفصل الثالث : مسألة وقت ٢٦

الفصل الرابع : زوجتى تتناول طعامها بعيدان خشبية ٣٥

الفصل الخامس : عودة « كونفوشيوس » ٤٥

الفصل السادس : « ين » و « يانج » ٦٠

الفصل السابع : شجرة فى الغابة ٧٣

الفصل الثامن : أحباب « ماوتسى تونج » ٨٥

الفصل التاسع : الحصان العجوز ٩٦

الفصل العاشر : الآلهة الجدد ١١٢

الفصل الحادى عشر : تفويض من السماء ١٣١

الفصل الثانى عشر : أيها الرفاق ، هذا قطاركم ١٤٦

الفصل الثالث عشر : النهر الأصفر ١٦٠

الفصل الرابع عشر : إله المدينة ١٦٨

الفصل الخامس عشر : معلمة الفضيلة ١٨١

الفصل السادس عشر : السيد « لين » يأكل الفلفل ١٩٢

الفصل السابع عشر : « واى تى » ضجرة ٢٠١

الفصل الثامن عشر : إرادة الشعب ٢١٢

الفصل الأول

العودة إلى بكين

كان من الصعب أن نتصور أننا كنا فى قلب مدينة يبلغ تعداد سكانها جملة السكان الذين تضمهم بلاد الدانمرك بأسرها . فقد كانت الشوارع خالية من النـاس قاطبة مع أن الوقت لم يتجاوز التاسعة مساء . وكانت السماء قد أثلجت لأول مرة هذا الشتاء ، فكنا نسمع ونحن فى تينك المركبتين الصغيرتين من النوع الذى يجره الرجال ، حفيف عجلاتهما يتفتت الثلج من تحته خلال سيرهما . وفيما عدا ذلك لم يكن ثمة صوت يسمع سوى الأنفاس الثقيلة التى كانت تتردد من ساحبى المركبتين ، وذلك بالطبع فضلاً عن صوتى أنا ، إذ أننى أنطلق فى الثرثرة دائماً كلما لحقنى شىء من الانفعال .

وكنت ترى مصابيح الشارع ، والريح يهزها كأنها جزيرة منعزلة من نور فى وسط بحر من ظلام الليل . فمضينا فى ذلك الشارع العريض تحف بجانبيه المنازل ذوات الطابق الواحد ، إلى أن بدا لنـا من بعيد مبنى هائل تعلوه تلك السطوح المائلة وقد كستها طبقة رقيقة من الثلج ، فبرز للأعين مظهرها جلياً وسط السماء التى لم يبدد ظلمتها سوى النجوم المنتشرة فيها فوجدتنى أهب واقفاً فى مكانى ، لقد استولى على شعور بأن هنالك شيئاً أستطيع التعرف عليه !

فجعلت أصيح من فورى : إنه مبنى « باب السلام العالمى » ! أتعرفين يا « شى يان » أن .. .. ، ولم أستطع مواصلة كلامى . فقد أحدث التغير الفجائى فى وضع حمولة هذه المركبة الضئيلة اختلالاً خطيراً فى توازنها . فالتفت إلى ساحب مركبتى وحدجنى بنظرة زاجرة . فعدتُ إلى الجلوس فى مكانى مطأطئ الرأس ، محاولاً التهدئة من ثورتى .

على أن ذلك لم يكن بالأمر الهيّن ، إذ كانت الذكريات تتدفق على ذهنى فى شدة وتزاحم : لقد كان هذا هو المكان من « بكين » الذى قابلتُ فيه « شى يان » لأول مرة . كان ذلك فى عام ١٩٣٦ حين كنا نتلقى الدراسة فى جامعة واحدة . وكم كنا نشعر بالوجل والاضطراب فى ذلك اليوم الذى اصطحبتنى فيه إلى منزلها وقدّمتنى إلى والدها ، الذى كان من كبار رجال الأعمال بالمدينة . وقد اتضح أن مخاوفنا قامت على أساس قوى ، فإنّ والدها ألقى علىّ محاضرة طويلة فى موضوع استقامة الأبناء ، واختتم كلامه بقوله إنه ضد الزواج المختلط .

وفى العام التالى فرّت « شى يان » من بيت أسرتها وقابلتنى فى مدينة « شنجهاى » حيث تمّ زواجنا . و بعد قليل من حفلة قراننا ارتحلنا عائدين إلى « بكين » . وكان والدها قد صفح عنا ودعانا إلى المنزل . وكانت هذه الرحلة لنا بمثابة شهر العسل ، فكنت كل يوم أخرج أنا و « شى يان » للنزهة ، فكنا نسير مسافات طويلة داخل هذه المدينة التى وُلدت زوجتى فيها ونشأت بين ربوعها ، فاستطعتُ عن طريقها التعرّف على أنحاء المدينة ، وأحببتها .

ولما غادرنا « بكين » لم نعدْ إليها طوال هذه المدة ، على الرغم من شعورنا بالشوق إليها ، وعندما كنا نأوى إلى فراشنا ليلاً ويغيب عنا النوم ، كثيراً ما كنا نتسلّى فى رقادنا بالتحدّث عنها . وكنا نعلم أن الأمل فى العودة إلى رؤيتها ضعيف جداً ، فكان ذلك يزيد من حنيننا إليها : لقد أصبحت الصين الحمراء بلاداً مغلقة فى وجه القاصدين إليها .

و بينما نحن كذلك ، إذ بى أتلقى ذات يوم فى أواخر صيف عام ١٩٥٦ مكالمة تليفونية من السفارة الصينية فى « كوبنهاجن » لقد كان كثيرون غيرى من الصحفيين قد تقدموا بطلبات للحصول على تأشيرة على جواز سفرهم ولم يحظوا بطائل ، وها نحن أولاء قد حظينا ، لأمرٍ ما ، بالرضا فى أعين شيوعيى الصين . قد يكون ذلك لأن لنا معرفة طفيفة بالرئيس « شو إن لاى » ، وقد يكون

لأنني لكمت ذات مرة ابن « شيانج كاى شيك » على شدقه ؛ لا ندرى .

ومهما يكن من أمر ، فها نحن أولاء قد عدنا إلى هنا . لقد استغرقت رحلتنا شهراً ونصف شهر بدأنا باجتياز أوربا ، فآسيا الصغرى ، ومن ثم واصلنا الرحلة بحراً عن طريق الهند وأندونيسيا حتى بلغنا « هونج كونج » ومن هنالك أقلنا القطار ، مخترقين الصين من الجنوب إلى الشمال حتى بلغنا فى النهاية هدفنا المقصود. لقد مضى الآن نصف ساعة بالضبط منذ وصلنا إلى السكة الحديدية ببكين . وما أن غادرنا القطار حتى استوقفنا أحد رجال الشرطة وطلب منا اطلاعه على جوازات سفرنا ، وإذ ذاك خلع القفاز الجلدى من يديه وأخذ يجرى قلمه فى سرعة شديدة مثبتاً أسماءنا وأرقام جوزات سفرنا ، ثم كلفنا تقديم أنفسنا صباح الغد إلى شرطة الأمن .

وقد لاحت منى نظرة إلى « شى يان » وهى فى مركبتها . ها هى ذى تعود إلى مسقط رأسها بعد غيبة خمسة عشر عاماً هزّت فيها بلاد الصين من أساسها ، وستلتقى بعد بضع دقائق بوالدتها مرة أخرى . ومع ذلك رأيتها جالسة وقد وضعت يديها فى حجرها . وأمارات الهدوء والسكينة بادية عليها كعادتها .

مضينا فى مسيرنا حتى وصلنا إلى « بوابة » عظيمة مررنا من تحتها وكأنها نفق على أنه لم يعد من الأمور السائغة أن يجر المركبة إنسان يضع نفسه بين ذراعيها (العريش) وكأنه من حيوان جر الأثقال . فقد صار المتبع فى الصين الجديدة أن يجلس صاحب المركبة على دراجة ، وهذه تجر المركبة .

ولم نلبث أن بلغنا طريقاً فسيحاً تحفه الأشجار من جانبيه ويمضى بحذاء السور الذى يحوط « المدينة المحرمة » . وقد كان فى وسعنا أن نتبين فى الظلام منظر تلك القصور التى كان أباطرة الصين فيما مضى يعيشون فيها فى بذخ بعيدين عن الأنظار . وقد تحولت الآن تلك « المدينة المحرّمة » إلى متحف ، يقع فى وسط « بكين » . ويحيط بهذا الموقع سور المدينة القديمة ممتداً على شكل مربع

عظيم ، وعلى مسافة منه نجد سوراً آخر هو السور الخارجى ، ويبعد عن وسط المدينة بنحو سبعة أميال ، على أنه مع كل ما أحيطت به مدينة الأباطرة من وسائل المنعة والحماية ، فإنها كثيراً ماسقطت فى أيدى الغزاة من الشعوب المتبربرة.

وقد أخذت أعجب ، كما عجبت كثيراً من قبل ، كيف أن مظهر « بكين » لا يُشعر المرء قط بأنها مدينة كبيرة . لعلّ السبب فى ذلك يرجع إلى كثرة مابها من المتنزهات ، ولأن المنازل فيها غير متلاصقة . فإن كل منزل فيها يحوطه سور قائم بذاته ، وليس بها سوى النزر اليسير من الشوارع الرئيسية التى تحف جانبيها صفوفٌ من المنازل المتراصة ، وحتى فى هذه القلّة من الشوارع لا تجد من المنازل ما يتجاوز علوه طابقين . وقد كان من المحرّم إلى ماقبل نصف قرن أن يُبنى أى منزل بالمدينة يزيد فى علوه على ارتفاع مبانى القصور العاهلية . ولم يطرأ على الأحياء الداخلية من « بكين » تغيير يُذكر منذ ذلك الحين .

وفى وسط هذا السكون الليلى سمعنا صيحة طويلة ، وإذا بها من بائع متجوّل يحمل سلّتين تدلّت كل منهما من طرف قضيب خشبى يحمله على كتفه. فلما مرّ من تحت مصابيح الشارع بدأ شهيق تنفسه وكأنه نفثات من بخار نفثت فى الهواء البارد . لقد أخذ يكرر ما كان ينادى به « للفت ! إنه فى حلاوة الكمثرى ، إذا وجدته حرّيفاً لاذعاً فإنى كفيل بإعطائك غيره » . فابتسمت « شى يان » . إنه مظهر صادق من مظاهر الأيام الغابرة . والواقع أن أهل شمالىّ الصين لا يأكلون كثيراً من الفاكهة فى الشتاء لشدة ارتفاع ثمنها ، ويستعيضون عنّا فيها من الفيتامينات بتناول اللفت الشىء اللذيذ . على أننى شخصياً أفضل « الكاكى » الصينى ذا اللون الذهبى ، أتناوله مثلوجاً كأنه «الجيلاتى» بعينها .

ولما وصلنا إلى حارة « وسط خرطوم الفيل » أخبرتنى « شى يان » أنها كانت فى طفولتها ملتحقة بروضة للأطفال بهذه الناحية ، وأنها كانت كل يوم تذهب إلى الروضة وتعود منها فى مركبة صغيرة من النوع الذى يجرّه رجل ،

كانت تملكها الأسرة خاصة ، وأنه لم يُسمح لها بركوب الدراجة إلاّ بعد أن كبرت وترعرعت .

وإذ كنت قد ألفت الإقامة فى شقة ذات ثلاث غرف فى « كوبنهاجن » فقد بدا لى ما أخبرتنى به زوجتى عن البيت الذى قضت فيه طفولتها كأنه من أنباء القصص الخرافية . قالت إن البيت كان يشمل مايقرب من مائة حجرة ، تكتنف ستة أفنية ، وإنها لم تذهب فى حياتها إلى المطبخ إلاّ مرات قليلة ، إذ كان فى مؤخر المنزل ، على مقربة من قسم الخدم . وكان لجدّيها فناء خاص بهما . وكان جدّها (لأبيها) صيدلياً فى شبابه ، فلما كبر والدها وصار قادراً على كسب المال أمسك جدها عن العمل ، إذ كان كل إنسان يرى من الطبيعى تماماً أن يعوله ابنُه عندما يبلغ أشدّه .

ولما بلغنا شارع « صانعى الفوانيس » وقف بنا الرجلان اللذان يجرّان مركبتينا أمام بوّابة كبيرة ، وكان آخر عهدنا بهذه البوابة عندما خرجنا منها لآخر مرة فى تلك الأيام الغابرة ، وكان يرافقنا إذ ذاك والد « شى يان » لقد توفى الرجل قُبيل قبض الشيوعيين على مقاليد الحكم . وبمضىّ الأيام غادر بيتَ الأسرة إخوةُ « شى يان » الستة ، من بنين وبنات ، بل إن خمسة منهم أقاموا خارج الصين ، وكانت والدتها تكتب إلينا مرتين فى العام ، وكانت لا تزوّدنا فى خطاباتها بشىء يُذكر من الأخبار ، فكنّا فى الواقع لا نكاد نعرف شيئاً .

والآن أمسكت « شى يان » بسماعة هذا الباب الخارجى وهوت بها على الباب ، فأحدثت صوتاً ضخماً غائراً .

— « عمن تبحث أيها الطارق ؟ »

— « أريد « مدام فى » ربة الدار » .

— « لا يوجد أحد هنا بهذا الاسم » .

— « هذا مستحيل ! »

قالت ذلك « شى يان » وقد أخذت نبرات صوتها تدل على تسرّب شىء من اليأس إلى قلبها ، ثم قالت : « لقد مضى على هذا البيت أكثر من ثلاثين عاماً وهو مقرّ لأسرة « فى » قد وُلدتُ أنا فيه و « مدام فى » هى والدتى . . »

وهنا قاطعها الصوت من الداخل : « آه — الآن قد عرفت أنك بلا شك تقصدين « الرفيقة كانج » ولفظ « كانج » هذا هو الاسم الشخصى للسيدة فى ، وهو الذى كانت تُدعَى به وهى عذراء ، ولم نعرف إلاّ فيما بعد أن السيدات لا يُدعَين الآن بأسماء أزواجهن ، إذ قد أصبح ذلك يعدّ من التقاليد العتيقة — أو « الإقطاعية » على حدّ ما سمعته من بعض الشيوعيين . وقد اتضح أن والدة « شى يان » تقطن فى الواجهة الأخرى من الناصية فى منزل صغير كان فيما مضى جزءاً من بيت الأسرة الكبير . عند ذلك حملنا حقائبنا وقصدنا باباً أصغر من سابقه ، بينما كانت « شى يان » تسرّح النظر حولها فى دهشة .

ثم قالت : «إننى على ما أذكر لم أحضر هنا إلاّ مرات قليلة فى حياتى كلها — لقد كان هذا أحد الأبواب الجانبية لبيتنا ، ولم نستعمله قط . وكان هذا الطريق على حدّ ما يعيه ذهنى شارعاً فسيحاً ، وهاهو ذا الآن مجرّد حارة صغيرة » .

ثم قرعت الباب كما قرعت سابقه من قبل ، وقد خُيل لنا أننا لم نسمع وقع الأقدام تمشى فى اتجاهنا إلاّ بعد دقائق عدة .

— « من بالباب ؟ »

— « إنه أنا — الآنسة فى »

— فأجاب الصوت « أى الآنسات فى ؟ »

— « البنت الثانية »

وعندئذ أزيح عن الباب مزلاجه فانفتح توّه عن آخره ، وإذ بى أرى أمامى ، فى ذلك الضوء الخافت المنبعث من مصباح الشارع ، سيدة كأنها

« شى يان » بعينها ، لا يميزها عنها سوى زيادة طفيفة فى السن والوزن . وقد ظلت الأم وابنتها لحظة تنظران احداهما إلى الأخرى ثم تعانقتا ، وقد كان من المناظر الممتعة أن أرى حتى الصينيين يُطلقون العنان لعواطفهم على أنهما مالبثتا أن استعادتا هدوءهما وطفقتا تجففان دموعهما .

« شيه فان لاما ؟ » (هل طعمتما ؟) كانت هذه أول كلمات سمعناها من « السيدة فى » بعد أن نفضنا الثلج عن أقدامنا ودلفنا إلى المنزل . إن هذه تحية مرعيّة فى الصين منذ القدم . فالطعام هو موضع الاهتمام الأول فى هذه البلاد التى طالما عانى أهلوها مرارة شظف العيش وأشرفوا فيها على مهالك المجاعات .

ولكن « شى يان » أرادت قبل كل شىء أن يجاب على جميع الأسئلة التى تكدّست فى رأسها منذ مغادرتنا هذه البلاد : ماذا جرى لأملاك الأسرة ؟ وكيف حال المعيشة فى عهد الشيوعيين ؟ وهل عانت أمها فيه كثيراً من المتاعب ؟

فقاطعتها « السيدة فى » بقولها : « كم ستكون مدة إقامتكم ؟ » وكانت فى آخر عهدى بها ترتدى رداء طويلاً من حرير ذا رقبة عالية ، وإذ بها الآن تلبس سترة « جاكتة » سميكة من القطن « المضرّب » وسراويل . فكانت تبدو فى هذا الزى مستديرة الجسم بعيدة عن مظاهر الرشاقة . فلما علمت منا أن تأشيرة المرور التى معنا لاتسمح بإقامتنا أكثر من ثلاثة أشهر استولى عليها الاكتئاب ، لولا أن بادرت « شى يان » إلى لف ذراعيها حول عنقها وقالت : « ليس من داع يُحزنك يا أمّاه من جانب رحيلنا ، وعلى كل حال هانحن أولاء معك وقد قدمنا من توّنا » .

عند ذلك أخذ ثغرها يتهيّأ للابتسام ، لكنها ما لبثت أن عادت إلى وجهها علامات الانزعاج ، وقالت : « وهل من الصواب أن تقيما هنا ؟ » .

فنظر أحدنا إلى الآخر فى دهشة . وفى أى مكان آخر نقيم ؟ أليس هذا ، مهما يكن من أمر ، هو موطن « شى يان » ؟

فبادرت « السيدة فى » إلى مواصلة كلامها ، قالت « أرجو ألا تحملوا كلامى على غير محمله » ، وأوضحت أنها تود من صميم قلبها أن تقيم معها ، ولـكن ماذا يقول أولوا الأمر ؟ إن هنالك بعض فنادق معيّنة ينزل الأجانب فيها ، ويجب على المرء ألاّ يأتى أمراً غير سليم .

ثم قالت : « إننا على كل حال لانستطيع الآن الوقوف على حقيقة الأمر ، فنى إمكانـكما النزول عندنا الليلة وفى وسعنا أن نتحرى الحقيقة فى صباح الغد . وسأهيىء لـكما الآن فراشاً فى حجرة جلوسنا .. »

وقد أخذت زوجتى تسرّح النظر فى الحجرة الصغيرة التى كنا فيها . قد كان بها عدة كراسى صينية مضلعة من الخشب المدهون وصوانان الملابس مزخرفان بالنقوش المحفورة ، وقد بدا لى أنه لم يكن ثمة تناسق بين هذه جميعاً وبين « البيانو » والأريكة الأوربية اللذين حوتهما الحجرة أيضاً . والواقع أن الحجرة كانت غاصة بالأثاث الزائد عن حاجتها ، ولـكن ما الحيلة ، وليس من الهين على المرء أن يقصى عن أنظاره أشياء تحمل معها ذكريات ذات أثر فى نفسه ؟ وكان بالحجرة كذلك مكتب رصت فوقه صور أبناء « السيدة فى » وأحفادها ــ وسرعان ما تبينت عيناى من بينها صورة لزوجتى وهى فتاة صغيرة نحيفة الجسم ، يعلو أنفها الصغير نظارتان يحيط بزجاجهما إطار من صلب .

وقد صاحت «شى يان» فى دهشة : « ولـكن هذه حجرة جدى كما كنت أعرفها ، أليس كذلك ؟ لقد كانت ملأى بقصارى الزرع وأقفاص العصافير » . وكانت قد أنبأتنى أنه كان من عادة ذلك الرجل الهرم أن يذهب كل صباح إلى متنزه الناحية ومعه أحد عصافيره ، فـكان يقضى الساعات الطوال فى الثرثرة مع أمثاله من الشيوخ ، بينما العصافير تتناوب الغناء بعضها مع بعض ، فإذا كان من بينها عصفور رديء الصوت ، مُنع من الانضمام إلى الجماعة مخافة أن يكون له تأثير سيىء فى غيره من أفرادها .

وقد أومأت « السيدة فى » برأسها إقراراً لما قالته « شى يان » عن ماضى الحجرة ، وقالت : « حقاً إنه كذلك ، ولكن جدك مات بعد وفاة والدك بقليل » . وكانت السيدة قد باعت ، بعد سنوات قليلة من ذلك ، بيت الأسرة القديم ، ولم تبق منه غير هذه الحجرة وثلاث حجرات صغيرة غيرها مع فناء ضيق ملحق بها . ولم يقم أولو الأمر بمصادرة شىء من أملاكها ، إذ لم تكن فى عداد الطائفة المعتبرة من أعداء الشعب أو المستغلين للفقراء . وقد اشترت بجزء من المال جانباً من سندات الحكومة ، وتجرى الأمور معها على ما يرام — بل إنها أحسن حالاً بكثير من الجانب الأعظم من الناس . والواقع أن كثيراً من الأسر قد اضطرت إلى أن تعيش الآن مع غيرها فى عنابر ، بسبب أزمة المساكن فى « بكين » .

ثم خطت بضع خطوات ووضعت يدها على جهاز لإشعاع الحرارة ، وقالت « بل إننى أتمتع بهذا النوع من الكماليات يمدّنى بالتدفئة المركزية » . وهل من داع فى الوجود يجعلها فى حاجة إلى أكثر من أربع حجرات ، بعد أن أصبحت وليس معها أحد سوى حماتها ؟ إن هذه السيدة المسنّة سوف تعيش بلاشك حتى تبلغ المائة . إنها الآن فى الرابعة والتسعين من عمرها ، وقد أصبح من العسير عليها أن تتعرّف الناس ، ولم يعُدْ لها اهتمام حقيقى بشىء غير الطعام ، وتفضّل منه الأصناف الحلوة . غير أنها ما زالت تستطيع رفع عقيرتها بالشكوى ، والذى توجّه إليه الشكوى هو بطبيعة الحال زوجة ابنها الراحل . ليس من السهل القيام على شئون مثل هذه السيدة العجوز ، لولا أنه من حسن حظ «السيدة فى» أن لديها اثنتين من مدبرات المنازل . . .

« تقولين مدبرات منازل ؟ » صاحت بذلك « شى يان » وهى تنظر إلى أمها فى دهشة فأجابتها أمها بإقرار هذه التسمية ، وقالت إنه لم يعدْ من الجائز الآن أن نسميهن بالخادمات أو الجوارى ، فإن هذا يعدّ من الأمور غير

الديموقراطية . وقد كانتا فى تلك الليلة غائبتين عن المنزل لحضورهما اجتماع لجنة الحى . . .

وعندما دخلنا « حجرة الجلوس » وجدنا الأثاث فيها أيضاً خليطاً من الطرازين الصينى والأوربى ، وقد وضعنا أريكتين من أثاثها إحداهما بجانب الأخرى . وإذ كنا نشعر بالتعب بعد رحلتنا الطويلة ، فقد أوينا إلى الفراش ، وبعد ما أطفأنا النور ظلّت « شى يان » ووالدتها تتحدثان عن طريق الباب المفتوح بيننا . وما أكثر الأمور التى كانت زوجتى تريد الوقوف عليها : ماذا كان من أمر « لى شينج » التى كانت « شى يان » تستلطفها كثيراً ؟ و « يولينج » الذى كانت تراقصه ـ وإن كان ذلك لم يحصل كثيراً ، لأن السيد « فى » كان محافظاً فى تربية بناته ، و « بى شين » و « مينج ديه » ؟ .

لقد تفتّتت الأسرة الكبيرة وأصبح ما كان لزوجتى من أصدقاء طفولتها مشتتين . ولم يعدْ فى مقدور أحد الاحتفاظ بكثير من الخدم ، كما تلاشى ما كان للكبار من النفوذ على الشباب . ومن أصدقاء زوجتى مَن يعملون الآن فى أعمال حكومية فى جهات نائية ، ومنهم من فرّ إلى « هونج كونج » أو « فورموزا » قبيل قدوم الشيوعيين ، ومنهم فتاة آثرت الانتحار ـ لأنها لم تقدر على مجاراة طرق المعيشة الجديدة ، ومنهم اثنان قضيا فى السجن عدة سنوات ، وإن كانا ، على حد ما وصل إلى علمها ، قد أطلق سراحهما الآن .

وقالت « السيدة فى » : « إننى لا أعرف إلا النزر اليسير مما يجرى من الأمور « لقد كانت فى الأيام السالفة تشغلها إدارة حركة ذلك المنزل الكبير ، أما الآن وقد صارت تجد الوقت طويلاً يمرّ فى بطء شديد ، فهى تشغل وقتها صيفاً بأعمال زراعة الورد فى فناء منزلها . وقد أخذت تتعلم اللغة الروسية عن طريق الراديو ، وقد حفظت منها حتى الآن بضع مئات من الكلمات .

وعندما كنا هنا فى المرة الأخيرة كان الاحتلال اليابانى قائماً ، فكانت

وقتئذ تدرس اليابانية عن طريق الراديو كذلك .

ثم واصلت كلامها فقالت : « إننى لا أرى الآن كثيراً من الناس . إن الحياة الاجتماعية تكاد تكون الآن منعدمة ، فإن الناس ليس لديهم الآن من الوقت أو المال مايكفى لذلك ، فإذا خلوا من العمل ذهبوا لحضور الاجتماعات ».

عند ذلك تساءلت « شى يان » : وكيف حال أبوَى « مى لينج » ؟ هل هما لا يزالان فى بكين ؟ فأجابتها بالإيجاب . أما « مى لينج » نفسها ، التى كانت أولى صديقات « شى يان » فإنها الآن فى الولايات المتحدة ، وقد كتبت من قبل إلى « شى يان » وطلبت إليها أن تقوم بزيارة والديها .

وهنا قالت « شى يان » : « إننى سأقوم ، أنا و « كارل » ، بزيارتهما غداً » .

« سيسعدهما أن يرا كما ويطمئنا منكما على مى لينج » . قالت ذلك «السيدة فى» ، ولكنه كان يبدو من صوتها أنها لاتقرّ ماعزما عليه ، ثم قالت: « الأفضل أن تبلغاهما عن زيارتكما مقدّما » .

« ولماذا ؟ هل هذا محتّم ؟ »

« ذلك فى رأيى هو الأصوب . فإنهما كبيرا السن وتضطرب أعصابهما لأقل سبب — وستدركين حكمة ذلك فيما بعد . لقد تغيّر الكثير من الأمور منذ مغادرتكما هذه البلاد » .

وكان هذا آخر شىء سمعته قبل أن يستولى علىّ النوم .

الفصل الثانى

الأقنعة البيضـــاء

عندما فتحتُ عينى فى صباح الغد رأيت أمامى امرأتين تنظران إلىّ . إنهما خادمتا «السيدة فى» العانستان : أخذتهما الدهشة عندما رأتا صهر الأسرة الأجنبى ينهض جالساً فى فراشه فجأة ويومىء إليهما برأسه ، ولـكنهما سرعان ما ابتسمتا عندما وجّهتُ إليهما تحية الصباح بنفس لغتهما . فـكان لسان حالهما أننى ما دمت أستطيع التـكلم بالصينية ـ حتى بتلك اللهجة المضحكة ـ فليس من الممكن أن أكون من البرابرة كما كان يجول بخاطرهما . وكانتا تدعواننى « إيره جوييه » أى زوج البنت الثانية .

وفى وجبة الفطور قُدمت لنا « الشعيرية » ، وهو صنف من الطعام عرفه الإيطاليون عن طريق الرحالة « ماركو بولو » ويقدّم طعام « الشعيرية » فى شمال الصين فى كل يوم يوافق عيد ميلاد أحد من أفراد الأسرة ، إذ هو عند القوم رمز التفاؤل بطول العمر . وكان يومنا هذا العيد السابع والثلاثين لمولد أحد إخوة « شى يان » وهو الآن أستاذ بإحدى الجامعات الأمريكية .

وبعد الانتهاء من الفطور ذكّرتنا « السيدة فى » بوجوب تقديم نفسينا للشرطة ، وقالت : « يجب الحرص على إطاعة القوانين . وثقا أنـكما متى راعيتم ذلك فلن يمسكما أى شىء من المتاعب قبل رجال السلطة » .

وقد خرجت معنا لمرافقتنا فى جزء من الطريق . وما إن فتحنا الباب حتى كاد المنظر يعمى أبصارنا . فقد غطّى الثلج كل شىء فى المدينة ، فـكان يكتم كل صوت فيها كما كان له وسط أشعة الشمس لمعان شديد ، ولم نلبث أن لاحت أمامنا من بعيد تلك الأبراج العظيمة التى تتخلل أسوار المدينة . إن هذه الأبراج

تبلغ فى ارتفاعها تسع وتسعين قدماً ـ قيدت بهذا الحد عن قصد ، لأنها إذا زادت عن ذلك أغضبت الأرواح الشريرة . فقد ساد الاعتقاد فى الصين أن تلك الأرواح تحوم على ارتفاع مائة قدم فما فوق ـ أو على الأقل هذا هو ما كان يعتقده القوم فى الأيام الغابرة .

ثم رأينا سنّاناً للسكاكين ، وقد أخذ ينفخ فى بوقه الطويل ، وهرعت إليه ربات البيوت وفى أيديهن تلك السواطير الطويلة التى يرى مثلها فى كل مطبخ صينى . وقد كان حجر السن مثبتاً فى حامل خشبى يحمله الرجل على كتفه وقد وضعه فوق ثلج الشارع وأخذ يباشر عمله .

وبينما نحن سائرون صاحت « شى يان » : « ما أنظف بكين الآن ! » فى أيام طفولتها لم تكن هنالك معدات عامة لجمع القمامة ، فكان الناس كثيراً ما يفرغون أوعية قمامتهم فى الطريق . وقالت والدتها : إنه لا يخطر ببال أحد أن يفعل ذلك الآن ، « لأن الجيران يحتجون على عمله فى الحال . لقد تعلمنا منذ مقدم الشيوعيين أن ننظر إلى مثل هذه الأمور نظرة جديدة . ففى الأيام السابقة كانت غالبية الناس لا يهمهم كيف تبدو المدينة ، أما الآن فنحن نفتخر ببكين » .

وقد رأيت غلاماً « صغيراً » يقعد القرفصاء فوق إحدى البالوعات وقضى حاجته لإراحة نفسه ، وكان مثل جميع صغار الأطفال الصينيين ، يلبس سراويل ذات فتحة من الخلف . وهنا قالت « السيدة فى » وهى تبتسم : « لقد حاولنا أيضاً تعليم الأطفال ألا يستعملوا الطرقات فى الأغراض التى تستعمل فيها دورة المياه ، غير أننا لم ننجح فى ذلك بعد » .

ثم أقبلت عربة نقل يجرها ثور ويسمع لها صرير شديد . وقد أطلق السائق سوطه فى الهواء يروم حمل الثور على الإسراع فى سيره ، لكن الحيوان بقى على تراخيه واستمر فى السير على مهل . وكانت تتدلى من تحت أنفه كتلة من الثلج تجمعت مما ينفثه من بخار تنفسه . وقد أغرقنا فى الضحك عندما رأينا كيساً

صغيراً شد إلى ما تحت ذيل الثور ، فأخبرتنا « السيدة فى » أن جميع دواب الحمل تزود الآن بمثل هذا الكيس ، وبذلك يحتفظ بنظافة الشوارع ولا يضيع شيء من تلك المادة المخصبة .

كذلك اختفت تلك الكلاب الكثيرة التى كانت تجوب الشوارع . وقد أخبرنى فيما بعد صديق لى من السلك السياسى الأجنبى أنه كلما مشى ومعه كلب ، تجمع الأطفال حوله وأخذوا فى التساؤل بينهم عن نوع هذا الحيوان . فإن الشيوعيين كانوا قد قرروا منذ بضع سنوات أن الكلاب منبع خطر على الصحة العامة وعبء على الاقتصاد القومى ، وعلى ذلك قاموا بإبادتها جميعاً .

وكنت بحكم العادة أتلفت « يميناً وشمالا » قبل أن نعبر أى شارع من الشوارع ، ولكن ذلك فى الواقع لم يكن له داع ما . فإن « بكين » ، وإن كان تعدادها قد نما من مليون نفس إلى أكثر من أربعة ملايين منذ اتخذها الشيوعيون عاصمة للبلاد ، فإن حركة المرور فيها ما زالت على بطئها السابق ، ومن النعم التى تذكر لها أن السيارات فيها قليلة جداً .

كما أن المركبات الصغيرة التى يجرها الآدميون لم تعد بكثرتها السابقة . فإن الشيوعيين يعدون هذا النوع من المواصلات من الرواسب المزرية التى تخلفت عن الماضى الرأسمالى . وقل أن يصنع منها شيء جديد الآن ، والمقدر لهذه المهنة أن تنقرض بمجرد وفاة الجيل الحاضر من ساحبى المركبات .

ولاحظنا أن السيارات القليلة التى مرت بنا كان معظمها من صنع روسيا أو بلاد أوربا الشرقية . وكان من المحتم عليها أن تتوخى الحرص والتؤدة فى مرورها فوق الثلج الذى يكسو الشوارع . وقد رأينا عدداً كبيراً من سيارات النقل العام ، كانت كلها جديدة ومن صنع « سكودا » . وكان راغبو الركوب فيها يقفون فى صفوف طويلة عند كل موقف من مواقفها ، وقد سمعنا مرة أحد الركاب يصرخ فى غضب لأن الباب قد قبض على ذراعه . فلم يكن يستطع

أكثر من حشر نصف جسمه داخل العربة الغاصة براكبيها .

وفى الأيام السالفة كنت ترى الكثيرين من الناس يلبسون أسمالا . أما الآن فيخيل للمرء أن كل فرد من الشعب قد زود بحلة جديدة من توه . ويلبس الجميع ملابس من قماش أزرق كأنها زى رسمى موحد . كما أن تلك الملابس السميكة المضربة بالقطن تخفى تقاسيم الجسم حتى ليكاد يتعذر على المرء معرفة الرجال من النساء ، وحتى « السيدة فى » كانت تبدو كأنها جندى .

وقد رأينا كثيراً من الناس يسترون أفواههم بأقنعة بيضاء . فكانوا يبدون كأنهم جراحون أو ممرضات خرجوا لتوهم من قاعة العمليات . وقد أوضحت لنا « السيدة فى » أن لبس هذه الأقنعة قد صار عادة من العادات الجديدة ، وأنها نفسها لها قناع تلبسه . وقد استحدث الشيوعيون لبس هذه الأقنعة لأسباب صحية ، فإنها تحمى الإنسان من البكتريا ومن الأتربة التى هى من آفات الصين الشمالية صيفاً وشتاء . وبعد بضعة أيام من ذلك حضرنا حفلة راقصة فى « قصر العال » فرأينا بعض الراقصين يلبسون أقنعة بيضاء ، فكان المنظر مجافياً للذوق الفنى التقليدى .

ومما رأيناه صفوف طويلة من الناس تقف أمام بعض الحوانيت . ذلك لأنه كثيراً ما يكون من الصعب الحصول على بعض المواد الغذائية وخاصة لحم الخنزير . ولما كانت « السيدة فى » قد خرجت لقضاء بعض المشتريات ، فقد تركناها عند مدخل السوق الكبيرة .

وكان المقر العام لشرطة الأمن فى مبنى قصر قديم يجاور «المدينة المحرمة». وهناك سئلنا عن خط سيرنا ، وأبلغنا أننا إذا أردنا التجول خارج العاصمة فعلينا أن نطلب إذناً بذلك قبل موعد قيامنا بثلاثة أيام ، وأنه عند وصولنا إلى كل مدينة جديدة يجب علينا أن نبلغ الشرطة بوصولنا .

وفى طريق عودتنا قمنا بزيارة والدى « مى لينج » . فعندما بلغنا مدخل

العمارة التى اتخذا فيها مسكنهما طلب إلينا أن نكتب أسماءنا وعنواننا . وقد كان والد « مى لينج » فى الأيام السالفة رجلا ثريا ، أما الآن فقد تغيرت الحال وأصبح الزوجان الشيخان يقيمان فى حجرة واحدة ، وقد لاحظنا هنا أيضاً أن بالحجرة من الأثاث فوق ما ينبغى . ولم نكد نرى والدى « مى لينج » حتى شعرنا بالأسف على عدم عملنا بنصيحة « السيدة فى » من حيث إبلاغهما مقدماً عن مجيئنا . فحتى قبل أن يتم لنا الجلوس ، بادرنا الوالد بالسؤال عما إذا كنا قد دونا أسماءنا لدى حارس الباب ، وهل كتبنا ذلك بالإنجليزية ؟ فأومأنا إليه بالإيجاب . فما الذى كان يزعجه من هذا الجانب ؟ لقد همهم بشىء عن كونى أجنبيا ، ثم غير موضوع الحديث . وفى هذه اللحظة فقط أتت لها فكرة تقديم الشاى لنا . ولم يكن شاياً صنع لساعته ، كما فى الأيام السالفة ، بل كان خلاصة سوداء خففت بالماء الساخن .

ثم قالت والدة « مى لينج » على سبيل الاعتذار : « لم يعد لدينا الآن أحد من الخدم ، إننا نعيش عيشة بسيطة جداً » .

وعند ذلك لحقها زوجها مسرعاً فقال : « إن حالتنا على أحسن ما يرام . فنحن راضون بما لدينا وليس ثمة شىء نشكو منه » .

وكان الرجل يدخن باستمرار، وكانت أصابعه الطويلة ملطخة بالنيكوتين. وقد أبلغناهما ما كنا نعلمه عن أحوال « مى لينج » . ولما قمنا لتحيتهما إيذاناً بالانصراف ، بدا لنا أن ذلك وقع عندهما موقع الارتياح . وكان ذلك أمراً غريباً ، لأن زوجتى كانت لها فى الأيام السالفة منزلة إعزاز خاصة لدى والد « مى لينج » .

وبعد خروجنا سمعنا صوت صفير فى الهواء . فتطلعنا إلى السماء فوقنا ، وإذا بسرب من الحمام قادم فى اتجاهنا مجتازاً فى طيرانه تلك السطوح المائلة التى تعلو مبانى المدينة . وقد أخبرتنى « شى يان » أن قائد السرب يحمل صفارة شدت

إلى إحدى ساقيه . ويحدث أحياناً أن هذا الصوت يجذب إليه بعضاً من الحمام الآخر فينضم إلى السرب . وقد كان ذلك فيما مضى هواية من الهوايات الشائعة يقصد بهـا الهاوون زيادة ما لديهم من الحمام ، أما الآن فقد قل عدد الذين يحتفظون بأسراب الحمام ، إذ أنه من الصعب توفير ما يلزمها من الغذاء .

ثم مررنا بمبنى ضخم جديد ، كان فى طرازه خليطاً عجيباً . فقد كان المبنى نفسه صينياً فى تقاسيمه وأعمدته الزخرفية ، ولـكن كان له سطح مستو مهيأ بشكل واضح للانتفاع به ، فـكان مثله فى نظرى كمثل رجل يلبس ملابس السهرة وعلى رأسه قبعة .

وقد علمنا السر فى ذلك بعد بضعة أيام . فإن المهندس المنوط بالبناء أراد أن يكون هنالك تناسق بين المبنى و بين الوسط المحيط به ، غير أنه حدث قبيل انتهاء البناء أن شرعت الحـكومة فى شن حملة على الإسراف وكل ما ينفق بلا فائدة . ولم يسلم ذلك المهندس من الأذى ، فنددت الصحف فى مقالات رئيسية ساخطة بتلك الأعمدة واعتبرتها مثالا من الإسراف وسوء التصرف فى الأموال العامة ، كما اضطر المهندس المسكين إلى الاعتراف علناً بأنه وقع فى « انحرافات المثالية البورجوازية » . ولما لم يكن فى مقدوره هدم تلك الأعمدة ، فقد أراد التكفير عن ذنبه بتتويج المبنى بسطح مستو .

وقد كانت فى انتظارنا مفاجأة سارة عنـد عودتنا إلى المنزل . فإن « السيدة فى » كانت قد استدعت « ويان شيا » كبرى أخوات « شن يان » ، وهى الوحيدة من أبناء أسرة « فى » التى كانت لا تزال تقيم فى الصين . وقد تعانقت الأختان دون أن تنبسا بكلمة واحدة .

« هاهنا أبنائى » قالت ذلك « ويان شيا » وهى تشير إلى غلامين طويلى القامة وابنة فى سن العاشرة وتلبس نظارتين يحيط بهما إطار قرنى غليظ ،

« وإن لى فوق هؤلاء مولودة أخرى ، غير أننى لم أستطع إحضارها معى لأنها ما زالت رضيعة » .

وقد أطلعناهم على صور لابنتنا « مى - مى » . وهنا ترددت الأسئلة : لماذا لم نحضرها معنا ؟ ولماذا لم ننجب غير طفل واحد ؟ وعند ذلك نظرت «السيدة فى» إلىّ نظرة تنم عن اللوم ، إذ لم يكن لنا غلام .

وبينما نحن كذلك ، إذا بالباب يفتح فجأة ويدخل مع الخادمة رجل فى زى رسمى أزرق . فحيانا فى أدب ثم جلس . وقد قدم له فنجان من الشاى ، فاعتذر مرتين قبل أن يقبله . وبعد أن قضينا جانباً من الوقت فى الحديث عن تبكير الشتاء هذا العام بحالة غير مألوفة ، قدم لنا تهنئة إلى « الرفيقة كانج » على قدوم ابنتها وزوج ابنتها لزيارتها ، وتمنى أن يكون لزيارتنا وقع حسن فى نفسينا عن الصين الجديدة الديمقراطية . ثم سألنا عن المدة التى ننوى إقامتها ، وعن خط سيرنا . فكنا نجيبه على أسئلته بنفس نغمة الحديث المرسلة التى كان يسألنا بها ، ثم قال فى النهاية : إنه لمن دواعى السرور أن قد أتيحت لنا الإقامة بمنزل الأسرة مع « الرفيقة كانج » بدلا من نزولنا فى أحد الفنادق .

فبدرت عند ذلك من « السيدة فى » ابتسامة تنم عن السعادة . وعندما غادرنا رجل الشرطة قالت عنه : إنه شاب ظريف بدرجة غير مألوفة ، جم الأدب دائماً كما رأينا ، وأنه يقوم بزيارتها من وقت لآخر ، فشتان بين هذه الحال وبين تلك الأيام السالفة التى كان فيها كل إنسان يخاف الشرطة .

وكانت « شياو يان » قد أحضرت معها معطفاً من الفراء ، فقدمته الآن لزوجتى وقالت : « إن هذا لك ، قد أعطاه لى والدى قبيل وفاته ، فبقى معلقاً بصوان الملابس من ذلك الحين » .

وكان المعطف بمقاس « شى يان » فى ضبط بديع . فمرت بيدها فى رفق فوق فرائه الناعم ، وأبخرة مانع « العتة » تتصاعد منه ، وقالت معترضة : « بل

احتفظى به أنت يا أختاه ، إن الشتاء هنا أشد برداً بكثير مما هو فى «الدانمرك» ، ولا أريد أن أحرمك منه » .

« ولكن لا فائدة لى منه ، فلم يعد أحد هنا يلبس معطفاً من الفراء » .

« ولم ذلك ؟ »

فهزت أختها كتفيها وقالت : « سوف يبدو شيئاً غريباً . لم يصدر بالطبع أى قانون بتحريمه ، ولكن .. ولكن جميع الناس سوف يحملقون فيمن يلبسه ، وأن الناس جميعاً يلبسون الآن زياً واحداً ، ألم تلاحظى ذلك ؟ »

فقالت « شى يان » : « بلى ، لاحظته ولاحظت أيضاً أنه قد بطل كذلك استعمال مساحيق الزينة حتى أحمر الشفاة . وقديماً كانت جميع الفتيات الصينيات يجعدن شعورهن ، أما الآن فلا أرى من ذلك شيئاً » . والواقع أن نساء الصين كن يستعملن أدهنة التجميل منذ أيام « كونفوشيوس » .

عند ذلك أوضحت «شياو يان» أن الناس جميعاً يريدون محاكاة الشيوعيين، وهؤلاء يحتقرون أمثال هذه السخافات . على أنه فى خلال الأشهر القليلة الماضية أخذت الصحف تشجع النساء على استعمال مواد الزينة وارتداء الملابس الجذابة — وأكبر الظن عندى أن أولى الأمر قد أدركوا ما يحدثه توحيد المناظر من الانقباض والخمول فى النفس . ومع ذلك فلا يكاد يكون هناك من أقدم على العمل باقتراح الحكومة ، فقد تمكن فى نفوس الناس الخوف من مخالفة غيرهم .

وقد شكرت « شى يان » أختها على هديتها الجميلة . ثم إن « شياو يان » أخبرتنا بأنها تعتزم النزول إلى ميدان العمل ابتداء من صباح الغد . إن مهنتها التمريض ، غير أنها عندما تزوجت وأنجبت أطفالاً رأت أن تتخلى عن العمل فى مهنتها كى تتفرغ لخدمة الأسرة . وإذ كان زوجها « آى تيه » يعمل طبيباً ، فقد سألناها عن سبب اعتزامها العودة إلى العمل : أذلك لأن « آى تيه » لا يكسب ما يكفى من المال ؟

فأجابتنا بالنفى ، وأن حالتهم على ما يرام وإن كانت مكاسب الأطباء ليست الآن بالكثرة السابقة ، إذ لم يعدْ لأحد منهم عيادة خاصة ، وجميعهم فى خدمة الحكومة ، فالحقيقة أن هناك نقصاً فى عدد الممرضات ، وقد أخذ الناس عليها عدم إسهامها فى هذه الخدمة ، فى الوقت الذى صار فيه كل الناس يعملون فى عمل ما . ولم يكن لها فى الحقيقة ميل كبير إلى العودة للعمل ، نظراً للمولود الذى أنجبته حديثاً ، ولكنها من جهة أخرى أرادت أن تقوم بواجبها .

عند ذلك أومأ ابنها الأكبر برأسه إقراراً لهذا القول . لقد كانت سنه تقارب السادسة عشرة ، وكان عضواً فى « عصبة الشباب الشيوعية » ، التى تبلغ جملة أعضائها فوق العشرين مليون عضو . وقد سألته هل فى نيته الانضمام إلى الحزب الشيوعى عندما يبلغ السن اللازمة .

فأجاب بالإيجاب ، وإنما يتوقف الأمر على قبول أولى الشأن لطلبه ، وأن الكثيرين من الشبان يرون ذلك ، ولكن قبولهم ليس بالأمر اليسير ، فإنه يجب أن يتوافر فى الطالب حب النظام ، والاستعداد للتضحية من أجل بلاده ، وإلاّ اعتبر غير أهل للعضوية .

وكانت « السيدة فى » و« شياويان » تريدان الوقوف على أخبار رحلتنا فى القدوم من أوروبا ، ولكن الفتى لم يبد اهتماماً كبيراً بما ذكرناه من أوصاف البلاد التى زرناها . وقد سأل عما إذا كنا قد زرنا إحدى دول « ديمقراطيات الشعب » (١) فلما أومأت «شى يان» بالإيجاب بدت على وجهه علامات البشر . غير أنها لما قالت « إننا زرنا يوغوسلافيا» بادر إلى القول : «يوغوسلافيا ! إن الناس هناك ليسوا بالشيوعيين الحقيقيين » .

ثم أخذت « شى يان » تتحدث عن « إسكندناوه » . فلم تمض حديثها

(١) يطلق هذا الاسم على دول شرق أوربا التى تدور فى فلك الاتحاد السوفييتى أمثال بلغاريا ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا .

طويلاً حتى قاطعها ابن أختها بسؤال منه ، قال : « وكيف تسنى أن يكون الناس فى شمالىّ أوربا فى عيشة رغدة ؟ إن تلك البلاد ، مهما يكن من أمر ، بلاد رأسمالية ، والناس فى البلاد الرأسمالية تظلمهم وتستغلهم الطبقات العليا » .

وكدت أهم بإعادته إلى صوابه ، لولا أن نظرت إلى « شى يان » نظرة فهمت منها أنها تريد ألا أقول شيئاً .

ثم سألت الغلام : « وهل تظن أن الروس أحسن حالاً من الإسكندناويين؟ »

« بالطبع . إن الاتحاد السوفيتى هو أعظم بلاد الدنيا تطوراً وارتقاء ، ومستوى المعيشة فيه هو أرقى مستوى فى العالم » .

ولا بد أن معلومات « شياويان » كانت أفضل من ذلك ، ولكنها لتقل شيئاً . وقد فهمت ما ينطوى عليه ذهنها ، إذ ما الفائدة من تلقينه شيئاً يخالف ما يجرى تعليمه لجميع الشبان الآخرين ؟ إن ذلك يحدث لديه حيرة وارتباكاً ، فضلاً عما قد يكون فيه من الخطر .

وعند انصراف « شياويان » وأبنائها رافقناهم حتى الباب الخارجى . وكانت شمس ما بعد الظهيرة تبعث الدفء حيث تقع أشعتها ، فيأخذ الثلج فى الذوبان ، غير أن مواضع الظل بقيت باردة .

وبعد أن لوّحنا لهم بإشارة الوداع ، تحوّلَ ذهنى إلى استعراض ما قالته لنا « السيدة فى » فى المساء السابق وكانت فيه على حق « لقد تغيرت فى الصين أمور كثيرة » .

الفصل الثالث

مسألة وقت

لن أنسى قط تجربة عرضت لى منذ سنوات كثيرة . لم يكن قد مضى على فى الصين سوى وقت قصير ، ولعل هذا هو السبب فى أنها أحدثت فى نفسى ذلك الانطباع البالغ . كنت قادماً لتوى من الدانمرك ، ولم آلف بعد شيئاً مما يرى فى الشرق من الفقر ومظاهر المحن .

كان ذلك فى « بكين » ذات مساء قارس البرد من أيام الشتاء ، وكنت فى طريقى لزيارة بعض أصدقائى الدانمركيين ، وإذ بى أرى رجلا يصدمه سائق من النوع « الذى يضرب ويهرب » وما لبست أن التف جميع من الناس حول ذلك الرجل الطريح وهو فى حالة إغماء والدم ينزف من جرح فى صدغه . ثم جاء أحد رجال الشرطة وسحبه إلى مافوق إفريز المشاة ، وكاد يهم بالانصراف .

فلم يكن منى إلا أن أمسكت بذراعه وقلت له : « لاينبغى لك أن تتركه هنا ، بل الواجب أن تنقله إلى إحدى المستشفيات » .

فألقى الشرطى نظرة على الرجل الجريح . كان مزارعاً عجوزاً ، ولعله لاجىء أتى من أحد الأقاليم التى أصابها القحط ، ويغلب علىّ ظنى أنه قدم إلى المدينة للتسول ، وكان رداؤه القطنى بالياً مرقعاً .

ثم قال الشرطى فى صوت عاطفى : « إن الإقامة بالمستشفيات تتكلف بعض المال ، ولا يمكن قبوله بالمستشفى إلا إذا تقدم أحد لضمانه ، والأغلب أنه ليس له أى أقارب بالمدينة هنا . فمن ذا الذى يتقدم لضمان رجل غريب مثله ؟ » .

ولست أظن أن الصينيين يفوقون فى غلظة القلب غيرهم من شعوب البلاد الأخرى ، غير أنه لم يكن يوجد ببلادهم فى تلك الأيام السالفة شىء من التدابير

لخدمة الجماهير . وكان شعور الناس أنهم غير مسئولين عن أحد غير أفراد عشيرتهم .

ولم يكن معي في تلك اللحظة شيء من المال، فماذا كان في حيلتي؟ لقد بلغت منزل أصدقائي وأنا في غاية من الغم مما رأيت . فأخذوا يعملون على التهدئة من روعي ، وقالوا إننا هنا أجانب وليس لنا من ذنب في انتشار البؤس في الصين بهذه الدرجة ، وليس في وسعنا عمل شيء ما ، فإن المشكلة واسعة النطاق بدرجة تعيي كل حيلة .

وفي ساعة متأخرة من المساء عدت من الطريق نفسه ، فلم أجد الرجل العجوز ولم يبق في المكان الذي كان يفترشه سوى بركة من الدم المتجمد .

والآن ، بعد مضي عشرين عاماً من ذلك ، مررنا ذات مرة ، أنا وزوجتي ، في نفس هذا الشارع . وكان ذلك في أوائل ديسمبر ، وكانت الشمس تسطع في تلك السماء الزرقاء ، كشأنها في « بكين » في معظم أيام السنة . وكنا في طريقنا لزيارة مكانين بالمدينة . ملجأ للشيوخ ، وسجن .

وبينما نحن على وشك عبور الطريق، إذا بي أرى رجلا مسناً يستند إلى أحد الجدران ، فكان أول ما خطر ببالي أنه ربما كان قد أفرط في الشراب ، ثم ما لبثت أن عدلت عن رأيي وقلت في نفسي إن ذلك أمر مستبعد ، لأنني في كل السنين التي قضيتها في الصين لم أر صينياً مخموراً قط .

فألقينا نظرة ثانية على الرجل ، فرأينا الدموع تسيل منحدرة على وجهه . وعند ذلك وقف بعض المارة وأخذوا يسألونه عن أمره ، ولماذا يجهش بالبكاء ؟ فأوضح أنه من قرية تبعد ستين ميلا عن المدينة ، وأنه قدم إلى هنا ليبيع جانب من الفول السوداني ، ثم فقد ما حصله من المال ، والآن لا يعرف كيف يستطيع العودة إلى بلدته ــ إنه رجل عجوز ولا يستطيع قطع كل هذه المسافة مشياً .

ولو كان ذلك في الأيام السالفة لظننته متسولًا يتلاعب بهذه الحيلة . ففي تلك الأيام كان جميع المواطنين بالصين يضيقون بمنظر البؤساء الذين يتضورون

من الجوع ويعرضون عاهاتهم عارية أو يحملون طفلا ، والعمى منهم يكتفون بمجرد الوقوف وقد امتدت أيديهم بوعاء تلمساً للأعطية . وقد كان المرء وقتئذ يبذل جهده لتجاهلهم ، ويحدث النفس بأن أغلب الظن أنهم قوم احترفوا التسول لعدم رغبتهم فى كسب عيشهم عن طريق العمل ، بل إن من الناس من كانوا يذهبون إلى حد القول بأن أولئك الأطفال المرضى الذين يحملهم المتسولون قد جيء بهم عن طريق الاستئجار .

أما ما كان من أمر هذا الرجل العجوز ، فقد سأله أحد الواقفين عن ثمن تذكرة السفر بالقطار إلى بلدته ، فأجاب بأنه يزيد قليلا عن « يوان » واحد (حوالى ثلاثة شلنات) . فأخرج أحد الواقفين من جيبه ورقة نقد من فئة عشرة سنتات (إذ أن النقود المعدنية قد بطل استعمالها فى الصين) ، وأعطاه آخر عشرين سنتاً ، وقدم له ثالث خمسة سنتات فقط ، ولكن لم تكد تمضى فترة وجيزة حتى بلغت الجملة أكثر من دولار . فابتسم العجوز فى بشر ، ثم انحنى نحو اليمين ونحو اليسار وسار مسرعاً إلى محطة السكة الحديدية .

عند ذلك قالت « شى يان » : «ما أغرب وقوع أمر كهذا فى بلاد الصين ! ولهذه المناسبة ـ أما لاحظت أنه لم يعد هنالك متسولون ؟ »

فأجبتها بأننى قد لاحظت ذلك ، بل وما هو أكثر منه . فإننى منذ يومين أعطيت عشرين سنتاً إلى غلام من ماسحى الأحذية كان يبدو عليه أنه فى حاجة إلى تناول شيء من الطعام فلما سرت فى طريقى أخذ الغلام يجرى ورائى مسرعاً ثم قال :

« ولكنى لم أقم بمسح حذائك » .

« إنه فى غير حاجة إلى ذلك »

« إذن لا حاجة لى بنقودك ـ إننى لست متسولا ! » فاضطررت فى نهاية الأمر إلى السماح له بمسح حذائى مع أننى كنت قد مسحته من توى بالمنزل .

ولما واصلنا المسير فى هذا الشارع مررنا بإحدى البحيرات الصغيرة التى كان الأباطرة السابقون قد صنعوها تجميلا لمدينة « بكين » وكان الأطفال الذين يتريضون بالانزلاق فوق جليدها يتضاحكون ، فكانت ضحكاتهم تتردد عالية فى ذلك الهواء الصافى الشديد البرودة . وكان الثلج الذى كسا أسطح « المدينة المحرمة » قد أخذ فى الذوبان ، فتيسرت من خلاله رؤية القراميد التى كسيت بها تلك الأسطح ، إنها ذات لون أصفر ذهبى – وهو اللون الرسمى الإمبراطورى .

ثم رأينا بعض الرجال يقتطعون كتلاً كبيرة من الثلج ، فأخبرتنى « شى يان » بأن هذا كان مصيرها إلى التخزين فى أقبية تحت الأرض لتباع خلال أشهر الصيف الحارة . وقد جرى الصينيون على القيام بذلك منذ أكثر من ألف عام .

و إذ كنا فى ضواحى المدينة ، فإننا لم نر شيئاً يذكر من اللافتات السياسية التى تلصق على الحيطان . على أن الواقع أن مدن الصين الحمراء مملوءة على طول العام بتلك اللافتات الملونة التى تبدو كأنها صورة مضحكة مكبرة ، قد مثل فيها جميع أعداء الشعب فى أوضاع تهزيئية شتى : فيرى فيها الاستعماريون وهم يتلقون الطعنات من حراب ديمقراطيات الشعب ، كما يرى « دلاس » وقد نسفته نفس القنابل الذرية التى قام هو بإعدادها ، وأشرار الرجعين قد شدت أيديهم خلف ظهورهم و يقوم بجرهم جنود حمر تبدو أمارات النبل على وجوههم .

وقد ظل « شيانج كاى شيك » موضع هجوم اللافتات شطراً من الزمن ، غير أنه ما كدنا أن نصل إلى « بكين » حتى كانت النداءات بوجوب تحرير « فورموزا » قد اختلفت وصارت الصدارة لموضوع « السويس » والظاهر أن الشيوعيين يبذلون الوسع فى توجيههم لكراهية الشعب ضد موضوع واحد لكل دفعة .

ومع ذلك فليس فى مقدور الشعب أن يتابع كل ما يجرى من التغييرات

المتلاحقة . فقد شهدت « بكين » قبيل وصولنا إلى الصين مشهد تجمهر هائل ، يتلخص فى أن نصف مليون من الشعب ألفوا مظاهرة منهم وساروا بها إلى دار السفارة البريطانية لإظهار احتجاجهم على الاعتداء على « السويس » وقد نعتت الصحف الصينية الحادث بأنه « انفجار تلقائى لغضب الشعب » .

وفى أثناء مسيرنا وقفنا أمام مطعم يجذب الأنظار بمبناه الحجرى المنخفض . ورأينا أمام مدخله بالضبط شاباً من عمال المطعم يحرك شيئاً يتصاعد منه البخار داخل قدر هائلة من حديد فقلت فى نفسى إنه لمنظر شاهق يليق لالتقاط صورة جميلة .

ولكننى قبل أن أتم ضبط آلة التصوير صاح بى الرجل تنبيهاً لى بعدم رغبته فى التقاطى صورة له .

« ولماذا الامتناع ؟ »

« من أنت ؟ ولماذا تريد صورة لى ؟ »

عند ذلك أطلعته على بطاقتى الصحفية الحمراء الجميلة التى صرفت لى من وزارة الخارجية الصينية ، فصارت البطاقة تنتقل من يد إلى يد بين الواقفين ، وكان قد تجمع منهم حولنا جمع كبير . ثم بدت على معظمهم أمارات الاغتباط وصح الرأى لديهم على أنه ما دامت الحكومة قد صرفت لى مثل هذه البطاقة فلابد أننى من أصدقاء الصين ، وأنهم لا يرون مانعاً فى هذه الحالة من التقاطى للصورة التى أريدها .

ولو كان هذا الأمر فى الأيام السالفة ، لكان عامل المطعم قد أذعن بلا شك لما سمع . فقد كان المتبع فى تلك الأيام أنه إذا اختلف اثنان من الصينيين على أمر ما ، كان الفصل فى الأمر يترك للواقفين . لكن هذا الشاب كان قد نشأ فى الصين الجديدة وليس من السهل زحزحته عن رأيه . فكان من رأيه أنه حتى مع التسليم بأنى صحفى فليس ذلك بدليل قط على أنه مسموح لى بالتقاط

الصورة . فاتصل بالشرطة بالتليفون ، فأحالته الشرطة إلى وزارة الخارجية . وقد طالبته هذه ببيان اسمه وسنه وعنوانه ، و بعد أن أوضح ظروف الحادث بالتفصيل طلب إليه الإدلاء باسم الصنف الذى كان يطبخه فى القدر . فلما أجاب بأنه « عصيدة » بدرت من بعض الواقفين ابتسامة صامتة تنم عن تبصر ، ولكن الشاب بقى محتفظاً بموقفه الجدى المتزمت . و بعد لحظة يسيرة أعلنت وزارة الخارجية قرارها ، فكان يقضى بالسماح لى بالتقاط الصورة .

ثم رأينا بالقرب من المطعم ميداناً يعج بالناس : لقد كان ذلك سوقاً من « الأسواق الحرة » كما يسمونها ، وفى غير هذه الأسواق لا يجرى بيع أو شراء إلا عن يد السلطات ، فترى الزراع أعضاء فى هيئات جماعية ملزمة ببيع محصولاتهم للحكومة .

وقد أحدث هذا النظام تذمراً شديداً كان يهدد المحصول الزراعى بالعجز فلما أدركت الحكومة ذلك ، بادرت إلى التخفيف من قبضتها ، فسمحت لكل مزارع بقطعة صغيرة من الأرض يفلحها لنفسه خاصة ، وصار ما ينتجه منها طليقاً من كل قيد ، بحيث يسمح له بنقله إلى المدينة ليباع بها فى « السوق الحرة » . والأثمان هنا أعلى مما فى المخازن العامة ، غير أنه لما كانت هذه المخازن لا تفى دائماً بحاجة الجمهور من بعض أصناف ، فإن الجمهور يستكمل ما يلزمه منها بابتياع المنتجات الخاصة التى يأتى بها المزارعون .

وقد لاحظت أن المزارعين المنتشرين فى السوق كانوا يكتفون ، كلما التقطت صورة لهم ، بالتكشير عن أنيابهم فى ضحك فاتر . ذلك لأنه لم يرب فيهم « الوعى السياسى » بعد ، وهو تعبير شائع الاستعمال عند الشيوعيين . فهم لذلك لا يدركون أن « الشيوعى الحقيقى » أو « الصينى الوطنى » — والاثنان بمعنى واحد تقريباً الآن — يجب عليه أن يكون دائماً على حذر من الأعداء الاستعماريون و « العناصر الرجعية » .

وقد وصلنا بعد ذلك إلى ملجأ الشيوخ ، وهو يشغل مجموعة من المساكن ذات الطبقة الواحدة يحيط بها سور واحد . وقد رحب بنا مدير الملجأ ، وهو ضابط سابق من ضباط « جيش الصين الأحمر » . ثم قدم لنا الشاي في قاعة الاجتماع تحت صورتي « ما وتسي تانج » و « ستالين » ، إذ الواقع أن الحركة الهدمية ضد « ستالين » لم تصل قط إلى الصين .

عند ذلك قمنا بسؤال المدير عما إذا كان في نية الحكومة العناية بجميع الشيوخ فأجاب : كلا بلا شك . فإن ذلك ما زال من واجب الأسرة ، أما الحكومة فإنها لا ترعى إلا الأفراد المعوزين .

وقد أخبرنا المدير أنه يوجد في بكين ملجآن آخران من هذا النوع يؤوي كل منهما نحو ألف لاجيء . وكان هذا الملجأ في الأصل معداً لإصلاح شأن المتسولين . وقد كان بعضهم في حالة تحطم شديد ، حتى إنه لم يكن هناك طائل من تعليمهم أية حرفة ، وهذا الفريق ما فتيء من نزلاء الملجأ . أما ما تنفقه الحكومة على كل من اللاجئين فإنه يقل قليلاً عن عشرين جنيهاً في العام ، وهذا فضلاً عن تزويدهم بالملابس والدخان .

وقد كنا نفضل أن نتجول في أرجاء الملجأ دون مرافقة أحد لنا ، وأن نتحدث إلى أولئك الشيوخ ، ولكن المدير أراد أن يحوط ضيوفه الأجانب بالرعاية . وعندما دخلنا أحد العنابر التي يعيش فيها الشيوخ أصدر المدير أمراً ، وإذ بهم جميعاً ينهضون واقفين ويصفقون . وهذه هي الطريقة المتبعة دائماً لتحية الزائرين في الصين الجديدة ، وهي عادة أخذها الصينيون عن الاتحاد السوفيتي .

وليس من شك في أن هؤلاء الشيوخ يسعدهم الوجود هنا . قال أحدهم وهو جالس بجوار المدفأة يمر بيده على لحيته : « إننا ننال من الطعام ما يكفينا ، وعندما نموت نزود بتابوت للدفن ونشيع في جنازة على ما ينبغي » .

وفي هذه اللحظة عادت بي الذاكرة إلى منظر شاهدته في الأيام السالفة في أحد الأزقة الملتوية بمدينة « شنجهاي » هنا لك كان مقر هيئة خيرية تسمى ،

على ما أذكر ، « جمعية السماء الزرقاء الخيرية لدفن الموتى » . فقد كانت ترقد على إفريز المشاة ، الواقع أمامها صفوف من المتسولين وهم فى حالة الاحتضار ، فكنت تراهم هناك على هذا الوضع ليلاً ونهاراً صيفاً وشتاء ، وهم رقود ينتظرون الموت ، وإذ ذاك يدفنون فى توابيت من الألواح الخشبية . أما الذين كان رجال الشرطة يلتقطونهم وهم أموات فكانوا يحرقون ، مع شدة كراهية الصينيين لفكرة إحراق الموتى .

وقد رأيت بعض الشيوخ يقومون بإلصاق رقاع العنـاوين على علب الكبريت ، فكان ذلك عملا لطيفاً يكسبون به قليلا من النقود لمصروف جيوبهم . ورأيت آخرين يلعبون الشطرنج وهم جالسون فى فراشهم . وآخرون كانوا يتجولون خارج العنابر ، وقد ضم كل منهم يده إلى الأخرى داخل أكمامهم الطويلة اتقاء البرد ، إذ أن القفافيز لا تستعمل فى هذه البلاد .

وعند مغادرتنا الملجأ ، حيانا الشيوخ بالتصفيق مرة أخرى . ومن هنا قصدنا إلى السجن . فعند وصولنا وجدنا جنديين يحرسان الباب الخارجى : غير أننا بعد أن اجتزنا مكانهما لم نحس بشيء يشعرنا بأننا فى داخل سجن . فلم يكن هناك حراس ما ، ولا أقفال غلقت بها الأبواب ، وسمح للمساجين بلبس أى زى أرادوه فكانوا على ما أظن هم الفريق الوحيد من الناس الذين رأيتهم فى الصين كلها فى غير الملابس الزرقاء الشبيهة بالزى الموحد .

ويوجد بالسجن مصنع غزل يعمل فيه نزلاء السجن ثمانى ساعات ونصف ساعة فى اليوم — مع العلم بأن يوم العمل المعتاد فى الصين تبلغ مدته سبع ساعات ونصف ساعة فقط . ويتناول المساجين أجوراً تقل بقدر ٢٠ فى المائة عن الأجور فى الخارج : وعليهم أن يدفعوا ثمن طعامهم ، وما بقى من الأجور بعد ذلك يحفظونه لأنفسهم .

وقد ألف المساجين من بينهم جمعية للتمثيل ، وفرقة موسيقية وفرقة لكرة القدم . ويقومون بتمرينات رياضية ثلاث مرات فى اليوم ، مدتها عشرون دقيقة

فى كل مرة : وقد خصصت لهم بعد أوقات العمل ساعة لقراءة الصحف والمناقشة تتلوها ساعتان للتربية السياسية .

وقال لنا مراقب السجن إن فى وسعنا أن نوجه ما تريد من الأسئلة لأى سجين ، ولكننا لما واجهنا المساجين وجدنا من الصعب علينا أن ننطق بكلمة واحدة . والواقع أننى قلما شعرت بمثل ما شعرت به من الإحراج أمام هؤلاء الرجال الصامتين الذين كانوا يتفادون نظراتنا .

وقد سألت ونحن نواصل سيرنا : ماذا فعلوا ؟ فأجابنى المراقب بأن ثلثى المساجين اقترفوا ذنوباً سياسية : فنظرت إليه فى دهشة . فقال موضحاً إن بعضهم كانوا عملاء لما ينادى به « شيانج كاى شيك » و بعضهم كانوا ذوى نشاط معاد للثورة ، وكان موقفهم معادياً للتغييرات التى استحدثتها الحكومة الجديدة .

وقد أجاب المراقب على سؤال لى بقوله : إن المساجين لايخاطبون بلقب « رفيق » ، ولكننا « لانعتبرهم مجرمين ولا نعاملهم معاملة المجرمين : إنهم فى نظرنا آدميون قد غرر بهم » :

ثم واصل كلامه فقال إن الانسان وليد البيئة التى أحاطت به ،وأن «الموقف غير السليم » الذى وقفه هؤلاء القوم لم يكن سوى نتيجة طبيعية لما كان للمجتمع السالف من الأثر السيىء : وهم بوجودهم داخل السجن قد أتيحت لهم الفرصة للإصلاح من أمرهم ، فيجرى إطلاق سراحهم بمجرد تغير موقفهم : وما عليهم إلا أن يبرهنوا على أن التربية السياسية التى يزودون بها قد آتت ثمارها فأصبحوا يدركون أن المنهاج الشيوعى هو وحده المنهاج السليم الملائم للصين :

قلت : « وماذا إذا لم يتم اقتناعهم ؟ »

فابتسم المراقب وقال : « إنهم دائما يقتنعون ، إما عاجلا وإما آجلا : إن الأمر لا يخرج عن كونه مسألة وقت » :

وعندما غادرنا المكان كان الظلام مقبلا ، وكانت ريح شديدة تهب من الشمال ، فكان الجو شديد البرودة .

الفصل الرابع

زوجتى تتناول طعامها بعيدان خشبية

فى ذات يوم دعيت أنا و « شى يان » لتناول الغداء عند بعض أصدقائنا الأورببين . وكان الموعد الذى يجب أن نكون فيه هنالك الساعة السابعة والنصف مساء ، غير أنه حوالى اكتمال الساعة السادسة رأيت خادمتى منزل السيدة حماتى قد أخذتا فى إعداد مائدة الطعام . فقلت : « أرجو ألا تكونوا قد أعددتم لنا شيئاً » ، فقالت كبراهما « شانج ساو » : « بلى ، قد أعددنا » .

« ولكننا أخبرنا كم أننا سنتناول الغداء خارج المنزل » .

« إننى أعلم ذلك ، ولكنكم ستتناولون هنالك طعاماً غريباً » . قالت ذلك وهى تتفادى نظراتى عن عمد ، ثم أضافت : « وقد رأينا أن الأفضل أن تتناولا شيئاً من الطعام قبل ذهابكما » .

إن رأيها عن الطعام الأوربى لم يكن غريباً بين الصينيين ، ولذلك قد يدهش الإنسان إذ يرى أن المطعم السوفييتى الذى افتتح فى « بكين » بعد التحرير بقليل حافل نوعاً ما بالرواد . ولكن السبب فى ذلك سياسى أكثر مما هو متعلق باستساغة الطعام ، بمعنى أنه إذا كانت روسيا هى أم الشيوعية فإن بعض الصينيين يرون من الواجب عليهم أن يجربوا الطعام الروسى . فنى هذا المطعم السوفييتى كنت ترى الجالسين يعانون على مضض تناول ذلك الطعام الذى بدا لهم ثقيلا وفى حالة لم تكن تتصور . والكثيرون منهم يكفون عن تناوله فى منتصف الوجبة ولا يعودون إلى المطعم بعد ذلك قط ولا يشذ عن ذلك إلا بضعة شيوعيين متعصبين . وقد قال لى أحد أصدقائى الصينيين وهو يمزح : « إن القوم لا يسمحون بتدخل الحقائق فى نظرياتهم ، وعندهم أن كل شىء مصدره

الاتحاد السوفييتي لا بد أن يكون هو الأفضل ، وذلك لأنه كذلك » .

وكنت عندما ذهبت مع زوجتي إلى « الدانمرك » لأول مرة قد أردت بطبيعة الحال أن أعطى لها صورة حسنة عن تلك البلاد ، ولذلك كان أول شيء قمت به أن آخذها إلى مطعم عظيم الشهرة في « كوبنهاجن » ، حيث طلبت لها طبقاً من « البفتيك » . وكنت خلال السنين الطويلة التي مضت قبل ذلك لا أفتأ أحدثها عن مباهج المطبخ الدانمركي التي لا تضارع . فأخذت الآن أتأمل حالها في ترقب عندما شرعت في تناول الطعام . فكان من دواعي دهشتي أنه لم يخرج من شفتيها شيء من صيحات الابتهاج ، بل مضت تمضغ طعامها في صمت و بلا حراك . فقلت :

« هل هو يابس ؟ »

« كلا ، إطلاقاً »

« هل أعجبك ؟ »

« يظهر أن المقادير التي تعطى للآكلين في الدانمرك كبيرة » .

« هل هو لذيذ الطعم ؟ »

« لم تقدم لي قط قبل الآن قطعة لحم في مثل هذا الحجم الكبير ! » .

عند ذلك وضعت شوكتي وسكيني جانباً وقلت : « إنك على تمام المعرفة بأني أكره اللف والدوران . أريد جواباً صريحاً : هل أعجبك أو لم يعجبك ؟ »

فابتسمت في أدب وقالت : « إنك كاتب قدير ، وفي بعض الأوقات يكون وصفك للشيء أجمل من الشيء نفسه » .

وكانت هذه أول مرة لم تعجبني فيها تحيتها ، بل لقد أحسست بأنني أوذيت في شعوري إيذاء شديداً . إننا معشر الدانمركيين نعير مسألة طعامنا اهتماماً شديداً . فلو أنها كانت قد مزقت العلم الدانمركي ووطئته بقدميها لما كان ذلك أشد إساءة لي مما حصل .

و بعد أن واصلنا مضغ طعامنا قليلا فى صمت وجمود قالت لى : « أما يأكل الدانمركيون شيئاً غير اللحم والبطاطس ؟ » فطلبت لها طبقاً من الخضر ، وكان منظره شهياً جداً ، يشمل مجموعة من الـكرات العريض (أبو شوشة) والجزر والـكرنب الصغير ، الجميع يتصاعد منها البخار فى شكل مغر . فأخـذت منه قضمتين ثم أزاحته نحوى .

« والآن ، ماذا هنالك ؟ »

« لا شيء — سوى أننى لا أشعر بميل إليه » .

« ولماذا ذلك ؟ »

« لأن . . . . ونظرت إلى مبتئسة ، ثم انطلق لسانها فقالت : « لأن الخضر يجب أن تـكون هشة مقلية فى قليل من الزيت على الطريقة المألوفة فى الصين . أما هـذه فقد غليت فى الماء حتى هلـكت وأصبح ملمسها فى الفم كالعصيدة — إنها لا طعم لها ! »

فتنفست الصعداء ، ثم عـدت إلى آخر حيلة فى جعبتى ، فدعوت عامل المائدة وطلبت إليه أن يأتينى بقائمة « السندويتش » . وكان هـذا المطعم قد اشتهر بأن قائمته فى هذا النوع من الطعام لامثيل لطولها فى بلاد الدانمرك كلها .

فناولتها القائمة وقلت : « ياله من اختيار موفق ! هل سبق لك أن رأيت شيئاً مثل هذا ؟ » .

فقالت : « نعم رأيت » . ثم أخذت تذكرنى فى أدب جم بأن كل محافظة فى الصين بها مجموعة تفوق هذه فى مجال الاختيار ، وبالصين ثمانى عشرة محافظة عدا منشوريا » .

وكان مما حوته القائمة صنف من السندويتش الدانمركى المفتوح ، قوامه « الروز بيف » المـكسو بطبقة من « الريمولاد » والبصل الحمر ، وصنف آخر

من معجون الكبد المزين بجلاتين اللحم وشرائح البنجر ، لكنها لم تتحرك حتى لهذين الصنفين .

وقد أدركت فيما بعد أنه لا يكاد يوجد بين الصينيين من تعجبه سندو يتشاتنا ، فهم يقولون عنها إنها جميلة فى منظرها لكنها جافة فى مأكلها.

وكانت « شى يان » لم تتعلم قط طهو الطعام ، ولكنها بعد أن أقامت بعض الوقت فى الدانمرك أخذت تعمل التجارب لصنع الطعام الصينى . وكثيراً ما ألحقت الحروق بنفسها و بالطعام ، كما جرحت أصابعها ، إلى غير ذلك من التجارب الأخرى الكثيرة الأليمة ، ولكنها مضت فى مثابرتها . لقد كان ذلك ضرباً من ضروب الدفاع عن النفس .

أما أول عهدى بالطعام الصينى فإنه يرجع إلى مأدبة جنازية فى بلدة قرب « شنغهاى » وكنت أنا الأجنبى الوحيد بين أكثر من مائة مدعو . فلما حلّ وقت تناول الطعام دعينا إلى بهو عظيم مدت به اثنتاعشرة مائدة كبيرة مستديرة. ولكن المدعوين ، بدلا من أن يقصدوا إلى الموائد ويجلسوا ، أخذوا يدفعون بعضهم لبعض و يحاول كل منهم فى إلحاح أن يدفع غيره أمامه ليقدمه على نفسه. فكان الظاهر لى أن أحداً منهم لم يرغب فى الجلوس على المائدة المواجهة للباب. وقد كنت جائعاً ، ولذلك ما أن دعانى أحد الحاضرين إلى الجلوس هنالك حتى لبيت دعوته فى الحال . وقد بدا على وجوه الآخرين شىء من الدهشة لذلك .

ولم يكن من الحاضرين من يتكلم الإنجليزية سوى مدعو واحد ، وكان يتكلمها فى ضعف ، فأجلس بجانبى . وقد أوضح لى أنه قد جرت العادة بأن كل من يدعى للجلوس على هذه المائدة يجب عليه أن يعتذر مرتين على الأقل . فإن توجيه الدعوة الأولى إليه إنما هو لمجرد المجاملة ، فإذا أعيدت دعوته كان ذلك تأكيداً خاصاً للدلالة على مجاملته . أما الدعوة الثالثة فتكون هى المقصودة حقاً . فإن هذه المائدة مخصصة لأعظم المدعوين شأناً . ثم قال وهو يبتسم :

« وضيف الشرف بين الجميع يجلس فى هذا المكان المواجه للباب » . قال ذلك وهو يشير إلى الكرسى الذى أحتله أنا !

وما زلت أشعر بالأسف على كل ما فاتنى من ألوان الطعام الكثيرة التى قدمت فى هذه المأدبة .

وكان أول ما قدم لنا اثنى عشر صنفاً من الأطعمة الباردة ، ومما كانت تشمله ، محار بحرى مقلى ، دجاج و بط مدخن ، كابور يا بصلصة النبيذ ، عضل مقبل بماء البحر ، إلى غير ذلك من الأصناف الغريبة الكثيرة .

وكانت جميع الأطعمة مجزأة قطعاً صغيرة حتى يسهل تناولها بالعيدان الخشبية، وكان كلما عثر أحد من الجالسين على مائدتنا على قطعة ممتازة نقلها إلى وعائى . ذلك لأنهم كانوا لا يستطيعون التحدث إلى — إذ كنت لم أتعلم الصينية بعد — فكانت هذه هى طريقتهم لإكرام الضيف الغريب .

وقد نصحنى جارى بألا أفرط فى الأكل فى هذه المرحلة ، ولكننى لم أعمل بنصيحته ، إذ كان الطعام لذيذاً جداً ، وخاصة ما نسميه نحن الأور بيين « البيض ذا المائة عام » ، وهو يصنع من بيض البط ، ولم يمض عليه فى الواقع أكثر من بضعة أشهر ، وطريقة صنعه أن يوضع البيض فى خليط من الجير والطين ، فيتحول بذلك لون بياض البيض إلى لون بنى داكن و يتحول الصفار إلى لون أسود تقريباً ، ويكون مذاقه فى النهاية كمذاق جبنة « كاميمبيرت » إلا أنه ألذ بكثير منها .

و بعد الانتهاء من الطعام البارد ابتدأ تقديم الأصناف الساخنة ، وكانت تشمل : ضلع خنزير (حلو أو مملح) ، جمبرى ببراعم الغاب الهندى ، سمك « الماندرين » المحمر ، دجاج بالكارى . (مع العلم بأن « الكارى » هو صنف أجنبى بالنسبة للصين) .

وكان ترجمانى يخبرنى عن كنه محتويات كل طبق ، وقد استعصى عليه ،

بعض الشيء ، صنف من الأصناف ، لـكننى علمت فى النهاية أنه بيض نوع من السمك باليخنى .

ولما مضى نحو ساعة منذ ابتدائنا فى تناول الطعام ، أخذت أتعجب لماذا لم يتجشأ أحد من القوم ، إذ أننى كنت قد سمعت أن التجشؤ على المائدة أمر مستحسن عند الصينيين ، لدلالته على حسن تقدير الآكلين للطعام . فهل من الممكن أنهم كانوا فى انتظار ابتدائى أنا فى ذلك ، إذ كنت مهما يكن من أمر ، محتلا مقعد ضيف الشرف ؟

وقد كنت فى أيام التلمذة ممن يجيدون حركة التجشؤ ، فبرهنت الآن على أننى لم أنس طريقة الإتيان بها ، ثم أخذت أتلفت حولى لعلنى أرى علامات الاستحسان ، لـكننى لم أر سوى دهشة صامتة بقيت بعض الوقت . وقد علمت فيما بعد بالنبأ الصحيح عن ذلك ، وهو أن لا حرج عن أحد إذا وقع منه التجشؤ خلال مأدبة صينية ، بشرط أن يراعى فى ذلك الـكياسة ، وأن الأمر بلا شك غير إجبارى .

ثم قدمت بطة كاملة ، فـكانت ناضجة طرية لدرجة أنها انهارت كلها تقريباً بمجرد أن لمستها عيدان الأكل الخشبية . فتراجعت فى مقعدى وقلت : « إننى لا أستطيع تناول لقمة واحدة بعد الآن » . فنظر إلى جارى فى دهشة كبيرة وقال : « إنما نحن فى البداية الحقيقية ، وإن أحسن الأصناف هى التى ستأتى من الآن فصاعداً » .

على أن غيرى من المدعوين كانوا أكثر منى حكمة ، فـلم يتناولوا من أى صنف سوى قضمة واحدة أو قضمتين ، واستطاعوا بذلك مواصلة الأكل حتى ورود الصنف الرابع والستين . وكانت خاتمة الطعام الأرز وحساء « أرجل الدجاج ولسان البط » . ثم تلت ذلك الفاكهة .

والواقع أن الصورة العالقة بذهنى عن هذا المنظر الأخير إنما هى صورة

خافتة غامضة ، لأنى لما وجدتنى غير قادر على تناول المزيد من الطعام بدأت فى الشراب ، فكان من المشروبات التى قدمت نبيذ الأرز الساخن الأصفر اللون ، وكان فى مذاقه شبيهاً بشراب « الشيرى » . ومنها أيضاً شراب « ماء النار » الصينى ، وهو أقوى من مشروبنا الدانمركى « سنابس » . وكان إذا غمست فيه إصبعاً وخططت به خطاً وأشعلته بعود من الثقاب رأيت شعلة تجرى فى وثبات فوق المائدة . كذلك كان هناك نوع آخر من «ماء النار» جعلنى أشك فى حقيقة المرئيات أمامى .

فقلت لصاحبى : « بحقك ألا أخبرتنى أليست هناك سحلية داخل هذه الزجاجة ؟ » فقال : « بلى ، إن المفروض أن يكون بالزجاجة سحلية حقاً لأنها تكسب الشراب طعماً حسناً » .

والصينيون قلما يتناولون المشروبات إلا فى المآدب ، وإذا شربوا كان شرابهم فى تحفظ . وعندما يقدم الأرز فى ختام الطعام ينقطع تناول الشراب . وكؤوس الشراب عندهم صغيرة جداً . وهم يلعبون أحياناً « لعبة الأصابع » ، يقوم بها فى كل مرة لاعبان اثنان ، فيمد كل منهما يده اليمنى مبرزاً بعض أصابعها ، ثم يصيح كل منهما بالعدد الذى يراه ، من واحد إلى عشرة ، فمن كان العدد الذى صاح به مطابقاً لجملة عدد الأصابع البارزة كان هو الرابح .

وقد لعبت مع جارى ، فلما ربحت الدورة الأولى أفرغت كأسى فى جوفى وأنا مغتبط بانتصارى ، ثم اتضح فيما بعد أن الناظرين إلينا كانوا يعانون كتم ضحكاتهم . فأوضح لى صاحبى أن العادة فى الصين تقضى بأن المغلوب هو الذى يشرب كأسه ، ثم رفع كأسه فارغة وقال : « جان بى » أى «بالكأس فارغة». وهذا القول عند الصينيين يقابل قولنا : « الكؤوس مقلوبة » . ومنذ هذه اللحظة لم أبذل جهداً شديداً لأكون أنا الرابح فى اللعبة .

إن نفقة الأكل الفاخر فى أوربا كبيرة ، ولكنها ليست بشىء يذكر

بجانب ما تتكلفه الأكلة الصينية البالغة غاية الفخامة ، وقد روت الصحف أخيراً أنه قد أقيمت مأدبة لإثنى عشر طاعماً بمدينة « هونج كونج » حيث يقيم الكثيرون من أغنياء الصين اللاجئين ، فبلغت نفقتها ٤٨٠ جنيهاً . ولا يقدم في مثل هذه المآدب سوى أنفس النفائس من المأكولات ــ مثل مخلب الدب وحساء عش الخطاف ، ولحم الثعابين ، إلى غير ذلك من الأصناف النادرة . ويقال إن أهل الصين الجنوبية مولعون بأكل مخ القرد الحيّ . ذلك بأن يؤخذ القرد المسكين ويوضع رأسه داخل تجويف في وسط خوان أعد لهذا الغرض . ثم يحلق رأسه بالماء الغالي وتكسر جمجمته بالطريقة التي تفتح بها البيضة « البرشت » على أنني لم أتمكن قط من الاتثيثاق من هذا النبأ .

والثعابين بين الأطعمة الشعبية المألوفة في بلاد الصين الجنوبية الحارة الرطبة. فهنا لك ترى في المدن الكبيرة بعض دكاكين لا تبيع غير لحم الثعابين . وقد قمت أنا و « شي يان » بزيارة دكان من هذا القبيل بمدينة « هونج كونج » فأخبرنا صاحبه بأنه يبيع نحو ١٠٫٠٠٠ ثعبان في اليوم ويبلغ ثمن الواحد منها ما يقل قليلا عن جنيه واحد استرليني . ويؤكل لحمها مطبوخاً باليخني أو مقلياً ولكن المرغوب فيه من أجزائها بدرجة تفوق كل ما عداه هو سائل مرارتها ، وهو يشرب ممزوجاً بكأس من النبيذ . وقد طلبنا شراب « كوكتيل » اتخذت له مرارة خمسة ثعابين من أنواع شتى ، فلم أستسغه كثيراً ، لشدة مرارته ، ولكنه يعزى إليه أنه نافع للعيون .

وكان الصينيون في الأيام السالفة يقدمون الإكراميات (البقشيش) بسخاء . ففي المآدب الخاصة التي كانت تقام داخل المنازل ، كان الخدم ينالهم دائماً شيء من الضيوف ، كما جرت العادة بأن ينفح المضيف بالإكراميات قاطري العربات الخفيفة الذين كانوا ينتظرون سادتهم خارج المنزل . وفي المطاعم ، كان عامل المائدة يصيح عند مغادرتك المكان ذاكراً قيمة ما قدمته من إكراميات ،

فيجيب عليه العمال الآخرون بصياحهم فى صوت واحد « شكراً جزيلا » على أننى كنت دائماً أكره عادة تقديم الإكراميات ، ولذلك كان من دواعى سرورى أن أرى أنه قد قضى عليها فى الصين الجديدة .

ولا يأكل الصينيون كثيراً من اللحم إلاّ فى المآدب . فإن نسبة اللحم أو السمك مما يتناولونه من الأطعمة تقل عن ثلاثة فى المائة ، يقابل ذلك مثلا أربعون فى المائة فى الولايات المتحدة الأمريكية . وليس فى وسع الصينيين أن ينفقوا على تغذية الحيوانات لكى يأكلوها بعد ـ فهم يأكلون الحبوب رأساً بدلا من ذلك . أما الخنازير التى يربيها الكثيرون من المزارعين فإنها تعيش غالباً على الفضلات . وهى سوداء اللون ، ومن العجيب أنها لا تحوى شيئاً من الديدان الشريطية .

والطعام اليومى للصينيين بسيط جداً ، ويتألف فى الغالب من الحبوب والخضر . ففى الجنوب يتناول القوم الأرز ثلاث مرات فى اليوم . وأما فى الشمال فطعامهم الرئيسى خبز الشميرية » وهو يصنع من الذرة أو القمح .

ومما يسترعى النظر من الشئون المنزلية بالصين وضع زجاجة من صلصة « الصويا » على مائدة الطعام بدلا من المملحة ، وعدم استعمال اللبن والزبد إطلاقاً . أما قلى الأطعمة فتستعمل له الزيوت النباتية ، مع تفضيل قليها على نار الفحم الحجرى أو الفحم البلدى . وفى ذات مرة أخبرنى أحد الأجانب المقيمين فى « هونج كونج » أنه أراد أن يخفف من متاعب الحياة على طباخه الأمين الذى بلغ الشيخوخة ، فاشترى موقداً كهربائياً لاستعماله بالمطبخ ، وإذ به فى اليوم التالى يجد الطباخ قائماً بطهو طعام الغذاء فى فناء الدار على موقد الفحم البلدى القديم وقد بادره سيد بقوله : « إن الطعام اللائق لا يصلح لطهوه إلا النار اللائقة » .

وقد يكون الصينيون أقل منا معشر الدانمركيين كلاماً عن الطعام ،

ولـكنهم بالتأكيد لا يقلون عنا اهتماماً بشأنه ، و إذا سمعت الناس فى الصين الحمراء يضجون بالشـكوى فإنما يكون ذلك عادة بسبب عجز ما فى الأطعمة . وأشد الحالات وطأة فى ذلك ندرة زيت الطبخ بسبب تصدير الفول السودانى . ومن الأصناف التى تصدر بكثرة أيضاً فول « الصويا » ولحم الخنزير ، يجرى تصديرها جميعا إلى بلاد الاتحاد السوفييتى وفاء لثمن ما تستورده الصين من الآلات . ويدرك الناس تماماً أن هذا هو السر فى اضطرارهم إلى شد الأحزمة على بطونهم ، و يتندرون فى هذا الشأن بترديد قصة لا تخلو من مرارة ، وهى أن مهرة علماء التهجين من السوفييت استطاعوا توليد حيوان جديد من البقر والزرافة ، فـكان الناتج حيواناً عجيباً ذا ضرع كبير ورقبة طويلة ! ويقول الناس فى تساؤل : « أتدرى ماذا يصنع بهذا الحيوان ؟ إنه يوضع على حدود الصين ــ كى يكون مرعاه فى الصين وحلبه فى روسيا » .

الفصل الخامس

عودة « كونفوشيوس »

عندما استيقظت ذات صباح بقيت لحظة متحيراً فى أمرى ، أبحث فى ذهنى عن ذلك الخاطر الذى أريد الاهتداء إليه . ثم تذكرت إلى أين نحن ذاهبون اليوم . فجعلت أهز زوجتى فلم أسمع منها إلا بعض النخير ، ثم أدارت لى ظهرها.

عند ذلك صحتُ بها : نحن « ياشى يان » ذاهبون اليوم إلى «بينشينج».

فكان لذلك أثره المطلوب ، فلم تمض لحظة حتى قامت من الفراش فى طلاوة ووجه باسم ، بل إنها نفحتنى بقبلة جميلة من قبلات الصباح . إن « بينشينج » هى جامعتنا القديمة . إنها المكان الذى التقينا فيه لأول مرة ، وكان مجرد ذكر اسمها يعيد إلى الذهن ذكريات عن ذلك الوقت الذى كنا فيه فى الثامنة عشرة من عمرنا وقد ارتبطنا برابطة الحب .

و بينما نحن فى استعدادنا للخروج ، إذ بنا نسمع « السيدة فى » تصيح من الحجرة المجاورة : « لا تنسى يا « شى يان » أن ترتدى ملابسك الداخلية الصوفية » . لقد كانت لا تزال تعامل ابنتها كما لو كانت طفلة . ولم أخل أنا أيضاً من أن يلحقنى جانب من قلقها الأموى ، فعندما شرعنا فى الخروج رأيتها تجرى وراءنا حاملة ملفحة من الصوف وقالت إنه يجدر بى أن أضعها على رأسى لأن الهواء بارد جداً ولست لابساً قبعة ما .

فأكدت لها القول بأن لا حاجة لى بها إطلاقاً ، وأننى سأرفع ياقة سترتى إلى أعلى إذا لزم الأمر ، وأننى على كل حال لم يصبنى برد قط . ومع أننى لم أنجح تماماً فى إقناعها بأقوالى ، فإننى استطعت على كل حال أن أفلت من التزيى بزى امرأة ريفية عجوز .

ركبنا سيارة عامة ، وبعد نصف ساعة من مغادرتنا المنزل وجدنا أنفسنا نجتاز باب المدينة الغربي . ثم كدت أعتقد أننا أخطأنا فى اختيار السيارة . فإنني كنت أعرف الطريق تمام المعرفة منذ الأيام السالفة ــ وقت أن كان هذا الباب الخارجى هو منتهى مبانى المدينة ، وأن المرء كان يجد نفسه بعد اجتيازه قد أصبح فجأة فى الخلاء . ولكن الواقع أن كل ما كان يشاهد هنا سابقاً من المنازل الزرعية الصغيرة ذات النوافذ الورقية قد اختفى ، كما اختفت الحقول نفسها وحلت محلها عمارات ضخمة مركبة الأوضاع يتلو بعضها بعضاً .

فقلت فى نفسى إن هذه لابد أن تكون مصانع ، فإن الهواء مشبع بالدخان ، ومحيط المنطقة فى ذاته يشعر بأنها منطقة صناعية . بل إنه لولا تلك الكتابة الصينية التى تعلو مداخل العمارات لما كان يخطر بالبال أن المكان جزء من بلاد الصين . وقد ترجمت لى « شى يان » تلك الكتابة ، فإذا بها :

المعهد الجيولوجى ــ مدرسة التعدين ــ مدرسة أعمال المناجم ــ مصلحة الكيمياء .

وهكذا على هذا النمط . إن مدينة بأكلها قد ظهرت فجأة منذ تولى الشيوعيون الحكم فى عام ١٩٤٩ ، وما زالت بعد ماضية فى النمو . فكانت « سقالات » البناء تكاد من علوها تضرب فى كبد السماء ، وعربات النقل التى تجرها الخيول تمر بنا تباعاً محملة بالطوب .

وأخيراً أخذنا ننتعش عندما لاحت لنا جامعتنا القديمة « يينشينج » ، التى هى من أجمل الجامعات فى العالم . ولاغرو ، فإن مبانيها الصينية الطراز قد نثرت فى رقعة واسعة من الأرض ، تتخللها المرتفعات والبحيرات الصناعية ، فضلا عن معبد صينى غاية فى الجمال . وكانت أشعة الشمس تتلألأ فوق تلك القراميد اللامعة التى تكسو الأسطح المائلة كأنها ترحب بعودتنا إلى معهدنا القديم .

ثم غادرنا السيارة العامة وسرنا متجهين نحو مدخل الجامعة ، وقد أمسكت

بيد « شى يان » . ثم قلت لها : أتذكرين . . . هناك ، على مقربة منا ، تلك المكتبة الجامعية ، حيث كنت أجلس على نفس مائدة المطالعة ليلة بعد ليلة ، وأنا منسق الشعر ، مرتدياً أجمل حلة عندى ، ولم أتم قط على ما أظن صفحة مما كنت أحاول قراءته ـ لقد كان يشغلنى عن ذلك تحديقى إلى فتاة صينية كان يحمر وجهها استحياء وهى تتظاهر بأنها لا ترانى وهناك على مسافة منا ، تلك الشجرة الكبيرة الواقعة فى ملعب « التنس » والتى كنا نجلس تحتها على ذلك المقعد حيث قبلتها لأول مرة . .

« ويحكما ، أين تذهبان ؟ » صاح بذلك رجل يرتدى زياً رسمياً وهو يشير إلينا بالعودة إلى مدخل الجامعة بعد أن كنا قد اجتزناه . لقد كنا فى الأيام السالفة ندخل ونخرج كيفما نشاء ، أما الآن فقد صار الواجب أن نبدأ أولا بالاتصال التليفونى بالسيد «ليانج» الذى كنا على موعد معه . ولكننا لم نكن نعرفه ، إذ كانت وزارة الخارجية هى التى دبرت هذه المقابلة . فملأنا استمارة وضحنا فيها اسمينا وعنوانينا ، وختمها حارس الباب بخاتمه .

ثم صاح بنا بعد أن تحركنا : « ولا تنسيا أن تذيلا الاستمارة بتوقيع « الرفيق ليانج » وإلا كان من غير الممكن خروجكما » .

وكان السيد « ليانج » رجلا ممتلىء الجسم لم يجتز بعد سن الشباب ، وكان يشغل منصب سكرتير رئيس الجامعة . فاستقبلنا فى بهو اجتماع صغير . والظاهر أن استقبال الأهلين ، فى الصين الحمراء ، يجرى دائماً فى أبهاء الاجتماعات . وما أن وقع نظرى على السيد «ليانج» حتى أخذت فى استعمال فراستى فى التخمين ، وهى هواية لازمتنى منذ قدومى إلى هذه البلاد ، فكنت أحاول أن أعرف بفراستى ما إذا كان الذى أمامى عضواً بالحزب الشيوعى أو غير عضو .

وقد بدا لى أن السيد « ليانج » مستكمل جميع الصفات البارزة المميزة للشيوعى الصينى . فقد كان كريم المعاملة ، حسن التفاهم ، صريحاً ، ولكنه كان

يتحكم فى ابتساماته وحركاته ، وكانت تبدو عليه مسحة من التواضع ، لكنه كان خلواً من الروح الفكاهية المتوافرة فى الصينيين . وكان عظيم الثقة بنفسه، حتى كان المرء يشعر بأنه لا يسمح قط لأى طارىء فجائى أن يؤثر فى رباطة جأشه . فكانت السيطرة عنده للرأس لا القلب .

وقد سألته : « هل أنت عضو فى الحزب الشيوعى ؟ » .

فنظر إلى وأمأ برأسه بالإيجاب .

وكان يجلس أمامنا شاب ذونظارتين ومعه كراسة للمذكرات وقلم رصاص، على استعداد للعمل . كان هذا سكرتير السيد «ليانج» ، حضر لتدوين حديثنا .

فكان مجرد رؤيتى له كافياً لإزالة ما كان عندى من شوق لهذه المقابلة. ومن هذا أدرك أنا الآن لماذا أجد بعض الناس يجمون أمامى فجأة عندما أخرج دفتر مذكراتى من جيبى .

وسألته : « كم طالباً فى الجامعة ؟ » .

فقابل السيد « ليانج » ذلك بأن ناول كلا منا كشفاً مطبوعاً على « الميوغراف » مملوءاً بالإحصاءات التى توضح مبلغ تقدم الصين الجديدة فى ميدان التعليم العالى ، فكان له وقع بالغ . فإنه من وقت التحرير ، أى منذ استيلاء الشيوعيين على الحكم ، قد عززت « يينشينج » بجامعتين أخريين ، وارتفع عدد الطلبة الجامعيين مما لا يكاد يبلغ ٨٠٠ إلى ٨٠١١ طالباً ، منهم ٥ر٢١٪ من البنات ، كما أن ٢٢٪ منهم من أبناء العمال والفلاحين . كذلك كان من بينهم ٣١٠ طلبة من الاتحاد السوفييتى والدول الشيوعية الأخرى المعروفة باسم « ديمقراطيات الشعب » ويوجد فى « بكين » وحدها إحدى وعشرون كلية وجامعة جديدة ، وقد بلغت جملة من تخرجوا فى المعاهد العلمية العليا منذ عام ١٩٤٩ فى الصين كلها ٢١٧٫٠٠٠ شاب ، أى بزيادة ٧٠٠٠ عمن تخرجوا خلال الخمسين سنة السابقة لذلك العام .

عند ذلك نهضت واقفاً وشكرت السيد «ليانج» إذ كان الكشف شاملا لجميع المعلومات الإيجابية التى أردتها . ثم أعربنا عن رغبتنا فى التحدث إلى بعض الطلبة ، وقلنا إننا نستطيع القيام بذلك وحدنا ، إذ أننا نعرف المكان تمام المعرفة .

ولـن السيد « ليانج » أبى ذلك بتاتاً ولم يقبل فى الأمر أية مناقشة ، وقال إن واجبه يقضى عليه بمساعدة الضيوف الأجانب . ثم طلب إلى سكرتيره القيام ببعض مكالمات تليفونية . وبعد لحظة من ذلك حضر إلينا ستة طلبة ، بينهم اثنتان من البنات .

وكأن عشرين عاماً قد سقطت من عمرى فجأة فى هـذه اللحظة . فقد كدت أشعر وأنا أمام هؤلاء الطلبة كما كنت أشعر وأنا فى رفقة زملائى القدامى . ولاحظت عليهم نفس ذلك المظهر الجدى المتزمت الذى كان يجعل أولئك الزملاء يبدون أكبر سناً من أمثالهم من الطلبة الأوربيين . ثم تغيرت حالهم فجأة ، فأخذوا يتضاحكون ويتهاتفون دون أن ترى لذلك سبباً . وقد كان ذلك يبدو لنا عملا صبيانياً سخيفاً ، إلى أن تبين لنا أن منشأه الخجل والاستحياء . فقـد كانوا يحسون بشىء من عدم الثقة بالنفس ، وخاصة فى حضرة الأجانب ، مما يرجع بعض سببه إلى تنشئتهم على الطريقة المرعية فى الأسرة الصينية ، التى تطبعهم بطابع الطاعة دون التفكير أو العمل المستقل .

على أنه بعد أن تكلمنا أنا و « شى يان » مع الطلبة الستة بعض الوقت ظهر لنا ما خفى علينا فى البداية ، وهو أن هناك فى الواقع فرقاً بين هؤلاء وبين زملائنا القدامى . فقد كان أول سؤال وجهوه إلى الاستفسار عن رأيى فى الصين الجديدة . فأجبت بأنه قد حدثت إصلاحات كثيرة منذ كنت هنا لآخر مرة ، فقد أصبح توزيع الثروة أكثر تعادلا من قبل ، ولم يعد أفراد الطبقة السفلى السابقة يشعرون بشىء من المسكنة والضعة ، وأنه قد تربت فيهم الثقة بالنفس ،

وهذا فضلا عن المبانى التى نشأت منذ عام ١٩٤٩ فى كثرة مدهشة . . .

وكنت وأنا ماض فى سرد هذه العبارات أتوقع سماع كلمة اعتراض منهم ، عملا بما يكاد يكون من مقتضيات المجاملة العامة — وقد جرت العادة فى الصين بأنك إذا كنت ضيفاً عند أحد وامتدحت طعامه كان لزاماً على المضيف أن يرد عليك بأنه ليس سوى طعام غث لا يليق لأن يقدم للضيوف . ولكن هؤلاء الشبان كانوا يؤمنون على كلامى بالإيماء برؤوسهم مبتسمين ، بل إنهم أخذوا ينافسوننى فى كيل المديح لبلادهم !

وقد لاحظنا أنا و « شى يان » أنهم كانوا لا يفتأون يكررون ألفاظاً وعبارات معينة بذاتها . لقد كان الحفظ عن ظهر قلب دأب الطلبة الصينيين دائماً ، وعندى أن السبب فى ذلك اضطرارهم منذ الطفولة الأولى إلى حفظ حروف الهجاء الصينية الكثيرة ، فنمت بذلك عندهم قوة الذاكرة نمواً كبيراً دون أن يقابل ذلك شىء من نمو قوة الحكم على الأمور ، وإنى أذكر أننى عندما كنت أدخل فى أيام الدراسة ، فى مناقشات مع زملائى الصينيين ، كان يتبين لى فى كثير من الأوقات أنهم كانوا يمضون فى سرد عبارات لا يفهمون معناها ، لأنهم كانوا قد حفظوها عن ظهر قلب نقلا عن كتاب ما .

ولكنهم كانوا فى تلك الأيام يحفظون ما راق لهم ، أما الآن فإنهم لا يكادون يقولون شيئاً دون أن يعززوه بنص محفوظ من أقوال « ماركس » أو « لنين » أو « الرئيس ماو » (كما يسمون ماوتسى تانج فى الصين) وإذا أرتج على أحد منهم بادر أحد من الآخرين إلى مواصلة سرد النص الذى بدأه . كذلك كانوا كلما قال أحدهم شيئاً كان الباقون يطمئنون على ما يقول بالإيماء برؤوسهم . وهذا يكاد يكون أقبح ما فى الأمر ، إذ الظاهر أنهم لا يختلفون فى الرأى على أى شىء .

وقد بدا لى أن « شى يان » أيضاً لم تشعر بالارتياح عندما رأت عقول

هؤلاء الطلبة مطبوعة بطابع واحد . بل الواقع أننا لم نشعر بأى اتصال قلبى بهم . على أننى ما لبثت أن اعترانى بعض الشك فى أن تلك النصوص الماركسية التى كانوا لا يفتأون يسردونها عن ظهر قلب كان لها مغزى كبير لديهم ، بل إنهم كانوا فى بعض الأوقات لا يفهمون معناها ، وغاية ما فى الأمر أنهم كانوا يرون بأعينهم ما تم فى الصين من الإصلاح فى عهد الشيوعيين . وهذا عندهم هو أهم ما فى الموضوع .

قال طالب منهم ممتلىء العود يدعى « وو » ، وكان لا يكف عن العض على شفتيه كلما أثاره شىء : « إننى سوف أكون مهندساً ، فماذا كان يتاح لى من الفرص لو كنت عائشاً فى عهد « الكومينتانج » الرجعى ؟ إن كل ما كان يتاح لى وقتئذ أن أقوم بالتدريس لغيرى من الطلبة الصينيين ، ممن يكون مصيرهم كمصيرى ، ليس فيه فرصة قط لمباشرة العمل الذى تعلموه . أو أن أحصل على وظيفة من الوظائف الصغرى فى إحدى الشركات الهندسية الأجنبية ، فقد كان الأجانب فى ذلك العهد هم القائمين بالمشروعات الهندسية الهامة فى الصين ، ولم يسند إلى الصينيين مركز هام قط ، إذ كان الأجانب ينظرون إلينا نظرة ازدراء .

«أما فى الصين الجديدة فإن الأمر غير ذلك ، فنحن ينظر إلينا الآن باحترام ، ونحن نقوم بأنفسنا ببناء كبارينا وسدودنا ومحطات القوى عندنا ، بل إننا شرعنا فى صنع السيارات والطائرات . . . »

وعند ذلك التقطت منه الحديث إحدى الطالبتين . وكان من عاداتها أن تعمل على تأكيد أقوالها بهزات خيلائية من رأسها ، فكانت تقذف بضفيرتيها فى الهواء . ويرجع أمر الضفائر إلى أنه فى وقت دخول الشيوعيين المدن الكبيرة الواقعة على الشاطىء كان فى وحدات الجيش الأحمر الكثير من البنات اللاتى كن جميعاً يجعلن شعورهن فى ضفيرتين طويلتين على مثل ما تفعله بنات الريف، فصار ذلك منذ تلك اللحظة هو الأسلوب المرعى فى زى البنات .

تـكلمت الطالبة فقالت : « إننى سأكون صحفية ، فماذا كان يتاح لى من الفرص لو كنت فى ذلك الوقت الذى كانت فيـه مقاليد الحـكم فى يد جماعة « شيانج كاى شيك » الرجعية ؟ إن الصحفى لم يكن فى وسعه وقتئذ أن يشق لنفسه أى طريق إلا بكتابة الدعاية الرجعية المحشوة بالأكاذيب . . . »

قلت : « أما يكتب الصحفيون الصينيون اليوم شيئاً من الدعاية ؟ » .

« نعم ، ولـكنها دعاية قائمة على الصدق ! » وهنا طارت الضفيرتان فى الهواء . « و إنه من واجبنا العمل على جعل الناس ينضمون إلى صفوف الـكفاح ضد الأعداء الرجعيين فى داخل البلاد ، وضد الأعداء الاستعماريين فى الخارج . يجب أن نجعل الناس يدركون مبلغ ما يجب علينا جميعاً من الحمد وحسن التقدير لما قام به « الرئيس ماو » والشيوعيون حتى تم توحيد بلادنا وصارت قوية محترمة»

فأومأ باقى الطلبة برؤوسهم فى تحمس . وقد حضر إلى ذهنى فى تلك اللحظة منظر المظاهرات التى كثيراً ما كانت تقام ضد اليابانيين وقت أن كنت طالباً هنا . لقد كان شعور الطلبة ثائراً فى ذلك الوقت أيضاً ، ولـكنهم كانوا إذ ذاك طليقين فى آرائهم ، كما كانوا يوجسون فى أنفسهم خيفة من المستقبل . وكان الفساد فى تلك الأيام قد فشا فى الصين ، كما مزقت الحرب الأهلية أوصالها . ولم يكن الطلبة يكنون للحكومة أى احترام ، وكانوا يتوقون للقيام بعمل ما من أجل بلادهم ، ولـكن ما السبيل إلى ذلك ؟ إنه ، كما قالت الفتاة ، لم يكن فى وسع المرء وقتئذ أن يشق لنفسه أى طريق إلا بتقبيل أحذية القابضين على الحـكم .

ثم واصلت الفتاة كلامها فقالت :

« إن الصين الشعبية ليس فيها فساد ما ، وجميع الأهلين فيها يعملون معاً لبلوغ هدف واحد » .

فقلت : « نعم ، إن هناك بلا شك روحاً جديدة ، والشيوعيون فى كثير من النواحى قوم مثاليون . . . »

واحتج الجميع على ذلك بقولهم « لا ! » ، مما جعلنا أنا و « شى يان » ننظر إليهم فى دهشة .

ثم قال أحد الطلبة ، توضيحاً للأمر ، « إن المثالية ضرب من الحزعبلات البورجوازية ، ونحن فى الصين الجديدة نجعل هدفنا الواقعية ، ولما كانت المثالية عكس الواقعية ، فهى بذلك مضادة للتعاليم الماركسية اللينينية » .

ثم أشرت إلى بلاد المجر ، وما حدث فيها أخيراً من قيام الجيش الروسى بقمع الثوران الشعبى بها . فاحتج الطلبة بشدة على قولى ، وقد تبين أنهم قرأوا فى الصحف أن بعض العناصر الفاشية غير الرشيدة قد حاولت الانقضاض على الحكم وحرمان الشعب المجرى من حريته ، وهذا هو ما كانوا يعتقدونه فعلا .

قلت : « وعلى فرض أن الشعب المجرى كان متذمراً حقاً من الحكومة الشيوعية . . . . . »

فقاطعتنى الفتاة التى كانت تدرس الصحافة بقولها :

« ولكن كيف يمكن الإنسان أن يفرض ذلك ؟ إن الشيوعيين وحدهم هم الذين يعملون حقاً من أجل الشعب . وقد رأينا ذلك فى الصين واضحاً جلياً فى حين أننا لم نر من جميع حكوماتنا السابقة إلا نهب الأهلين . وقد قال « الرئيس ماو » إن فى قدرة الشعب دائماً أن يتبين أصدقاءه من أعدائه — ويعلم من ذلك بالطبع أن المجريين لا يثورون قط ضد أية حكومة شيوعية . . . . »

عند ذلك عمدت إلى تغيير الموضوع ، وأثرت إلى ما كنت قد سمعته من أن الطلبة مقسمون الآن إلى مجموعات صغيرة تتألف كل منها من ستة طلبة أو سبعة ، فهل استحدث ذلك لأغراض سياسية ؟

فنظر الطلبة نظرة استفسار إلى السيد « ليانج » ، وكان ينصت إلى الحديث وعلى شفتيه ابتسامة أبوية . ثم تقدم للإجابة « و و » طالب الهندسة فقال : لا ،

ليس هناك ما يساعد على افتراض ذلك ، والواقع أنه لا يكاد يوجد شيء من النشاط السياسى بالجامعة » .

ثم تدخلت طالبة الصحافة فى الحديث فقالت : « إن الغرض من ذلك أن يساعد بعضهم بعضاً »، بأن يقوم أعضاء كل جماعة بالاستذكار معاً ، ويتناقشون فى كل مسألة تعترضهم . كما أن كلاً منهم يرعى مصالح الآخر ، فإذا نسب إلى أحدهم أمر غير سليم . . . . »

« أمر غير سليم » ! ما الذى كانت تقصده بذلك ؟

أجل ، قد تكون هناك « نقطة سوداء » فى ماضى أحد الطلبة ، بأن يكون هناك مثلا أمر لم يعترف به ، أو أن يكون هو فى قرارة نفسه غير موافق على بعض التغيرات التى أحدثها الشيوعيون . فإن مثل هذه الأمور لا بد أن تنكشف يوماً ما ، إما عاجلا وإما آجلا عند ما يكون المرء مثلا فى حالة اكتئاب أو فى ثورة من الغضب ، فإن حالات الاكتئاب وثورات الغضب هى من صميم العلامات التى تدل على أن المرء ما زالت آراؤه رجعية ، أو أنه يضع مصلحته الخاصة فوق مصلحة المجموعة والبلاد . . . . . .

قلت : « وماذا يكون إذا وجدتم نقطة سوداء من هذا القبيل فى أحد من الطلبة ؟ »

« إنهم فى هذه الحالة يكلمونه فى الموضوع ويقنعونه بأنه كان على غير حق ، وإذا كان يكره شيئاً مما قامت به الحكومة أوضحوا له الأسباب التى جعلتها تقوم به » .

« وهل ينتهى الأمر دائماً بأن يدرك الطالب أنه كان واقعاً فى الخطأ ؟ »

« نعم بالطبع لأنه مهما كان الأمر ، لن يقف بجانبه أحد من الآخرين ـ فالأغلبية ضده . وليس فى وسع المرء أن يستمر فى التفكير على وجه غير سليم » .

وعند انتهاء نصف السنة الدراسية يكلف كل طالب كتابة تقرير يبين فيه آراءه عن نفسه وعن كل من أعضاء المجموعة . ثم تقارن هذه التقارير بعضها ببعض ، وبهذه الطريقة أيضاً تتسنى معرفة ما إذا كان تفكير طالب من الطلبة « يختلف » عن تفكير الآخرين .

فإذا ثبت ذلك على أحد ، وضعت بذلك مذكرة فى ملفه السياسى . وهذا الملف يحوى أنباء كل ما يُعرف عن ماضى الطالب وموقفه من المجتمع الجديد . وعندما يتخرج الطالب فى الجامعة يرسل هذا الملف مع دبلومه الدراسى إلى المؤسسة التى يوظف بها ، وعلى المؤسسة أن تثبت فى الملف كل ما يجب إثباته أولاً بأول.

على أننى لم أعرف كل هذه المعلومات إلا فيما بعد ــ استقيتها من مصدر خاص ، إذ أن الأجانب لا يفضى إليهم بمثل هذه المعلومات ، ولا بأن أساتذة الجامعات الصينية قد جرى « تثقيفهم من جديد » بعد استيلاء الشيوعيين على الحكم .

ويبدأ « التثقيف من جديد » لكل أستاذ بحضوره اجتماعاً حاشداً ، حيث يلتف الطلبة حوله ويوجهون إليه الاتهامات . وقد علمت أن الرئيس السابق لجامعة « يينشنج » كلف بالإجابة على خمسمائة سؤال أعدها أكفأ طلبته « التقدميين » ، وكان من بين هذه الأسئلة : أليس صحيحاً أنه كان له كثير من الأصدقاء الأمريكيين ؟ وأنه كان يمقت « الماركسية » ويؤمن بإطلاق حرية الآراء ؟ وأنه قال لبعض أصدقائه الأجانب قبيل التحرير . « إنه عندما يتولى الشيوعيين الحكم قد أضطر إلى التصريح بأقوال لا أعنيها ؟ » .

وفى بعض الأوقات تستمر الاستجوابات عدة أسابيع . وكان كل أستاذ يعلم أنه إذا لم يُقبِل على تفهّم « المقرر الدراسى الجديد » ، أو يتظاهر بذلك ، يُفصل من عمله ولا يستطيع الحصول على عمل غيره . وكان الأمر ينتهى فى جميع الحالات تقريباً بأن يكتب الأستاذ « اعترافاً » علنياً بأنه كان قد ضللته الآراء

الرأسمالية والاستعمارية ، ولـكنه الآن قد أيقن أن « الماركسية » هى خير سبيل للصين . . . .

وإن المرء ليحار حين يقرأ هذه الاعترافات المهينة ، فإن بعضها قد كتبه نفر من أنبغ رجال الصين . ليس من الممكن سؤالهم عن ذلك ، ولـكن الاعترافات متشابهة بشكل مريب .

كذلك تحتفظ الجامعات بملفات سياسية للأساتذة ، وعلى كل أستاذ أن يقدم تقريراً فى كل عام يبين فيه مبلغ تقدم آرائه السياسية ، ويلخص فيه ميول كل من زملائه .

وإذا كان الأستاذ رئيساً لقسم من أقسام الدراسة ، عين له « مستشار سياسى » ، فتُترك للأستاذ الشئون العملية المحضة ، أما ما عدا ذلك فيتحتم رجوعه فيه إلى مستشاره . وهذا يكون من أعضاء الحزب الشيوعى أو من « التقدميين » .

وقد تحدثتُ فيما بعد مع مدرس أعرفه منذ الأيام السالفة . ولما كنت وعدته بألاّ أصرح باسمه ، فقد أقدم على التحدث معى فى حرية قال :

« إننا مضطرون ، حتى فى تدريس علم النبات أو الطبيعة إلى أن نحقن مادة الدرس بشىء من السياسة . فمثلاً عندما ألقن الطلبة أنه يجب تعقيم زجاجات اللبن ، يجب على أن أشفع ذلك بقولى « محافظة على الأرواح من أجل « الرئيس ماو » والصين الجديدة « الديموقراطية » » .

ويعقد المدرسون اجتماعا كل يوم للمناقشة فى أعمالهم ، وكثيراً ما يحضر بعضهم دروس بعض ، وبذلك يتوافر لدى « التقدميين » منهم ما يكفل أن لزملائهم تأثيراً سلبياً فى الطلبة .

وقال المدرس :

« إنه لا مفر من اعترافى بأن التعليم قد تقدم من بعض النواحى . فإنه

يتحتم علينا أن نعنى بإعداد محاضراتنا إعداداً أوفى من قبل ، ومن لم يفعل ذلك لا يلبث أن يجد نفسه فى الخارج .

ويجتمع الطلبة فى أوقات منتظمة للمناقشة فى شئون مدرسيهم ، فإن كانوا غير مرتاحين إلى أحد من الأساتذة طلب إليه الحضور لسماع شكاياتهم . وقد يكون سبب الشكوى عدم وضوح كلامه ، أو أنه يكتب على السبورة بخط غير واضح ، وأسوأ الحالات بالطبع هى ماتكون التهمة فيها أن الأستاذ ذو «موقف إيديولوجى رجعى » .

ولما استولى الشيوعيون على الحكم بطل تقريباً كل تدريس باللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية ، لا لصدور أوامر بالمنع بل لأن الجميع كانوا يعرفون موقف الشيوعيين من الدول الرأسمالية ، بحيث يكون الذين يقبلون على تعلم لغات تلك الدول هدفاً سهلا لاتهامهم بأنهم ذوو ميول رجعية .

وقد شرع الناس فى تعلم اللغة الروسية فى كافة أنحاء البلاد ، والذين كانوا منهم يشغلون مناصب عامة ــ كالمدرسين والمهندسين والصحفيين والأطباء والعلماء والموظفين ــ أعدت لهم مقررات مركزة فى تلك اللغة بمعدل ثمانى ساعات ــ نعم ثمانى ساعات كاملة ــ فى اليوم ، لمدة شهر أو شهرين . وقد ألغيت هذه الطريقة بعد عامين ، إذ قد تبين أن هؤلاء القوم كانوا ينسون ماتعلموه من الروسية بسرعة تفوق سرعة تحصيلهم لها .

كذلك استبدل بجميع الكتب الدراسية القديمة غيرها من الكتب الروسية بعد ترجمتها إلى الصينية . وقد حدث مرة أن إحدى الجامعات كانت فى حاجة إلى كتاب دراسى عن رياح « التايفون » ــ وهى أعاصير استوائية شديدة تهب بجانب الساحل الصينى . واللفظ ذاته من أصل صينى ومعناه «الريح الكبيرة» ، وقد كانت هناك بعض كتب قيمة فى الموضوع باللغتين اليابانية والإنجليزية ،

ولكن لم يكن من الممكن استعمالها لأنها ليست من وضع أناس من ذوى « الميول السليمة » . ولما لم تكن هناك كتب دراسية روسية ما عن رياح « التايفون » — لأن هذه الرياح لا وجود لها فى الاتحاد السوفييتى — فقد صرف النظر عن استعمال الطابة لكتب ما .

على أنه منذ عام تقريباً ، حدث ما يدل حتماً على أن القادة الشيوعيين أدركوا أن حصر التعليم فى مجرى واحد قد بلغ مبلغاً يهدد الصين بالخطر ، وأن البلاد باقتصارها على استعمال الكتب الدراسية الروسية ، وجعلها اللغة الروسية الأجنبية الوحيدة تقريباً ، تضع نفسها فى معزل عن سائر بلاد العالم . فألقى « الرئيس ماو » خطاباً قال فيه : إن الصين أمامها الكثير مما تستطيع تعلمه من الأمم الرأسمالية » . وشجع الطلبة على دراسة اللغات الغربية .

وعلى ذلك نرى الآن أنه قد عاد الإقبال فجأة على تعلم اللغة الإنجليزية ، وإن كان قد قال أحد الطلبة فى ذلك : « إننا نكاد نبدأ من لا شىء » — فإن الطلبة فى فصله لم يتقدموا كثيراً عن مرحلة تعلم الحروف الهجائية .

وقد كان من نتيجة هذا « التحرر الذهنى » الجديد أن فقدت «الماركسية» ما كان لها فى الجامعات من الهيمنة التى كسفت كل ما عداها ، وعاد طلبة الفلسفة أخيراً إلى دراسة تعاليم « كونفوشيوس » الذى كان قد أغفل شأنه منذ استيلاء الشيوعيين على الحكم ، بل إن العمال قد أخذوا يعملون ، بعد وصولنا إلى بكين بقليل ، فى ترميم « معبد كونفوشيوس » القديم ، بعد أن كان قد آل إلى حالة من التهدم يرثى لها .

ومع ذلك فإن لدى الأساتذة تعليمات تقضى بأن يؤكدوا القول للطلبة بأن جميع الفلسفات غير الماركسية — التى أثمرتها حضارة الآلاف من السنين — هى غير واقعية وباطلة . . .

كانت مغادرتى أنا و « شى يان » لجامعة « بينشينج » فى وقت الظهر .

و بينما نحن واقفان بجوار الباب الخارجى ، فى انتظار السيارة العامة ، انضم إلينا طالب أجنبى كانت وجهته هو أيضاً المدينة . وقد اتضح أنه يوغوسلافى ، درس بالجامعة مدة عام و يجيد التـكلم باللغة الصينية .

سألته : هل هو مرتاح لوجوده هنا ؟ فهز كتفه فى امتعاض ، وقال : « إن فيه شيئاً » من متعة النفس ، ولـكنى أشعر بالامتعاض من بعض الوجوه » .

قلت: ولماذا ؟ فتلفت حوله ، ولما لم يجد سوى ثلاثتنا أخذ ينبئناعن تجار به بالجامعة.

ومما قاله : إن كل طالب أجنبى بالجامعة له « صديق » صينى يساعده فى شئون اللغة و يمده بالنصح . وقد حدث منذ ثلاثة أشهر أن قام الطلبة الوافدون من دول شرقى أورو با بتوجيه الدعوات إلى اجتماع بينهم و بين « أصدقائهم » الصينيين . ولم يشمل الاجتماع الطلبة السوفييتيين ــ إذ هم دائماً فى معزل عن غيرهم . فأعرب الطلبة الأجانب فى هذا الاجتماع عن عظيم استيائهم من أن الطلبة الصينيين قد قاموا ــ تحت ستار الصداقة ــ بالتجسس عليهم ، إذ قدموا لأولى الأمر « تقاريراً » عن الطلبة الأوربيين .

فـكان أهم ما بدا على الطلبة الصينيين إزاء ذلك دهشتهم لهذا الاستياء ، وقالوا : لماذا كل هذه الضجة ؟ إنهم دائماً يكتبون التقارير بعضهم عن بعض ــ فلماذا لا يكتبونها عن أصدقائهم الأجانب ؟

وعند هذه النقطة انقطع على اليوغوسلافى حديثه بوصول السيارة العامة . ولما كانت السيارة مزدحمة كالمعتاد ، فقد قضينا الوقت فى طريق العودة إلى « بكين» فى الحديث عن أمور أخرى . إن المرء لايعرف قط من يكون متسمعاً لحديثه ، ولذلك يجدر به أن يكون على حذر .

الفصل السادس

« يين » و « يانج »

كنت راقداً فى الفراش ورأسى يكاد ينفجر ومفاصلى جميعاً تؤلمنى أشد الألم ، و « السيدة فى » واقفة عند رأسى تهز أصبعها وتقول : « لقد قلت لك ذلك ، لكنك لم تستمع وأبيت أن تلف تلك اللفحة حول رأسك وقلت : «إننى لا أصاب قط بالبرد» ، وها أنت ذا راقد وقد بلغت درجة حرارتك ١٠٢» !

ثم استشهدت بمثل صينى يقول بأن « الكبرياء يزول عند السقوط » . وقبل أن أتمكن من استجماع قواى للرد عليها أقبلت «شى يان» ومعها الحقنة وقالت « أدر جسمك لأعطيك حقنة بنسلين أخرى . نحن دائماً نقوم بحقن أحدنا الآخر . لماذا نستدعى الطبيب ؟ إنه يتقاضى أجراً وفى تسع حالات من عشر تكون تعليماته إعطاء حقنة بنسلين . . . »

« هل من الحكمة إدخال كل هذه المادة الغريبة فى الجسم » ؟

أتى هذا السؤال من « شانج ساو » كبرى خادمتى « السيدة فى » وقد كنت أنا وهى على وئام كبير ، وكانت تؤتينى كل مساء بطاس من لبن فول « الصويا » الساخن ، إذ أننى ، على حد قولها نحيف أعجف . وفى أثناء انتظارنا حتى يبرد اللبن قليلا ، كنا نتسامر بالحديث فى شئون شتى ، فكنت أصف لها أحوال المعيشة فى بلادى ، وكان مما يلذ لها الاستماع إليه بوجه خاص ما كنت أقصه عليها عن المكانس الكهربائية وآلات الغسيل . وكانت عيناها تتسعان وتجحظان عند ما كنت أقص عليها كيف أنه ما على الإنسان إلا أن يضع الملابس فى الغسالة ويتركها تمضى فى أزيزها ، فلا يلبث أن يجد الملابس نظيفة. وكانت فى كل مساء تحب أن أعيد على مسامعها قصة الآلة ذات الأزيز .

وقد شفعت سؤالها السابق بقولها : « إننى أقترح أن نستدعى طبيباً شرقياً لفحص زوج الابنة الثانية » . وكانت تقصد بذلك استدعاء طبيب صينى من الطراز القديم ، إذ كان الأطباء الذين درسوا الطب الغربى يسمون « الأطباء الغربيين » .

وكانت « شى يان » لاتزال منتظرة تحمل الحقنة فى يدها ، فنظرت إلى هذا الاقتراح بعين الاستخفاف . فإنها كانت قد قاست فى طفولتها غضاضة شديدة من الأدوية الصينية ، وكان مجرد التفكير فيها يشعرها بالميل إلى القىء ومن رأيها أن من السخافة أن نستدعى طبيباً شرقياً غير مزود بالثقافة العلمية فى حين أن أمامنا البنسلين ، ذلك العقار الحديث الذى يأتى بالمدهشات .

ولكننى كنت قد تأثرت بأقوال « شانج ساو » ، وقلت فى نفسى : لقد أعطتنى « شى يان » فى اليومين الأخيرين عدة حقن تحوى كل منها عدداً هائلا من الوحدات ، فلم أر منها غير صعود الحرارة بهذه الدرجة المزعجة . إذن يجدر بى أن أجرب طبيباً شرقياً . من يعرف؟ ربما كان فى استطاعته أن يخفف عنى الوطأة .

وبعد نصف ساعة من ذلك حضر الطبيب . وكان رجلا قليل الجسم متواضعاً ، يلبس نظارتين فى إطار قرنى . وقد امتعضت قليلا حين وجدت أنه لم يحضر معه شيئاً من تلك الآلات الغامضة التى يستعملها الأطباء الغربيون . ولست أدرى هل يشعر غيرى بمثل ذلك ، ولكننى مولع دائماً بأن يجرى فحصى بالاستعانة بالآلات الحساسة كالسماعة وغيرها من الأجهزة الكثيرة الخاصة بالمهنة .

إن الدكتور « ين » الطبيب الصينى ، لم يقم حتى بمطالبتى بإخراج لسانى والصياح بصوت « آه ـ هـ ـ هـ » .

وكنت على استعداد لأن أصف له أعراضى ، ولكنه اقتصر على سؤالى عن حال سير المعدة . ثم وضع إحدى ذراعى فى وسادة وأخذ يتحسس نبضى ،

وذلك حتى بدون النظر إلى ساعة . وقد ظهرت على وجهه علامات معبّرة قوية ، و بقى على هذه الحال أكثر من دقيقتين . ثم قال :

« اليد الأخرى لو سمحت » .

فسألته : ولماذا ؟ إن ضربات النبض على كل حال تأتى كلها من قلب واحد .

— « إن النهرين اللذين ينبعان من نبع واحد ، قد يختلفان اختلافاً كبيراً » .

ثم عاد إلى تسمعه ، وكأنه يسمع أصواتاً آتية من بعيد ، وقد انتابتنى بعد انتهائه من كل عمله ، نوبة سعال شديدة ، لكنه لم يبد عليه أى اهتمام بها . ثم جلس وأخذ يكتب وصفته الطبية . وكان من دواعى استيائى أنه كان يستعمل قلم حبر . والظاهر أنه لم يعد أحد يكتب بالحبر والفرشاة . إن الكتابة بهما جميلة بديعة النظر يكاد كل حرف فيها ينبض بالحياة ، ولكنها كلفة زائدة لا تلائم الصين الجديدة المنهمكة فى العمل .

وأوصى الدكتور « ين » بأن ينقع الدواء بنفس الطريقة التى يحضر بها الشاى ، وأن أشرب منه فنجانين فى الحال وفنجانين ليلا ، وذلك ريثما يحضر ثانية فى الصباح ، وقال إن من المحتمل أنه بحلول ذلك الوقت يكون قد تم شفائى .

وقد ساورنى الشك فى صحة ذلك ، بل الواقع أننى فى قرارة نفسى كدت أظنه دجالا ، وكان أعظم ما أثار شكى جسه للنبض فى كل من الرسغين بدلا من رسغ واحد . لكن الاستشارة كانت على كل حال ضئيلة النفقة ، فقد كانت قيمة أتعاب الدكتور « ين » تعادل ما يقل قليلاً عن شلن واحد ، كما كان ثمن الأدوية ، التى كانت ملء كيس من الأشياء المجهولة ، ما بين أعشاب وزهور جافة ، يقل عن ستة بنسات .

وفى الصباح التالى ، عندما نظرتُ كل من « السيدة فى » و « شى يان »

فى مقياس الحرارة ، لم تـكادا تصدقان أعينهما : لقد كانت درجة الحرارة سبعة وتسعين وخمس شرطات . كما شعرتُ أنا بتمام الصحة والعافية . وقد ابتسمت لذلك « شانج ساو » ابتسامة المنتصر .

وما أن جاء الدكتور « بن » حتى أخذت أوجه إليه الأسئلة ، وقلت : ما هذا الدواء الذى أعطيتنى إيّاه فـكان إحدى المعجزات ؟ فابتسم وقال إنه لا شىء من المعجزات فى الطب الصينى ، إن مهمة الطبيب تنحصر فى محاولة مساعدة الطبيعة ، التى هى أعظم شاف .

إن الدواء الذى وصفه لى يشمل زهور «الـكريسنتيم» (الأراولة) ، وهذه تخفض حرارة الجسم ، كما يشـمل قشر البرتقال ، وهو نافع للهضم ، وبه بعض أنواع من نبت الشّمار لتنقية الدم ، وفيه ورق التوت وهو ضد العدوى ، ونوى المشمش وهو ضد الـكحة ، ونبت القمح للتقوية ، وجانب من الزنجبيل لإفراز العرق .

ثم قال الدكتور « بن » : « إن الجسم الإنسانى هو جزء من الـكون ، تحكمه نفس القوانين التى تحـكم سائر الموجودات فى الطبيعة ، والمرض يحلّ بالإنسان عندما يخالف الإنسان تلك القوانين » .

وقد كان فى أقواله هذه يقتبس من أقدم كتاب صينى فى الطب وُضع قبل الميلاد بنحو ثلاثمائة عام ، واسم هذا المؤلَّف العظيم « الدليل الباطنى للإمبراطور الأصفر » ، ويوجد الـكثير من أوجه الشبه بين مشتملاته الرئيسية وبين « العلم المسيحى » .

ومما جاء فى هذا الـكتاب أيضاً «أن الرجل العاقل لا ينتظر حتى يأتيه المرض وإلا كان كمن يحفر البئر بعد شعوره بالظمأ . فعليه أن يبتعد عن المرض بتناوله النوع الصحيح من الطعام ، مع المحافظة على حالته الصحية بممارسة الرياضة البدنية وتعديل شئونه بمـا يلائم التغييرات التى تحدث فى بيئته » .

ومن أقدم التصورات الرمزية في الصين « ين » و « يانج » ، يُعبّر عنهما معاً بشكل دائرة يقسمها ما يشبه حرف (S) ، ولون أحد نصفيها أبيض والنصف الآخر أسود . فالنصف الأبيض « يانج » رمز لعنصر الطبيعة المذكّر الإيجابي ، والنصف الأسود « ين » يمثل عنصرها المؤنث السلبي . وأمر كل منهما يتوقف على الآخر ، وتتكون من الاثنين معاً وحدة كاملة صحيحة ، ظلت آلاف السنين منبع الوحي لفلاسفة الصين وشعرائها .

وقال الدكتور « ين » إن « ين » و « يانج » يمثلان أيضاً القاعدة الأساسية في الطب الصيني . فإذا مرض الإنسان فكأنما يكون ذلك بسبب اختلال في التوازن بين «ين» ويانج » بأن تغلّبَ أحدهما على الآخر . ويكون واجب الطبيب هو إعادة ذلك التوازن — ولكن لا بطريق القوة . فإنه لاينبغي تحويل الجسم الإنساني إلى ميدان قتال، وإنما يقتصر العلاج على مساعدة الطبيعة على أداء عملها . وكذلك التوازن بين الحرارة والبرودة ، له شأن هام في الطب الصيني . فإن المريض المحموم مثلاً يُعطى علاجاً مبرداً ، والعكس بالعكس.

ثم ابتسم الدكتور « ين » وقال : « إن هذا كله لايخرج عن كونه ملخصاً تقريبياً . إنني في سن الخامسة عشرة ابتدأت التمرين في الشئون الطبية على يد طبيب مشهور ، فلم تتم دراستي إلا عند بلوغي الخامسة والعشرين » .

ففي مدة هذه السنوات العشر كان الدكتور « ين » يقوم بدراسة وافية لكافة النباتات الصينية . فإن قوام الطب الصيني الأعشاب وقشور الشجر والجذور والأزهار . وقد قضى سنة في ولاية « زيكوان » الشديدة الرطوبة الكثيرة الغمام ، الواقعة بالقرب من حدود « التبت » ولفظ « زيكوان » معناه أربعة أنهر . ويقال إن الكلاب في هذه الجهات تنطلق في النباح إذا رأت الشمس طالعة ، فهذه هي المنطقة التي يؤتى منها بمعظم الأعشاب والفطريات التي تستعمل في الطب الصيني .

ويحفظ كل طبيب « شرقى » عن ظهر قلب الآلاف من الوصفات الطبية المعروفة بالتواتر . ومن هذه الوصفات ما بقى مستعملاً منذ أكثر من ألفى سنة ، غير أنه يجرى الآن باستمرار استحداث أدويه جديدة واستنباط مركبات من القديم والحديث ، إذ أن الطبيب الصينى اليوم فى حالة تطور سريع .

ومما يشمله كتاب « الدليل الباطنى للإمبراطور الأصفر » وصف تفصيلى لطريقة قياس النبض وتشخيص المرض . ويقول الكتاب إن المريضين اللذين تتفق أعراض مرضهما كل الاتفاق قد تختلف وسائل علاجهما اختلافاً تاماً ، ويجب أن تشخص حالة كل منهما على حدة ويعالج على انفراد . ولا يدخل فى وصفات الأطباء « الشرقيين » شىء قط من الأدوية « المسجلة » (الجاهزة) .

كما أنهم قلما يلجأون إلى الجراحة ، وإن كانوا قد يُضطرون إليها فى بعض الحالات . ومما يروى فى التاريخ الصينى القديم أن أحد المحاربين أصابه سهم ، واستقرّ رأس السهم فى أحد عظامه وأحدث شيئاً من الالتهاب . فبدأ الطبيب علاج الحالة بمسح الجرح بعصير بعض النباتات فأفقده الحساسية — أى أن ذلك كان نوعاً من التخدير الموضعى ، وكان المحارب يلعب الشطرنج بينما كان الطبيب يجرى الكشف عن العظم وكشطه لتنظيفه ، وقد أتم عمله بخياطة الجرح .

ومن عهد بعيد يرجع إلى عام ٧٠٠ قبل الميلاد ، كان الأطباء الصينيون يمارسون التدليك فى معالجة بعض أنواع الروماتزم . وكانوا عند تفشى أوبئة الكلب يوصون بإعدام جميع الكلاب ، كما أن حالات اضطراب التمثيل الغذائى فى الجسم كانت تعالج بأعشاب البحر ، لما لها من النفع فى تنظيم وظيفة الغدة الدرقية . وكذلك المصابون بداء السكر ، كان يحدد غذاؤهم تحديداً صارماً على وجه شبيه جداً بما يتبعه الأطباء الغربيون الآن . كذلك كان تشخيص الإصابات بالتيتانوس معروفاً فى الصين القديمة ، غير أن القوم لم يهتدوا إلى طريقة الوقاية منه ولا معالجته .

وقبل ميلاد المسيح بقليل أخذ الأطباء الصينيون يعالجون الأمراض الجلدية بالكبريت والزئبق ، فى حين أن الأطباء الأوربيين لم يعرفوا هذا العلاج إلا فى القرن السادس عشر . والصينيون كانوا أيضاً أول من استعمل زيت «الشولموجرا» (chaulmoogra) فى علاج البرص .

وكان تشريح الجسم محرّماً فى الصين القديمة لأسباب دينية — إذ كان فى اعتقاد القوم أن أرواح السلف تنزعج إذا عادت إليها أجسام الموتى مشوهة . ومع ذلك كان الصينيون يعرفون منذ أكثر من ألفى سنة طول القناة المعوية بالضبط .

وكان إنشاء أول مستشفى فى الصين عام ٥١٠ ، خلال تفشى أحد الأوبئة ، وبعد نصف قرن من ذلك عمت المستشفيات الحكومية جميع المدن الكبرى: وقد كانت الصين ، فى المدة الممتدة من القرن السابع إلى التاسع ، مركز الدراسات الطبية بالشرق . فكان بعاصمة البلاد مدرسة للطب يدرس بها ثلاثمائة وخمسون طالباً ، وكان من بين الذين تلقوا العلم على أساتذتها عدد من الأطباء الكوريين واليابانيين والعرب ، وفدوا إليها للنهل من حياض خبرتها حتى يصبحوا أطباء إخصائيين .

وفى القرن السادس عشر ظهر وباء الجدرى بالصين بعد أن فتك بالأرواح فى أوربا فتكاً ذريعاً . وقد ظلّ الوباء مدة ماضياً فى التفشى فى شكل مروّع دون أية مقاومة تصدّه ، إلى أن اهتدى الأطباء الصينيون إلى وسيلة للقضاء عليه . ذلك بأنهم أخذوا قدراً صغيراً من قيح البثور من أحد المصابين وجففوه ، ثم جعلوا ينفثونه فى خياشيم الأصحاء . ولم يتعلم الغرب طريقة التقليح بالمادة الجدرية إلاّ بعد أن مضت على ذلك عدة مئات من السنين .

على أن الطب الصينى كان قد أخذ فى أسباب التدهور قبل ظهور وباء الجدرى بمدة طويلة ، ويرجع السبب الأكبر فى ذلك إلى وقوع مهنة الطب تحت سيطرة مذهب « الطاويّة » (Taoism) وكان هذا المذهب فى أصل

نشأته فلسفة عميقة ، ثم تدهور بمرور الأيام حتى صار ديناً من أديان الصين تسيطر عليه المظاهر الخفية وأعمال السحر ، وقد استهوى عقول أصحاب هذا المذهب شغفهم باختراع « إكسير » يجعل حياة الإنسان دائمة ، كما كانوا يعتقدون بإمكان صنع الذهب من المعادن الأخرى ، على مثل ما كان يتوهمه علماء الكيمياء الكاذبة في أوربا .

وكان من الطبيعي أن ينساق الأطباء إلى حلبة هذه التجارب ، إذ كانوا هم الطائفة الوحيدة التي لها دراية بالكيمياء . وقد كانت التعاويذ والرقى تدخل دائماً في نطاق العلاج الطبي بالصين ، ولكن دورها كان ضئيلاً محدوداً ، فعظم شأنها في هذه الآونة حتى صارت من أهم عناصر العلاج . فكان من نتائج ذلك أن فلاسفة الصين ، والذين كانوا دائماً من أعظم المتعلقين بالواقعية ، أخذوا ينظرون إلى المهنة الطبيعية نظرة ازدراء . ولعل ذلك هو السبب الذي من أجله لم تبلغ قط دراسة الكيمياء والطبيعة في الصين درجة الرقي .

وقد كان الصينيون هم المخترعين للبارود ، ولكنهم لم يستعملوه إلا في الألعاب النارية .

وفي أيام طفولة زوجتي ، كان جميع الصينيين العصريين يزدرون الأطباء الصينيين العتيقي الطراز ، بل إنه في عام ١٩٢٩ ، في أعقاب استيلاء « شيانج كاي شيك » على الحكم ، صدر قانون بمنعهم من مزاولة مهنتهم . غير أنه قبل أن يبدأ العمل بهذا القانون قام رجال هذه الطائفة من الأطباء الصينيين القدامى ، ثلاثمائة ألف طبيب ، قومة واحدة محتجين على ذلك ، وقالوا في احتجاجهم إنهم هم الذين يقومون بعلاج ثمانين في المائة من المرضى ، فلو أنهم منعوا من مزاولة عملهم لكان ذلك نكبة على البلاد .

ولم يُذعن « شيانج كاي شيك » للأمر إلا بعد أن هدد الأطباء القدامى بالزحف على العاصمة ، ولم يكن ذلك نتيجة نظره إليهم بعين العطف ، إذ أنه كان

قد اعتنق المسيحية من فوره ، وأفهمه رجال البعثات الدينية الأجانب أن الطب الصينى مقترن بعمل الشيطان . فلو أن دكاترة البعثات الدينية كانوا قد كلفوا أنفسهم مؤونة البحث عن حقيقة ما جعلوه موضع طعنهم لعلموا أنهم كانوا يستطيعون الإفادة كثيراً من علم أطباء الصين القدامى .

وقد قال لى الدكتور « ين » : إننى كنت فى عهد « شيانج كاى شيك » « لا أكاد أجد ما يقوم بنفقة معيشتى » . وقد بقيت الحال مدةً ما تنذر بإنقراض المهنة ، إذ من ذا الذى يرضى بمزاولة الدراسة أكثر من عشرة سنوات ليكون فى نهايتها عضواً فى مهنة محقّرة تافهة الكسب ؟

وقد تغير الوضع بمجرد استيلاء الشيوعيين على الحكم . ومما قاله الدكتور « ين » فى ذلك : « أننا معشر الأطباء القدامى مدينون بعظيم الشكر والامتنان « للرئيس ماو » . وقد شعرت بأنه كان يقصد ما يقوله فعلاً . ولديه من الأسباب ما يحمله على ذلك .

وقد أخذت المهنة منذ عام ١٩٤٩ تستعيد ما كان لها من عظيم الاحترام . ففى العام الماضى أنشىء معهد لدراسة الطب الصينى ، ومع أن عدد طلابه لا يتجاوز الثمانين للآن ، فإن العدد سيتضاعف كل سنة . وهذا فضلاً عما هو جارٍ من إنشاء مدارس من هذا القبيل فى جميع المدن الكبرى . أما دراسة الطب الغربى فإنها ماضية فى طريقها . على أن يقضى الطالب عاماً واحداً فى أحد المعاهد الجديدة حتى تتاح له دراسة فن بلاده القديم فى علاج المرضى . ويمثل ذلك يتلقى الآن أطباء الطراز القديم جزءاً من دراستهم فى مدارس الطب الغربى .

وترمى الخطة الشيوعية المرسومة لذلك إلى جعل الصنفين يلتقيان ، حتى لا يبقى مجال لوجود أطباء شرقيين وآخرين غربيين ، بل مجرّد أطباء أخذوا من كل من الفنيين أحسنَه .

ولم يعدْ هناك الآن لأحد من الأطباء فى الصين عيادة خاصة ، إذ قد أصبح الجميع يعملون للدولة . فالدكتور « ين » مثلاً كان يعمل فى صيدلية من الطراز الصينى القديم فاستولت عليها الحكومة ، وهو يتقاضى نفس الراتب الذى يتقاضاه الطراز الغربى من الأطباء .

وقد أخبرنا أن طلاب الطب الغربى الذين يتمّون دراستهم فى المعـــاهد الجديدة قد أدهشهم الكثير من الأشياء التى تعلموها بهذه المعاهد . وكانوا فى أول الأمر لا يكادون يصدقون ما قيل لهم من أنه ينمو خارج حدود « بكين » ستة أنواع من النبات كل منها أشد أثراً فى علاج الملاريا من الكنين . وقد أخذتْ جميع مستشفيات الصين أخيراً فى استعمال علاج صينى قديم ضد الدودة الشريطية .

وشفع ذلك الدكتور « ين » بقوله : « ولا بد لى من الاعتراف بأننا فى هذه الحالة نحوّل الجسم الإنسانى إلى ميدان قتال . فإن المريض يتناول قدراً من لب القرع المسلى مخلوطاً بجوز « الطمبول » (betel nut) ، وبعد نصف ساعة تنزل الدودة .

وهنالك نوع آخر من « العلاج » ظل الصينيون يستعملونه منذ أزمنة متوغلة فى القدم . ذلك أن القوم إذا أصيبو بالحمى ، عمدوا إلى قرص وشد جلد الرقبة أو الظهر فى عنف شديد تتخلف على الجلد بسببه خطوط زرقاء .

وهذا يذكرنى بحادث شاهدته عندما كنت أنا و « شى يان » فى طريقنا إلى الصين الحمراء . ذلك أن بحارة السفينة كانوا صينيين ، وعندما بلغنا « بومباى » نقل أحد البحارة إلى المستشفى . وقد قرر كل من وكيل القبطان والطبيب الهندى الذى قام بفحصه أن حالته خطيرة وإنما عبارة عما يقال عنه باللغة العادية « نزيف تحت الجلد » .

وقد قمت أنا و « شى يان » بزيارة البحار فى المستشفى وكنا ننتظر أن نجده

فى الاحتضار ، ولكننا وجدناه جالساً فى فراشه يحتج فى صوت عال على أن السفينة على وشك الإقلاع بدونه ، ثم قال ! « إننى لست مصاباً بشىء ، وإنما الأمر مجرد مسة طفيفة من مسات الحمى » .

عند ذلك حضر الطبيب . فتمسك بأن الرجل فى حالة خطيرة من المرض ، و إقامة للدليل على ذلك أشار إلى رقبة الملاح وقال : حسبكم أن تنظروا إلى هذه العلامات الزرقاء .

وكان البحار لا يتكلم الإنجليزية ، غير أنه بقيام زوجتى بترجمة أقواله ، استطاع فى النهاية إفهام الطبيب بأنه هو الذى أحدث الخطوط الزرقاء . ولم يقبل الطبيب فى أول الأمر تصديق هذا الكلام — إذ كان ككل إنسان آخر يعز عليه الاعتراف بخطئه — ولكننا عندما شرعنا فى العودة إلى السفينة انطلق البحار فى المشى معنا وهو يصفر فى اغتباط وسرور .

وقد قال الدكتور « ين » إننا لا نحبذ هذا النوع من العلاج المنزلى ، وإن كنا قد نستعين به بعض الحالات . إن أثره شبيه إلى حد ما بتأثير الحجامة » .

أما أغرب جميع أنواع العلاج التى وصلت إلى القوم من أقدم الأجيال الغابرة فهو « الوخز » الذى هو عبارة عن إحداث ثقوب دقيقة بالإبر فى جسم المريض . وقد قمت أنا و « شى يان » بزيارة مستوصف فى « بكين » حيث يعمل خمسة وثمانون طبيباً تخصصوا فى هذا النوع من العلاج ، الذى أذهلت نتائجه الأطباء الغربيين .

ويقول الدكتور « ين » فى ذلك : « إن هذا هو الذى يصح تسميته « الشفاء بمعجزة » ، ومع أننا قد استعملنا هذا النوع من العلاج مدة ألفى سنة فإننا مازلنا نجهل السر فى إحداثه هذا التأثير الناجع وإن نظريتى فى هذا الشأن هى أن الوخز ينبه مراكز الأعصاب بشكل ما . »

وقد رأينا فى المستوصف مريضاً يئن من ألم فى أسنانه . فدفع الطبيب بإبرتين

دقيقتين فى فكه ، فلم يبد المريض شيئاً من التألم إطلاقاً ، و بعد بضع ثوان ظهر الاسترخاء على المريض ، ثم زال الألم .

وكان ابتداء ممارسة الدكتور « ين » للمهنة فى أوائل الحلقة الثالثة من القرن وقت أن كانت النساء يحتفظن بالتقاليد العتيقة ، ولا يقبلن خلع ملابسهن من أجل الطبيب ، فكان يضطر لإجراء الوخز بالإبر فى معالجتهن من فوق الملابس ، ومع ذلك لم يكن عمل الطبيب فى هذه الحالة على غير هدى ، إذ كان من المحتم على طلبة العلاج بالوخز أن يتمرنوا عدة سنوات على الوخز فى دمى من المعدن جعلت فيها ثقوب فى جميع الأماكن التى يمكن منها تنبيه الأعصاب ، وتبلغ جملة هذه الثقوب ثلاثمائة وخمسة وستين ثقباً . وكان صنع أول دمية من هذا النوع منذ أكثر من ألف سنة .

وليس من الممكن بالطبع القطع بأن الوخز بالإبر يشفى جميع العلل . ولكن يهيأ للإنسان أنه لايكاد يوجد مرض إلا كان فيه للوخز تأثير نافع . فقد كنا نعرف طبيباً من ممارسى الطب الغربى ، قضى السنين الطوال وهو يقاسى آلام الأرق ، وقد حطمت أعصابه الحبوب المنومة التى داوم على تعاطيها ، ثم قبل فى النهاية أن يجرب علاج الوخز . فلم يشك بعد ذلك قط من قلة النوم ، مع إقلاعه عن تناول الحبوب المنومة .

وهناك مريض آخر كانت علته المشى وهو نائم ، فتم شفاؤه بعد ثلاث دفعات من العلاج .

وهذا فضلا عن تحسن حالة المصابين بقرح المعدة ، وعن استعادة المصابين بشلل الأطفال لمقدرتهم على استعمال بعض عضلاتهم . ثم إن مجرياً من زوار بكين كان على درجة لاتتصور من السمنة ، فلما جرب علاج الوخز نقص وزنه أربعين رطلا بعد شهرين من العلاج . وحتى المصابين بالملاريا الخبيثة كثيراً ما تتحسن حالتهم بهذا العلاج .

وتصنع الإبر من الذهب أو الفضة أو الصلب الذى لا يصدأ : وعند استعمالها فى العلاج تترك مغروسة فى موضعها مدة تتراوح بين خمس دقائق وعشرين دقيقة.

وفى بضع السنوات الأخيرة عولج فى « بكين » بعلاج الوخز عدة من الأطباء السوفيت . وفى فرنسا شرع عدد قليل من الأطباء فى استعماله فى معالجة المرضى . وهذا فضلا عما يلقاه هذا العلاج من الإقبال فى اليابان منذ سنوات كثيرة .

قلت : أما يصح لى أن أجربه ؟ فابتسم الدكتور « ين » وقال إنه للمرضى فحسب ، وأنا ليس بى شىء من المرض . ثم أضاف : « ليكن رائدك دائماً أن تكثر من الخضر فى طعامك ، وألا تفرط فى أكل اللحوم ، وأن تحرص على جانب من الرياضة البدنية كل يوم ، وألا تجعل للأمور الصغيرة مجالا لإرهاق أعصابك — وبهذا لن تكون فى حاجة إلى الطبيب بعد اليوم » .

ثم نهض قائماً وانحنى بالتحية . وما أن غادر الحجرة حتى بادرت بالوثوب من الفراش . فكانت عودتى إلى حالة الصحة والعافية من أعجب الأمور .

الفصل السابع

شجرة فى الغابة

بينما كنت أسير ذات يوم فى شوارع « بكين » لمحت وجهاً بدا مألوفا لى . نعم إنه « شين مينج » الذى كان من أعز أصدقائى منذ أيام دراستى بجامعة « يننشينج » والذى كنت أجالس معه فى كثير من الليالى نتحدث ونثرثر حتى يبح صوتى . وهو لم يكن ألمع طالب بين زملائى ، ولكنه كان صافى القلب صريحاً فى أقواله بدرجة مدهشة غير مألوفة فى الصينيين .

فأسرعت فى السير وراءه ، ولكننى لما لحقت به بقيت لحظة فى تردد . لقد سبق لى منذ قدومنا أن قابلت مرتين بعض أصدقائى القدامى ، فكانوا يفرون منى بمجرد صياحى لهم بنداء التحية . فماذا يكون الأمر لو فعل « شين مينج » مثل ما فعلوا ؟

ولكن ما أن وقع نظره على حتى أشرق وجهه ، فخبط كل منا بيده ظهر الآخر ، و بقينا دقائق عدة نتحدث فى تحمس والريح حولنا تلفحنا ببردها الثلجى ، إلى أن شعر كلانا أننا أخذنا نرتعد من البرد .

عند ذلك نظر « شين مينج » إلى ساعته وكان وجهه الطويل الشديد الحساسية قد ازداد نحافة عن قبل ، ثم قال : « هيا بنا نذهب إلى مكان ما . إننى فى العادة أذهب فى مثل هذا الوقت لحضور اجتماع من الاجتماعات ، ولكننى اليوم من باب الصدفة خال من كل ارتباط . إننى أعرف مطعماً طيباً بالقرب من السوق » .

فلو كنا فى الأيام السالفة لكان دعانى إلى منزله ولكن الصينيين قلما يفعلون ذلك الآن . فإن معظم الناس يقيمون فى مسكن مقتسم بينهم و بين عدة

أسر أخرى ، وقل من يوجد لديه أحد من الخدم ، فليس من الملائم استضافة أحد بالمنزل . وهذا فضلا عن نظرات الجيران التى يشيعون الناس بها ، وكلما قل عدد الأغراب الذين يصطحبهم الإنسان إلى مسكنه انصرفت أنظارهم عن التحديق إليه .

ذهبنا إلى المطعم . وكان المعتاد فى مطاعم هذه المدينة الغاصة بالسكان أن ينتظر القادم فترة حتى يخلو له مكان ، ولكن الحظ خدمنا فوجدنا مائدة خالية بمجرد وصولنا . وعندما خلع « شين مينج » قلنسوته المتخذة من الفراء لاحظت أن الشيب قد ابتدأ يشتعل فى رأسه مع أن المألوف أن الصينيين لا يبيض شعرهم إلا بعد سن الخمسين ، بل قلما يرى صينى أصلع .

وقد أخذنا نتحدث عن أيام الدراسة التى قضيناها سوياً ، ولم يلبث الحديث أن ساقنا إلى ذكرى « وى » الذى كان زميل « شين مينج » فى حجرة النوم بالجامعة : فقال «شين مينج » إنه لم يره منذ سنوات عدة ، ولكنه سمع أنه سلك طريقه فى الحياة على غاية ما يرام ، وأنه يشغل مركزاً سامياً فى الحكومة بمدينة « شنغهاى » ، وأنه عضو فى الحزب الشيوعى .

« وهل أنت عضو فى الحزب الشيوعى ؟ »

« كلا » .

« إذن ربما كان فى مقدورك معاونتى . . . » وقد شرحت له مسألتى ، وأننى قضيت فى أيام شبابى ست سنوات بالصين ، وتعلمت اللغة الصينية ، بحالة لا بأس بها ، ولكننى أكاد أشعر الآن بأننى غريب عن البلاد تماماً . ويمثل ذلك زوجتى ، مع أنها ولدت هنا . لقد تغيرت أحوال جميع الناس فى أثناء غيابنا . فقد صار الناس أكثر تزمتاً وصرامة من قبل ، وأصبحنا لا نستطيع الاختلاط بهم .

ثم قلت « إننى أريد أن أعرف هل الناس يؤمنون حقاً بجدارة الحكم

الجديد » فنظر « شين مينج » إلى فى تفكير . وواصلت كلامى فقلت « لا فائدة من توجيه هذا السؤال إلى شيوعى ، فإن القوم جميعاً يردون عليه بجواب واحد ومن كان منهم لا يحبذ الماركسية لا يرد بشىء إطلاقاً » .

فقال : « أجل ، ليس من السهل معرفة موقف الناس اليوم . فإن قلة منهم قد آمنوا بالطبع بالشيوعية ، ولكن يوجد إلى جانب هؤلاء الكثيرون من الانتهازيين . و إذا كان المرء عضواً فى الحزب انفتحت أمامه أبواب الرزق بما يزيد كثيراً عما يجده غيره . وهناك أيضاً من يجارون الشيوعيين لكى يتركوا وشأنهم فى سلام » .

قلت : « نعم ، إن ذلك مثال الخلق الصينى ، وهو البعد عن النزاع بأى ثمن » .

فامتعض « شين مينج » لذلك وقال : « إننى أذكر أنك سبق أن قلت مثل هذا الكلام أيام كنا ندرس معاً ، ورميتنا نحن الصينيين بالجبن الأدبى . نعم قد حصل منك ذلك يا « كارل » . وقد كنت محقاً فى ذلك من وجهة معينة ، فإن من طبعنا أن نخشى الإحراج ، وعندما يثور خاطرنا لأمر ما فإننا نجتهد لإخفاء غضبنا ، ولكنك تخطىء إذا ظننت أن الشيوعيين قد تم لهم الأمر لأن أحداً لم يجرؤ على مقاومتهم » .

ثم اتكأ على المائدة فى تحمس ، وقد بدا لى إذ ذاك أقرب ما يكون إلى صورته القديمة ، وقال : « أما تذكر ما جرى فى الحرب ضد اليابان ؟ لقد هجر خمسون مليوناً من الصينيين أوطانهم على الشاطىء ، وساروا متوغلين فى الداخل لأنهم لم يقبلوا شروط اليابانيين . فهل كان ذلك عملا من أعمال الجبن ؟ ثم إننا فى أعقاب الحرب ، عندما حاول « شيانج » إسكات الذين لم يوافقوه على مبادئه لم نأل جهداً فى مقاومته . ألم يحصل ذلك منا ؟ وأظنك قد سمعت بأن عدداً من طلبة جامعتنا قد أعدمتهم شرطة « شيانج » السرية رمياً بالرصاص ، وقد

كانوا يجدون فى البحث عنى أيضاً لولا أن فررت إلى « هونج كونج » .

وكان « شين مينج » مهندساً كيميائياً ، وقد وفق إلى الالتحاق بمنصب حسن فى « هونج كونج » ، وقد أخذ يغلب على صوته أثر الحنين وهو يصف لى ما لقيه من التمتع ورغد العيش فى المستعمرة البريطانية : من شقة سكن واسعة ، وخدم وسيارة خاصة . ثم واصل كلامه فقال : « وقد كنت إذا ذاك أقول لنفسى إنه لا شأن لى بالحرب الأهلية التى تدور رحاها فى الصين الرئيسية ، وشعرت فى الواقع بالميل إلى الإقامة فى « هونج كونج » بصفة دائمة ، ولكننى لم أستطع الاستسلام لهذا الميل . فقد استولى على ، بشكل ما ، شعور بالخجل من نفسى ، وكأننى أحسست بأننى قد تخليت عن بلادى » .

وفى عام ١٩٥٢ ، أى بعد ثلاث سنوات من استيلاء الشيوعيين على الحكم عاد « شين مينج » إلى موطنه . فاستقبل فى الصين الحمراء بعظيم الترحيب . فقامت الحكومة بدفع نفقات رحلته فى العودة إلى بكين ، ودعته للإقامة ببيت الطلبة العائدين . ولم يضطر إلى البحث عن عمل له ، فإن ممثلى المؤسسات الحكومية هرعوا إليه ليعرضوا ما عندهم من الوظائف .

وقد قال فى ذلك : « إنهم بالطبع لم يعرضوا على أى راتب يقرب مما كنت أتقاضاه فى « هونج كونج » ، إذ لا يخفى أن الصين بلاد فقيرة . ومع أن راتبى الآن لا يتجاوز ١٣٠ « يوان » فى الشهر (حوالى ثمانية عشر جنيهاً استرلينياً) ، فإننى غير متذمِّر من ذلك إطلاقاً ، إذ أن عملى هنا يلذ لى . . . . . . »

وقد سمعت مثل هذا القول من الكثيرين فى الصين الحمراء«حتى من الذين ليس لهم أى اهتمام بالسياسة . فإن الناس قد ملوا تلك الحروب الأهلية التى لم تكن تبدو لها نهاية ، كما سئموا الفساد المنتشر فى البلاد ، وهم يرون الآن بلادهم وقد أصبحت ، دولة قوية متحدة ، خليقة بأن يعمل الجميع من أجلها .

بل إن هناك مجالا لتخفيض الراتب الحالى الذى يتقاضاه « شين مينج » .

فقد شرعت مؤسسته فى عقد اجتماعات للبحث فى إجراء تعديل عام للمرتبات . وطلب إلى كل واحد ممن تضمهم المؤسسة أن يذكر هل هو يرى أنه يتقاضى مرتباً عادلا بالنسبة لما يتقاضاه غيره ، على أن يوضع فى النهاية نظام جديد بالمرة لفئات المرتبات ، يتم الوصول إليه عن طريق التصويت .

وكذلك أعرب « شين مينج » عن إعجابه بما يراه من روح التعاون الجديدة قال : « إننى يستشيرنى الذين يقلون عنى خبرة ، وفى مقابل ذلك أتلقى أنا معونة ممن يفوقوننى فى مستوى الدراسة . وعملا بهذا المبدأ نفسه يتعلم الكثير من الناس القراءة والكتابة — ونحن نطلق عبارة « اكتساح العمى » على هذه الحملة للقضاء على الأمية » :

وتبذل الصين الجديدة أيضاً مجهوداً للقضاء على البيروقراطية وروح الاستبداد الإدارى . قال « شين مينج » ، إنك تعرف ماذا أقصد بذلك — القضاء على ذلك النوع من الموظفين الذى يقبل حذاء رئيسه ويرهب مرؤوسيه إرهاباً : أمثال السيد « شينج » . . . . . . « وقد ابتسمنا نحن الاثنين عند ذكر هذا الاسم فقد كان السيد « شينج » أبغض المدرسين إلينا

وواصل « شين مينج » كلامه فقال : « إن أمثال هذا الرجل لم يبق لهم بعد الآن مجال يذكر فى الصين » . فإنه يوجد الآن فى كل مصلحة صندوق لإيداع خطابات النقد. فإذا رأيت شيئاً ينافى العدالة فما عليك إلا أن تشكو منه ، ولا بد حتما من اتخاذ إجراء ما بشأنه متى ثبتت صحة الشكوى .

ولا يفوتنا أن نذكر بهذه المناسبة أن هذه كانت عادة من عادات الصين القديمة . فقد كان مباحاً لكل إنسان يريد التظلم إلى الإمبراطور أن يدق جرساً علق خارج القصر لهذا الغرض . ويقص علينا التاريخ الصينى أن أحد الأباطرة قطع عليه فطوره ثلاث مرات بسبب جرس الشكاية .

وكان « شين مينج » يرى من جهة أخرى أن الاجتماعات السياسية التى

يحتم عليهم حضورها تزيد كثيراً عما ينبغى . فإن المرء ، بعد أن يقضى فى العمل يوماً بأ كمله ، لا يشعر دائماً بالميل إلى الاستماع لمحاضرة طويلة فى « الماركسية » .

غير أنه على العموم مرتاح لحاله فى الصين الجديدة ، وإن كان قد وقع له ، بعد نحو سنة من عودته ، حادث كان له أكبر أثر فى تغيير مجرى حياته . ذلك أنه فى إحدى الاجتماعات السياسية التى تعقد باطراد ، استطرد الحديث إلى موضوع الذين لا يزالون ينظرون إلى الحكومة الجديدة فى شىء من التحفظ . وعند ذلك قام أحد رؤساء « شين مينج » ، وكان شيوعياً ، وأشار إليه ، قائلا :

« إنك مازلت على جانب من التشكك ، وكثيراً ما وليتنى الشعور بأنك فى الحقيقة لست منا . إنك فى قرارة نفسك لا تؤمن « بالماركسية » هى خير سبيل للصين » .

وعند ذلك قام للكلام أحد زملاء « شين مينج » فى العمل ، وكان هو أيضاً شيوعياً . وقد قال لى « شين مينج » فى وصف هذا الموقف ما نصه : « إننى كنت معه دائماً على أحسن حال بل إننى كنت أظن أنه يحبنى ، ولكن ليتك سمعت ماقاله عنى فى هذا الاجتماع ! لقد قال إننى دائماً أتشبث بالسير فى الطريق الذى أريده ، وإن قلبى ليس فيه مكان للميول الجماعية ، وأننى مازلت بورجوازياً .

ولما فرغ من كلامه تبعه آخرون غيره ، فكان لدى كل منهم شىء يقوله ضدى : فرمونى بأننى شديد الميل إلى الانفرادية ، وأننى مثال صادق لما خلفته الطبقات العليا . وإنك لا تتصور مبلغ ما قاسيته من الآلام وأنا جالس هنالك أستمع إلى كل هذه الأقوال . إننى لم أشعر فى حياتى قط بما شعرت به وقتئذ من شدة الوحدة » .

وفى النهاية قفز « شين مينج » واقفاً للاحتجاج على ذلك ، فقال : « إنكم تتكلمون كما لو كنت خائن لبلادى ، وهذا أبعد ما يكون عن الحقيقة . إننى وطنى صميم ، وإلا ما كنت قد عدت من « هونج كونج » . أما إذا كنت قد

نشأت من أسرة ثرية ، فليس هذا ذنبي ..... »

وعند هذه النقطة قوطع فى كلامه ، فقيل له : إنه على خطأ فيما يقرره ، إذ أن جميع أعضاء الطبقات العليا السابقة يجب أن ينالهم نصيب من اللائمة، لأن تلك الطبقات استغلت الفقراء وباعت الصين للدول الاستعمارية . لقد كان الجرم جماعياً .

فتساءل « شين مينج » : « وماذا تريدون أن أفعله ؟ » فأجابوا بأنه يجب عليه أن يقلع عن انحرافاته الانفرادية ، وأن يكون إيمانه بالماركسية راسخاً رسوخ الصخر ، وأنه يجب أن يفكر بعقلية العامل ، وأن ينظر إلى جميع المسائل من وجهة نظر العامل .

فعاد « شين مينج » إلى الاحتجاج ، وقال إنه لم يكن عاملاً فى يوم من حياته ، ومثله فى ذلك الحاضرون فلماذا يدعون أنهم يستطيعون التفكير بعقلية العمال ؟ إن من الحقائق الجلية أن لا أحد من طبقات العمال تلقى دراسة ثقافية وافية ، فلماذا يحاول الناس جعل تفكيرهم كتفكير غير المتعلمين ؟

فذهل الحاضرون ، وخيم الصمت فترة على الاجتماع . ثم قام رئيس « شين مينج » وقال إن كلمات « شين مينج » الأخيرة قد أيدت ظنونهم ، وأثبتت أنه يكن فى نفسه فعلاً ميولاً مضادة للديمقراطية ، وأنه لا يدرك أن أعضاء طبقة العمال هم وحدهم الذين يستطيعون القيام من أجل الثورة بالتضحيات الخالصة المجردة من الأنانية . فهو عديم الثقة بالعمال ، وهذا معناه أنه لا ثقة له بالصين الجديدة ، ولا بالحزب الشيوعى ، ولا بالرئيس « ماو » . ثم وجه إليه الخطاب وقال : « إنك تحتقر الطبقات السفلى ، ولكن عليك أن تذكر أن هذه الطبقات هى الشعب ، والشعب هو الصين الجديدة » .

ودام الاجتماع إلى قرب منتصف الليل ، وعندما أوى « شين مينج » إلى

فراشه في تلك الليلة لم يذق طعم النوم ، وكانت لا تفارق ذهنه صورته والناس من حوله يشيرون إليه في اتهام .

فهل كان حقاً سيء الصفات إلى هذا الحد الذى صوره فيه ؟ لقد اضطر بعد التفكير إلى الاعتراف بينه و بين نفسه بأنه أنانى ، فى حين أنه لا يمكن وصف الشيوعيين بهذه الصفة . إنهم يطالبون غيرهم بتضحيات كبيرة ، ولكنهم بلا شك لا يبخلون بأنفسهم أيضاً فى التضحية ، وقد بذلوا الكثير من أجل الصين فإذا كانوا غير راضين عنه ، فلابد أن ذلك لعيب فيه .

ثم استؤنف الاجتماع فى مساء اليوم التالى . فابتدأ بقيام أحد الحاضرين بإلقاء خطاب حماسى عن أعمال التنمية الهائلة التى تم القيام بها فى عهد الشيوعيين، وذكر أن الصين بأجمعها تسير فى ثبات نحو الاشتراكية ، غير أنها تجد أمامها عوائق كثيرة فى طريقها ، بسبب مالها من الأعداء فى الخارج وفى الداخل

ومالبث (شين مينج) أن وجد نفسه مرة أخرى تحت وابل من النيران . فقالوا عنه إنه لا ينظر إلى (الماركسية) النظرة الجدلية الواجبة ، وأنها فى نظره ليست سوى نظرية من النظريات السياسيه الكثيرة ، وأنه ممتنع عن مواجهة الحقيقة التى لا مراء فيها من أن التاريخ يقرر أن النصر النهائى سوف يكون للماركسية .

قال لى « شين مينج » وهو يحدثنى : « وقد حاولت الدفاع عن نفسى ، ولكن الأمر لم يكن هيناً ، لأن القوم ما داموا قد درسوا المادية الجدلية فنى وسعهم أن يقلبوا ضدك كل شيء تقوله ، وأن الكثير مما قالوه كانت له قوة إقناع شديدة . فوصلت فى النهاية إلى الاقتناع بأن هناك فعلاً شيئاً من الخطأ فى موقفى إذا أن رأى عشرة ، على حد تعبير الشيوعيين ، أفضل من رأى فرد واحد ، ورأى مائة خير من رأى عشرة ، فكيف كنت أستطيع أن أضع رأيى بمفردى فوق رأى كل إنسان آخر غيرى ؟ » .

ثم أوضحوا له أنه حتى لو بدا أن أمراً مما أتى به الشيوعيون كان غير سليم ، فليذكر الإنسان أنهم هم وحدهم الذين يغارون من قلوبهم على مصلحة الشعب . وقد شفعوا ذلك بقولهم : « لا تقصر نظرك على شجرة واحدة فى الغابة ، بل انظر إلى الغابة جمعاء » .

كذلك طلبوا إليه ألا يضاعف لنفسه صعوبة الأمور ، وقالوا : « إنك عصبى مضطرب النفس ، وذلك لأنك تحاول حل مشاكلك بمفردك . فانخرط فى سلكنا تجد أن الأمور قد هانت عليك كثيراً ، و بادر إلى مد يدك لليد التى يمدها إليك الشعب » .

ثم صاروا من ذلك الحين يلتفون حول « شين مينج » كل مساء ، يوماً بعد يوم ، وأسبوعاً بعد أسبوع ، موضحين له كيف أنه لا ينبغى له أن يستسلم قط لنزواته : « إن نزواتك ضاربة فى أعماق الماضى ، فهى لذلك شديدة الخطر . فإذا شعرت بنزوة تأتيك فجأة ، فصدها فى الحال واعمد إلى تحليلها ، بل إنه يجب أن تزن بعناية كل فكرة تأتيك ولا تغفل قط عن سؤال نفسك : هل أنا ناظر إلى هذا الأمر من وجهة نظرى الشخصية التى تشوبها الأنانية ، أو من وجهة نظر جموع الناس ؟ »

عند ذلك ظهرت علامات الإعياء فجأة فى صوت « شين مينج » ثم قال ، وهو يحملق بنظره فى جزء متشقق بالمائدة ، إن التفكير على هذا الوجه ليس من الأمور الهينة ، إذ يجب على الإنسان أن يكون دائماً فى حذر ، بأن يصد آراءه الشخصية فى الحال ، فيكون بذلك كمن يقتل شيئاً داخل كيانه ، ولكن الظاهر أن هذا هو السبيل الوحيد للخلاص . وإنهم لعلى حق فيما قالوه لى ، من أن الإنسان متى راض نفسه على هذه الطريقة سهل عليه كل شىء ، وحظى براحة البال » ،

قلت : « وعلى ذلك قد تعلمت كيف تفكر على هذا المنوال ؟ » .

قال ، وهو ما زال يحملق فى تشقق المائدة ، « نعم ، أو كدت . إنه لا مفر لى من الاعتراف بأنه تعترينى بعض الشكوك من وقت لآخر ، ولكن ذلك هو المنتظر . فإن معركة الطبقات يجب أن تدور رحاها داخل نفس كل منا ، أى أن المرء لا ينصرف عن مكافحة أنانيته الشخصية ، على مثل مواظبته على مكافحة الحشائش فى حديقته ، على أننى فى معظم أوقاتى أحس بتمام الهناءة ، ولم أشعر فى أى وقت مضى بمثل ما أشعر به الآن من الميل إلى عملى » .

قلت : « إنك صرحت بأنه تعتريك بعض الشكوك أحياناً ، فماذا تعنى بذلك ؟ » .

فهز رأسه وقال : « إنه لمن الصعب توضيح ذلك ، وغاية ما أستطيع قوله إنه يعترينى فى بعض الأوقات شعور بأن الحياة على هذا المنوال رتيبة كالآلة الميكانيكية — إنها مقصورة على المنطق ، والمبادىء ، والإنتاج . ولم تعد هناك صداقة حقيقية ، مما كان يرى فى الأيام السالفة . ولا يعمد أحد إلى التكلم مع آخر فى الأمور ذات الأهمية الحقيقة . حقاً إنه يطلب إلينا فى الاجتماعات أن نتكلم فى صراحة ، ولكن الواقع أن هناك أموراً كثيرة لا يرغب الإنسان فى الكلام عنها أمام مثل هذا العدد الكبير من الناس . وهذا فضلا عن أن المرء لا يعرف قط متى يمكنه الوثوق بالناس ، بعد كل ما جرى . ذلك لا لأننى أخاف من الجواسيس وأمثالهم ، أو أخشى الإعدام جزاء تصريحى بشىء من النقد ، وإنما ..» وهنا تردد فترة ثم قال ؟ « انظر مثلا إلى ما جرى فى الاجتماع الأول ، الذى قالوا عنى فيه إننى « انفرادى » أكثر مما ينبغى . لقد اتضح أن القوم ظلوا سنة كاملة يرقبون كل ما كنت أقوله ، كما كتبوا التقارير عن أحوالى . وإنى أدرك الآن بالطبع أنهم لم يفعلوا ذلك إلا لمعاونتى ، وعندما انقضى الأمر عادوا إلى معاملتى ألطف معاملة . ولكن مثل هذه التجربة تجعل الإنسان يفكر

مرتين قبل أن يفتح فاه للـكلام . وإننى أشعر أحياناً بالرغبة فى النطق بعبارة مزاح أو ببعض ألفاظ عابثة لمجرد اللهو ، ولـكننى أمنع نفسى من ذلك ، فربما علقت الألفاظ بذهن بعض الناس، فيعد ذلك منى نزقاً وعملا منافيا للخطة البنائية .

فسألته ألم يعد يشغل باله بالأحداث السياسية فقال : « نادراً ، وإن كان قد حصل شىء من ذلك فعلا . إذ قد تبلبل خاطره كثيراً فى شأن مسألة المجر . ففى أول أمرها وقفت الصحف فى جانب (رئيس الوزراء) « ناجى » ، على اعتبار أن الحـكومة السابقة ، على حد ما جاء بالمقالات الافتتاحية ، لم تفهم « الماركسية » على حقيقتها ، وأن هذا هو السبب فيما حدث من الانشقاق بين الحـكومة والشعب ، وأن الحـكومة الجديدة قد أصلحت ماوقع من الخطأ . وقد كان المغزى الوحيد الذى استخلصته من ذلك أن « الماركسية »الحقيقية لاتهاب الاعتراف بأخطائها ، وتتعلم من هذه الأخطاء .

ولـكنه عندما عاد الجيش الأحمر إلى « بودابست » غير رجال الصحافة نغمتهم فجأة ، فمن كانوا يرونهم ثواراً بواسل أصبحوا فى عرفهم الآن رجال عصابات وفاشيّين ، ممّا تبلبلت له أفكار « شين مينج » وجعل من العسير عليه معرفة أى الأقوال يصدق .

ثم نهض « شين مينج » واقفاً وقال : « أخشى أن يكون قد حان وقت انصرافى . لقد كانت صدفة عجيبة أن أتيحت لى رؤيتك بعد هذا الانقطاع — وكدنا نعود إلى مثل ما كان فى الأيام السالفة . إنه لم يعدْ هناك الآن مجال المناقشة الممتعة ، إذ أن آراء الجميع واحدة » . ثم بادر فى سرعة إلى إتمام كلامه بقوله : (ولـكن هذا بالطبع هو الخير ، لأنه يجب أن تتوافر لنا الوحدة فى الصين — وإلا فلا يكون فى وسعنا بناء مجتمع جديد عادل ، وهذا فضلاً عن وجوب لحاقنا بسائر دول العالم » .

ولم نحدد موعداً للقائنا مرة أخرى ، ولـكنه فى أصيل ذات يوم من أيام

الأحد ، بعد أسبوعين من تلك المقالة ، فوجئنا باصطدام أحدنا بالآخر بحديقة حيوانات (بكين) . وقد كان برفقته جماعة من الناس ، ولذلك لم نجد فرصة تذكر للتحدث معاً .

فسألته : « أما زلت متشككاً فى شأن مسألة الجر ؟ » فابتسم وسألنى عما إذا كنت قد قرأت المنشور الذى أصدرته اللجنة المركزية عقب عيد الميلاد مباشرة .

فأجبته بالإيجاب . إن هذا المنشور قد اتخذ له عنواناً (مزيد من الدكتاتورية البرولتارية) وهو يحض الشعب على توخى الحذر دائماً من دعاية الأعداء . (إن المشكلة الأساسية كانت دائماً ، ولا تزال ، مسألة الكفاح بين الكتلة الاستعمارية وبين معسكر الاشتراكيين الديمقراطى . . . . وإن الواجب يقضى على جميع الذين آمنوا بوجهة نظر الشعب أن يميزوا تماماً بين الاختلافات التى تقع داخل الأسرة الاشتراكية وبين الاختلافات الواقعة بيننا وبين أعدائنا الخارجيين . ومع ما سنلقاه حتماً فى رحلتنا إلى الأمام من مظاهر الالف والدوران فان الإنسانية ستصل فى النهاية إلى مقصدها المنير ، وهو الشيوعية » .

وواصل « شين مينج » كلامه فقال : « إن هذا المنشور قد شرح لنا شرحاً وفياً فى اجتماعاتنا الأخيرة ، وقد تبين لى الآن أى الأقوال أصدق . لقد وقعت أخطاء فى الجر ، ولكنه لا ينبغى لنا أن نركز كل انتباهنا فى هذا الموضوع . إن أولى الأمور بانتباهنا هو وحدة الدول الاشتراكية ، ولا يجوز أن يحصر الإنسان نظره فى شجرة واحدة فى الغابة ، بل الواجب أن ينظر إلى الغابة جمعاء » .

عند ذلك شد كل منا على يد الآخر ، وبقيت أرقبه فى مسيره حتى غاب عن نظرى وسط الزحام .

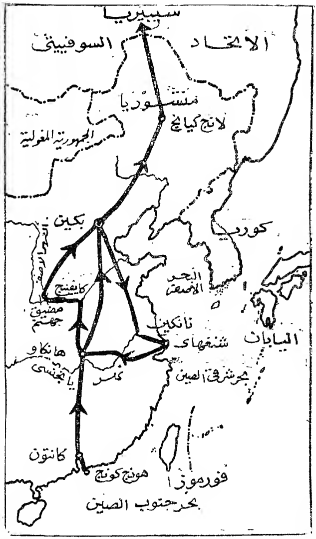
سيبيريا
الاتحاد السوفييتى
منشوريا
لانج كيانج
الجمهورية المغولية
بكين
كوريا
البحر الأصفر
كايفنج
مضيق جهنم
نانكين
شنغهاى
اليابان
هانكاو
يانجتسى
بحر شرقى الصين
كانتون
هونج كونج
فورموزا
بحر جنوب الصين

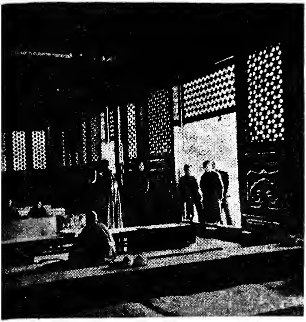

←

صينيون يشاهدون التعبد فى أحد معابد اللاما فى بكين . وقد أعيد إلى المعبد رونقه على حساب الحكومة وهى تدعو جميع الزائرين لمشاهدته للتدليل على حرية الديانة فى الصين الجديدة .

*

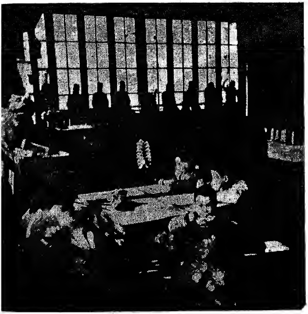

←

داخل أحد المعابد فى شنغهاى أسرة سادن المعبد وهى تتناول طعام الغداء

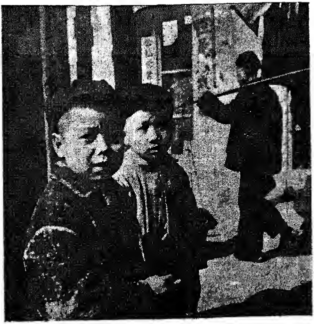

←

هل هذا رجل أبيض ؟

قلما يرى الآن رجال بيض في الصين .

*

←

« شي يان » مع أمها وأختها وزوج أختها

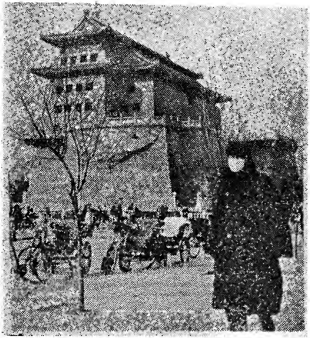

←
يضع الناس فى الصين
الحديثة قناعاً أبيض
للوقاية من العدوى

الفصل الثامن

أحباب « ماوتسى تونج »

إذا كان هناك أمر يضيق به الإنسان أكثر من كتابته عن مصنع من المصانع فهى زيارته للمصنع . لذلك كنا ، أنا و «شى يان» على استعداد لتحمل أثقل الأعباء عندما خرجنا فى ذلك اليوم لزيارة « مصنع النسيج القومى — رقم ٢ » ولكن اتضح أن الظروف قد ادخرت لنا فى تلك الزيارة مفاجأة من ألطف المفاجآت .

بدأت الزيارة بتلك الدورة التى لا مناص منها . فقطعنا فى سيرنا أميالا طوالا ونحن نمر أمام آلات تقرع الآذان بعجيجها . وكانت ترافقنا سكرتيرة ، هالت علينا الإحصاءات حتى امتلأنا . فقالت إن بالمصنع خمسة آلاف من العمال ، ينتجون فى اليوم مائتين وأربعين ألف ياردة من الأقمشة القطنية ، وأن الحكومة تبنى فى كل عام أربعة مصانع جديدة لنسيج القطن من نفس هذه الطاقة الإنتاجية ، وأن الصين ، التى كانت فيما مضى تستورد الأقمشة القطنية ، أصبحت تصدرها إلى الكثير من بلاد جنوبى آسيا . . . .

وكنت أبذل وسعى للاستماع إليها فى انتباه ، غير أن السكرتيرة قطعت كلامها فجأة بعد أن كانت ماضية فى وصف عملية كيميائية معقدة ، وقالت : « أخشى أن يكون ذلك مما لايلذ لكما كثيراً الاستماع إليه . فهل من شىء خاص تفضلان الاستماع إليه ؟ »

فأجبت مبتسما : « نعم نفضل شيئاً لا يكون فنياً لهذا الحد ، شيئاً . . . مما ينشط له الخيال والعاطفة ، وإن كنت لا أظن أن ذلك متيسر فى مصنع لنسيج القطن » .

فقالت ، وقد بدت عليها أمارات الابتهاج : « بل هو متيسر ، فعليكما بالتحدث إلى الرفيقة « ليانج » ، فإنى أظن أن قصة زواجها مثيرة جداً وكفيلة بتحقيق بغيتكما » .

ذهبنا إليها فوجدناها فى دار الحضانة النهارية ترضع طفلتها الصغيرة . وكان المكان ، بحسب تقدير الأعين الأوربية ، غير مستكمل لصفات الحسن . فكانت أرضيته المتخذة من الأسمنت عارية ، والمدفأة ينبعث منها الكثير من الدخان . ولكن يجب ألا يعزب عن الذهن أن الصين لم يكن بها ، قبل التحرير شىء يذكر من مرافق الخدمة العامة . فلم يكن من الغريب فى تلك الأيام أن ترى النساء العاملات فى المصانع يباشرن عملهن وقد شدت أطفالهن إلى ظهورهن ، فى حين أنه توجد الآن دور الحضانة ورياض الأطفال فى جميع المصانع الكبيرة بالبلاد .

ولم تشعر الرفيقة « ليانج » بأى شىء من الإحراج بسبب حضورنا الفجائى ومضت فى إرضاع طفلتها دون تغيير مافى وضعها — شأن الصينيين دائماً فى احتفاظهم بالحالة الطبيعية فى مثل هذه الأمور . وهى صغيرة الجسم مع شىء من البدانة ، وقد بدت فى خديها نونتان عندما أخذت تحدثنا عن قصة التقائها بزوجها .

كان ذلك فى مؤتمر لاتحاد العمال . وكانت قد قرأت من قبل شيئاً عنه فى الصحف ، إذ كان بطلا من أبطال العمل المشهورين ، ظل ينجز فى اطراد أكثر من المقرر له ، فى حين أنها لم تتجاوز مرتبة العاملة النموذجية ، التى تقل عن مرتبته بدرجة واحدة ، ولم يكن فى ذلك مايعد نقصاً بالنسبة لفتاة مثلها فى سن التاسعة عشرة .

وقد قالت الصحف عنهما فيما بعد « إن السبب المباشر فى إقبال أحدهما على الآخر كان مرجعه إعجابهما المتبادل بما كان يبديه كل منهما من إنكار الذات والتضحية فى سبيل خدمة الشعب الصينى » . وإننى أتساءل فى نفسى

هل لم يكن للنونتين على خديها أثر فى ذلك أيضاً . إن المسألة على كل حال لم تعد أنها مثل وقوع الحب لأول نظرة .

سألتها هل حصل الزواج بينهما فى الحال ؟ فقالت « لا » . فإنه لم تبلغها منه كلمة واحدة لأكثر من شهر من يوم اجتماع المؤتمر . وقد ابتسمت حين ذكرت أنها كانت فى هذه المدة فى حالة عصبية واضطراب، بل إن ذلك قد كان له بعض التأثير فى عملها ، إذ أنه فى أحد الأيام قد وجد عيب فى لفة قماش من إنتاج الآلات التى تشرف عليها .

وهنا أضافت السكرتيرة : « وقد عرض زملاؤها تحمل مسئولية الخطأ بدلا منها ، إذ كانوا فخورين بسجل ماضيها وأرادوا أن يبقى ناصعاً دون أية شائبة تشوبه ، ولكن الرفيقة « ليانج » رفضت عرضهم فى إصرار » :

قلت : « ولماذا لم يبعث لك بأى خبر؟» فأوضحت ذلك بأنه عضو فى الحزب الشيوعى ، فلما انفض المؤتمر بادر فى الحال بإبلاغ « خليته » بما حدث فكتبت الخلية إلى قسم المستخدمين بالمصنع الذى تعمل فيه تسأله عن ماضيها ، رغم ماهو معلوم من أنها « عاملة نموذجية » . وقد اتضح لحسن الحظ أن موقفها كان دائماً سليما ، وعلى ذلك باركته الخلية ، فحضر وعرض الزواج .

ولما انتهت الرفيقة « ليانج » من إرضاع طفلتها عرضت علينا الذهاب لمشاهدة مسكنها . فسرنا فى صحبتها إلى مجموعة كبيرة من المبانى أقيمت فى الجانب المقابل للمصنع . وقد ذكرتنى هذه المبانى بمساكن العمال التى بنيت فى أوربا الشمالية حوالى منتصف القرن ، إلا أنها وإن له يمض عليها أكثر من سنة ونصف سنة ، أخذت فى أسباب التدهور فى مظهرها . فكان « بياض » الجدران آخذاً فى التساقط فى عدة مواضع ، كما كان بعض دهانها يتقلص وينفصل عنها . على أننا إذا راعينا مقدار ما قام الصينيون ببنائه فى السنوات

القليلة الأخيرة لا يدهشنا ما ترتب على ذلك من نقص فى جودة العمل .

وكانت قد عرجت بنا فى الطريق على المدرسة ، والوحدة الصحية ، وقاعة الغداء الكبرى حيث يستطيع الإنسان تناول وجبة طعام جيدة بأقل من شلن واحد . وكان بعض العمال خلال ذلك يقدم علينا ويتحدث إلى السكرتيرة والرفيقة «ليانج» فى حرية وعدم تكلف ، ولم يبد عليهم شىء من ذلك الخنوع السابق الذى كان من معالم طبقتهم : الجميع يلبسون زياً واحداً ، يضمهم مجتمع بلا طبقات ، متجرد كل التجرد من التقاليد . إنه نظام « البرولتاريا » الجديد فى الصين .

ومما يذكر عن « ماوتسى تونج » أنه قلما كان يلقى خطاباً دون أن يضمنه بضع كلمات من الثناء على العمال ، ويطلق عليهم اسم « طليعة قوات الثورة » وهو يفعل ذلك على ما أظن ليمدهم بروح الثقة بالنفس ، لأننا فى الحقيقة لو أمعنا النظر فى أمر الثورة الصينية لوجدنا فى الحال أن العمال لم يكونوا من قادتها ، بل إنهم لم يتبوأوا حتى مركز « المؤخرة » من قواتها .

ذلك أن الحزب الشيوعى الصينى تكون فى أوائل الحلقة الثالثة من القرن وكان يحتضنه الاتحاد السوفيتى فكانت قراراته الهامة تصدر من « موسكو » . وإذ كانت تعاليم « ماركس » و « لينين » تقول فى وضوح بأنه لا يصلح للقيام بأعباء الثورة إلا أفراد البرولتاريا المقيمون بالمدن ، فقد ركز الشيوعيون الصينيون جهودهم فى تنظيم صفوف العمال فى المدن الكبيرة . غير أنه سرعان ما تبين أن طبقة عمال الصين ، القليلة فى عديدها ، لم يتوافر لديها « الوعى السياسى » . وكانت أجورهم ضئيلة بدرجة مروعة ، وإن كانوا فى الجملة أحسن حالا من الزراع . فلم تصغ غالبيتهم للدعوة الشيوعية التى تدعوهم للكفاح الطائفى . وكان الشعب قد سئم الحرب الأهلية ، ويريد أن يعيش فى سلام .

عند ذلك لجأ « شيانج كاى شيك » إلى الوطنية الصينية الآخذة وقتئذ فى الاستيقاظ ، فكان ذلك هو السبب فى فوزه فى الشوط الأول من المعركة مع الشيوعيين . ولما أخذ الشيوعيون فى أواخر الحلقة الثالثة من القرن ، يثيرون الفتن فى عدة من المدن الكبرى ، قضى « شيانج » على حركتهم وفتك بهم فتكا ذريعاً ، وظلت الحال فترة من الوقت تدل على أنه لن تقوم للحركة الشيوعية فى الصين قائمة بعد ذلك .

وفى هذه اللحظة أخذ أحد زعماء الشيوعيين الصينيين يفكر فى الأمر على انفراد دون تقيد بآراء ما . هذا هو « ماوتسى تونج » : أهداه تفكيره إلى الشك فى ملاءمة الوسائل الروسية لحالة الصين ، وقال متسائلا فى نفسه : «أليس الأفضل التعويل فى ذلك على تنظيم صفوف الفلاحين ؟ إن عددهم هائل ، وهم ساخطون على حالتهم ، وأمامهم ما يكافحون من أجله .

وإذ كان فى هذه الآراء خروج صارخ على «الماركسية» ، فلم يكد « ماو » يشرع فى تنفيذها حتى أعلنت « موسكو » سخطها عليه . ولكنه مضى فى طريقه وظل العلم الأحمر فى الخمسة عشر عاماً التالية يخفق فى الأنحاء الريفية وحدها .

ولما شرعت قوات « شيانج » فى مطاردة الشيوعيين ، قام هؤلاء بزحفهم المشهور ، المسمى «الزحف الطويل» . ومع ما كان يتلقاه « شيانج » من المعونة من الدول الغربية ، فإنه لم يتمكن من تنفيذ ماظل يعدهم به من « سحق قطاع الطرق الحمر » على حد تعبيره . ولم يتلق الشيوعيون فى ذلك الوقت أية معونة من روسيا ، ومع ذلك ظلت قواتهم فى ازدياد ، إذ كان غذاء هذه القوة هو استيلاء المزارعين . وقد كان ذلك هو الدليل النهائى على صحة ما ارتآه « ماوتسى تونج » .

وفى خلال الحرب الطويلة التى دارت رحاها مع اليابان ، برهن الشيوعيون على صدق وطنيتهم ، وقاتلوا مستبسلين ضد العدو المشترك . غير أنه ما كادت

الهزيمة تحيق باليابان حتى عادت نار الحرب الأهلية إلى الاشتعال . فـكانت المدن فى يد « شيانج » فى حين كان « ماو » سيد الأنحاء الريفية . وقديظن الإنسان أنه كان فى نية « ماو » أن يعزو الفضل فى انتصاره النهائى إلى المزارعين ولـكنه ما كادت جيوشه تستولى على المدن حتى فاجأ العمال بتصريحه لهم بأنهم هم الذين كسبوا معركة الثورة ! وقد كان الـكثيرون منهم لايكادون يعرفون شيئاً عن قيام ثورة ما . أما المزارعون فإنه أحلهم الآن فى المرتبة الثانية فقط ، بحجة أنهم « لايعتمد عليهم من الوجهة السياسية » ، وأنه ينقصهم ما لدى العمال من التماسك وروح التضحية ، لأن كل مزارع مهما كان فقيراً لا يخرج عن كونه فى ذاته صاحب رأس مال .

وبعد قليل من توزيع الأراضى ، أخذ المزارعون يتصرفون فيها بالبيع والشراء ، مما تبين منه للشيوعيين أن الأمر سوف يؤدى إلى ظهور طبقة جديدة من الملاك . ولعل هذا هو السبب الذى دعا « ماوتسى تونج » منذ مالا يزيد كثيراً عن عام واحد إلى إصدار قرار بضم المزارع داخل نطاق جماعى ـ وهذا بالرغم مما كان « خروشوف » قد صرح به قبيل ذلك من أن المزارع الجماعية السيوفيتية لم تسفر عن نجاح . ومما هو جدير بالذكر أن خطاب « خروشوف » هذا لم ينشر فى الصين .

واليوم يقع أثقل الأعباء على المزارعين فنصيبهم من الأغذية أقل من نصيب أهل المدن ، ومبلغ كدهم فى العمل لايقل عن كدهم فى أى وقت مضى ، بل ربما زاد عن قبل فى بعض الحالات ، والأرض التى كان « ماو » قد وعدهم بها وتسلموها فعلا ، مكافأة لهم على معاونتهم له فى الثورة ، قد أخذت الآن منهم . ولعلمهم أن العمال يتمتعون بمستوى أرقى بكثير من مستوى معيشتهم ، ترى الـكثيرين منهم يهرعون إلى المدن سعياً وراء عمل يلتحقون به فى المصانع الجديدة .

ولكنهم لا يقبلون بها ، فيضطرون للعودة إلى الأرض ، حيث يعملون لإنتاج الثروة اللازمة لتصنيع البلاد . . .

وإذا قلت للشيوعيين الصينيين إن الكثيرين من مواطنيهم يخشون الإعراب فى صراحة عما يخالج نفوسهم ، أجابوك بأن هذا لا ينطبق على العمال على الأقل. طبعاً لا ، لأنهم ليس لديهم ما يشكون منه . إنهم قرة عين « ماوتسى تونج » .

فمن ذلك مثلا أن الرفيقة « ليانج » تتقاضى إثنى عشر جنيهاً فى الشهر ، أى حوالى ثلاثة أمثال مايحصل عليه المزارع . وهى تدفع مالا يزيد على ستة شلنات فى الشهر إيجاراً لشقة سكنها ذات الحجرة الواحدة . حقاً ، ليس لسكنها سوى نافذة واحدة صغيرة . وأرضية الأسمنت بها وجدرانها العارية كانت توحى إلى بمنظر قبو من أقبية المؤن ، ولكنه كان بالشقة جهاز تدفئة مركزية ، ومياه جارية ، بل إن مرحاضها مزود بجهاز طرد . أما زوجها ، البطل العمالى ، فإنه كان يتقاضى أربعة عشر جنيهاً فى الشهر .

وكانت لا تراه إلا مرة واحدة فى الأسبوع ، وإذ ذاك كان يأتى لتمضية الليل وحسب . فهو يعمل فى مصنع آخر ، ويوم الفراغ لكل منهما لا يتفق مع يوم الآخر ، ومع ذلك قالت لنا فى تفاؤل . « ربما تيسر لنا الحصول على أجازة صيفية فى العام القادم » . إن العمال الصينيين ليست لهم عطلات رسمية إلا فى اليوم الأول من أكتوبر ، الذى هو العيد السنوى للجمهورية الشعبية ، وفى يوم أول مايو ، وفى يوم رأس السنة الصينية .

والكثير من العمال المتزوجين يبقون معهم والديهم ، وإن كانت العلاقات فى الأسرة قد تغيرت تغيراً محسوساً عما كانت عليه فى الماضى ، وقت أن كان الشبان يعودون بأجورهم إلى المنزل ويسلمونها لوالديهم . أما الآن فإن الشيوخ ، إذا لم يكونوا ملتحقين بعمل ما ، يعهد إليهم بالعنايه بالأطفال ، ويتكفل أبناؤهم

جأ كلهم ومسكنهم ، مع قليل من النقود لمصروف جيبهم . وليس لهم أى نوع من الرياسة على الشباب .

وكان من عمال المصنع الذى قمنا بزيارته نحو سبعين فى المائة من الفتيات . وغير المتزوجات منهن يقمن معاً فى « عنابر » : ست منهن لكل حجرة . ولا تكاد الحجرة تتسع لغير أسرة النوم ، ولكن جدرانها مزينة بصور نجوم السينما .

ويبلغ عدد الذين يؤدون أعمالا إنتاجية بالمصنع خمسة وسبعين فى المائة من جملة مستخدمى المصنع . أما الباقون فيقومون بأعمال كتابية أو حسابية ، أو بأعمال الدعاية السياسية ، بل قد تبلغ نسبة المستخدمين الإداريين فى بعض المؤسسات الصناعية بالصين أكثر من ذلك . وقد وجدت فى كثير من المكاتب التى زرتها جموعاً من الناس ، هيىء لى أنهم جاءوا إليها ابتغاء تيسير مضى الوقت . ومن نحو عام مضى أعلن القادة الشيوعيون عزمهم على خفض هذا الجيش الجرار من المستخدمين ، غير أنهم لم يقوموا بذلك بعد . وليس ذلك من السهل فى بلد مثل الصين شملت فيه المركزية كل شىء .

وجميع عمال المصنع تابعون لنقابة واحدة . قلت : « وهل فى يد هذه النقابة شىء يذكر من السلطة ؟ » فأجابت الرفيقة « ليانج » والسكرتيرة معاً : « بالتأكيد » ولكننى عندما توسعت معها فى الأسئلة اتضح أن حقوق العمال لا تكاد تتجاوز ما نصت عليه المادة الرابعة من قانون نقابات العمال . أما الواجب الأول والأهم فى نظر النقابة فهو « تربية » جموع العمال والمستخدمين وتنظيم صفوفهم كى يكونوا سنداً لقوانين حكومة الشعب ورغباتها ، مع السهر على تنفيذ سياسة هذه الحكومة ، ضماناً لتماسك قوة دولة الشعب .

وفى فترة الانتقال ، وقبل أن تقوم الدولة بتأميم الصناعات والأعمال التجارية ، كان العمال يشجعون على الإضراب . قالت السكرتيرة : « أما الآن

فليس مما يخطر على البال إطلاقاً أن يفكر العمال فى الإضراب » ، لأننا كما لا يخفى نحظى فى الصين بحكومة شعبية — ولن يرغب العمال فى الإضراب نكاية فى أنفسهم .

وكانت الرفيقة « ليانج » عضواً فى لجنة النقابة الإدارية،وقد أخذت تحدثنا عن أوجه النشاط الاجتماعى التى تباشرها النقابة . فقالت إن للنقابة مراكز لترويض المرضى من العمال ، كما أنها تقيم كل أسبوع حفلة ساهرة ، تشمل المراقصة . ثم إنها تدير مدارس ليلية يحضرها غير المتعلمين من العمال ، ويؤدون فى نهاية الدراسة بها امتحاناً يعادل امتحان إتمام الدراسة الثانوية . كذلك تعقد النقابة اجتماعات يومية يوضح فيها سياسات الحكومة . وهذا فضلا عما تقدمه النقابة من المعونة لأرباب الأسر الكثيرة الأفراد ممن لا يكاد دخلهم يفى بسد نفقات معيشتهم .

وواصلت الرفيقة « ليانج » حديثها فقالت : « إن النقابة شرعت منذ بضعة أسابيع فى شن حملة لتحديد النسل » فنظرنا إليها أنا و « شى يان » فى دهشة . كذلك انزعجت السكرتيرة واحتجت على هذا التصريح . إن لقادة الصين الجديدة حساسية شديدة جداً من جانب مسألة تحديد النسل ، وكانوا إلى عهد غير بعيد يستنكرونها أشد الاستنكار ويقولون إنها « عبث رأسمالى » و « وسيلة خبيثة لقتل الأنفس دون إراقة دماء » :

وقد مضت السنون الطوال والشيوعيون الصينيون باقون على رأيهم بأن تحديد النسل أمر لا داعى له . فهم يقولون إن الصين ليست من البلاد الغاصة بالسكان بنسبة تزيد عن طاقتها ، وإنما المسألة هى نقص الإنتاج عما يجب وأما أن مستوى المعيشة منخفض فى جميع البلدان الآسيوية الكثيفة السكان فيعزوه الشيوعيون إلى استغلال الأغنياء فيها للفقراء . فإن توزيع الثروة فيها غير عادل وهذا أمر لا يمكن إنكاره .

على أن الرفيقة « ليانج » واصلت كلامها فقالت إنه على الرغم من أن توزيع الثروة فى الصين قد صار الآن أكثر عدالة من قبل . فإنه مازال فى الأمر مشكلة لم يتم حلها . فإن نسبة الوفيات قبل التحرير فى بعض مدن الصين كانت مائة وسبعة عشر فى الألف ، فنزلت منذ ذلك الوقت إلى أربعة وأربعين فى الألف . وقد عمل إحصاء فى أحد المصانع شمل سبعة آلاف عاملة ، فدل على أن ألفاً وتسعمائة منهن حملن فى عام واحد . وإذ كانت كل عاملة تمنح عند الوضع أجازة بمرتب كامل قدرها ستة وخمسون يوماً ، فما أكثر ما يضيع على البلاد من طاقة الأيدى العاملة بها .

ومما يلاحظ أن مستوى معيشة العمال لم يتحسن كثيراً بالرغم من ارتفاع متوسط دخلهم الشهرى من ثمانية جنيهات وخمسة شلنات قبل التحرير إلى عشرة جنيهات وستة عشر شلناً فى الوقت الحاضر . ويرجع العامل الأكبر فى ذلك إلى كثرة الأطفال بالأسرة . ففى كل عام يزيد عدد الصينيين عما كان فى سابقه خمسة عشر مليوناً ، فى حين أنه بالرغم من كل ماتم من التقدم فى عهد الشيوعيين لا يكاد تحسن الإنتاج يتمشى مع سرعة النمو فى عدد السكان .

وقد سألت ، السكرتيرة عن سبب اعتراضها على ذكر الرفيقة « ليانج » لعبارة « تحديد النسل » ، فأجابت بأنها طريقة غير سليمة للتعبير عن الموضوع .

ثم قالت : « لقد ارتفع المستوى الثقافى للعمال بقيادة الشيوعيين ، فأصبحوا يدركون مزايا تفادى زيادة عدد أفراد الأسرة عن الحد الملائم . وقد طلب الأهلون إلى قادتهم أن يقوموا بمعاونتهم فى هذا الشأن ، وإذا كانت الآن رغبة الشعب هى التى تملى إرادة الحكومة ، فقد شرعت الحكومة فى القيام بحملة لتعليم الأمهات الخطة الصحيحة فى تنظيم أوقات إنجاب الأطفال .

وقد أخبرتنا الرفيقة « ليانج » عن طريقة صينية قديمة لمنع الحمل ، وهى أن

تبتلع السيدة نحو أربعة وعشرين فرخاً حياً من فراخ الضفدع ، ولا شيء غير ذلك . وقد سمعت بأنها كانت طريقة ناجعة تماماً ، غير أنها ، على حد علمها ، تـكاد تـكون قد انقرضت الآن :

ثم أضافت : « وليست نقابات العمال وحدها هي التي تقوم بتحديد .. » ثم قطعت كلامها فجأة في الوقت الملائم تفادياً لذكر الألفاظ المحرمة ، وعادت فقالت « ليست النقابات وحدها هي التي تقوم بتعليم الأمهات تنظيم الأوقات لإنجاب الأطفال ، بل إن جمعيات المزارعين أيضاً قد شرعت في مثل هذه الحركة في الأقاليم ، وهي لذلك تعرض على الناس أفلاماً توضح مزايا التنظيم في إنجاب الأطفال ، كما أنها قامت لهذا الغرض بتوزيع الملايين من النشرات التي تحوى صوراً قوية معبرة في الموضوع » :

قلت : « وهل كان لذلك تأثير ما ؟ »

فقالت : لم يحن الوقت لمعرفة النتيجة . ثم أضافت إن النقابة : تعرض الآن على العاملات دراسة خاصة لتنظيم إنجاب الأطفال ، وقد التحق بها نحو ربع المتزوجات منهن .

فعلقت ، على ذلك بقولي : « إن هذا ليس بالـكثير » :

فقالت : « بلى ، إنه ليس بالـكثير ، ولـكن الرغبة في إنجاب الـكثير من الأطفال قوية متأصلة في الصين » . فقد كان بقاء الأطفال على قيد الحياة في الأيام السالفة أمراً محوطاً بالـكثير من الشكوك : فـكان الرجل الذي ينجب عدداً كبيراً من الأطفال يزداد أمله في أن يعيش واحد منهم ، حتى يشق طريقه في الحياة فيتسنى له بذلك أن يعول والديه عندما يبلغان الـكبر : وليس من السهل الآن انتزاع هذا الشعور من الناس ..

وقبل أن نهم بالعودة سألت الرفيقة « ليانج » عما إذا كانت قد التحقت بالدراسة الجديدة لتنظيم إنجاب الأطفال: فقالت: « لا ، لم أفعل بعد : إن زوجي يريد أن يـكون لنا غلامان على الأقل قبل أن نفـكر في هذا الأمر :

الفصل التاسع

الحصان العجوز

كان اسمه الحقيقى « ماو ينتيه » ، ولكن ربما لم يكن بالقرية أحد يعرف ذلك ، فكان الجميع يسمونه « لا وما » — أى « الحصان العجوز » . وهو اسم كان ينطبق كل الانطباق على المسمى ، إذ كان وجهه الطويل ، البارز العظام ، يذكر الإنسان بأمهار الصين الشمالية المجدولة الجسم .

ومما قيل عنه إن الآلهة سمحت ببقائه طوال هذه السنين لكى يقوم بإضحاكهم. لقد مرت به فى حياته أوقات عصيبة ، لكن مرارتها لم تنفذ إلى قلبه وتضن حياته بل كانت تمر مر الكرام أمام مرحه الذى لا يغلبه غالب. ومع أنه جاوز السبعين من عمره ، فإنه بقى سالماً مرحاً لا يألوا جهداً فى منازلة الشباب فى مضمارهم .

وكان إذا غزل خيوطاً ، لا يدانيه أحد فى جودة غزله وحتى محترفو القصص الجوالون الذين كانوا يفدون على القرية كان قصصهم يتضاءل مهارته ، لولا أنهم كانوا يضفون على فنهم شيئاً من الرونق بالدق على الطبل . وكان إذا توقف فترة خلال قصه ليملأ بالدخان غليونه القصبى الطويل، أخذ المستمعون يطوحون أيديهم ضيقاً بانتظار . وكان فى استطاعته محاكاة كل صوت يمكن تخيله ، من الصويحات العجيبة المعزوة إلى الأرواح ، إلى هدير النهر ، الذى يعظم أحياناً حتى يبلغ شدة الرعد .

والنهر ، فى الكثير من قصصه ، هو عامل الشر . فمن ذلك أنه فى الليلة التى ولد فيها ارتفعت مياه النهر حتى صارت تلتطم بسرير أمه . وقد لاذ الناس جميعاً بالفرار ماعدا زوجها ، فقد بقى إلى جانبها ، وظل يرقب المياه وهى ترتفع رويداً رويداً على طول جدار السرير — وهو كسائر أسرة المزارعين عبارة عن منصة

بنيت من الطوب ، ويسمى « الـكانج » . ولـكن ما أن سمع له أول صباح فى هذا العالم حتى أخذت المياه تنحسر — على حد ما قيل .

وكان أحب أحاديثه إليه ما كان منها خاصاً بالأيام الغابرة . ولعل ذلك لأنه فى مثل هذه الأحاديث كان يطلق العنان لخياله ، إذ لم يـكن فى وسع ذاكرة أحد غيره فى القرية أن تعى شيئاً كثيراً عن أيام أباطرة أسرة « مانشو » . أو لعل السبب أن الشباب والطفولة يقتربان دائماً فى نظرنا ، أحدهما من الآخر ، كلما طال بعد عهدهما عنا .

ففى عهد « عرش التنين » كان يفد على الناحية جمع من ممثلى الإمبراطور « لتهذيب النهر » . وقد كانوا من العلماء الذين درسوا الـكتب واطلعوا على مافى بطونها من أنباء الشرور التى ألحقها النهر بالأجيال السالفة . فـكانوا يعبئون لذلك الجيوش من الفلاحين من الأنحاء التى يمر بها النهر . فيمضى هؤلاء فى نقل الأكداس الهائلة من الأتربة والحجارة بمقاطفهم الصغيرة حتى تتـكون منها جسور تحبس مياه النهر عن الطغيان .

وفى تلك الأيام كان يمضى على النهر خمس سنوات أو ست ، بل سبع سنوات أحياناً ، دون أن يأتى بفيضانه الغاشم . وكأنه كان فى هذه المدة يجمع قواه ، فـكان يرفع مستواه بنفسه فى بطء شديد ، بتجمع رواسبه قيراطاً فوق قيراط ، حتى إذا بلغ الأمر غايته ، تفجرت من جسوره مياه الفيضان طاغية كاسحة ، انتقاماً لحبسه طوال هذه المدة . وقد حدث فى أيام طفولة « لاوما » أن فر الناس ثلاث مرات من هوله ولاذوا بالجبال على مسافة نصف يوم جنوبى ناحيتهم .

وفى ختام حديثه عن حوادث الفرار من أهوال الفيضان قال إن الناس كانوا يلقون دائماً على إثر النـكبات شيئاً واحداً يعوضهم مما عانوه : ذلك أنه بقدر ما كان من علو الفيضان ، يعلو سمك طبقة الطمى الخصبة التى يتركها على

سطح الحقول ، فيكون المحصول التالى دائماً وفيراً فياضاً ، كأنه استمد غذاء من ويلات الناس .

كذلك كان رجال الحكومة فى تلك الأيام يأتون مرة كل عام للاستيلاء على جانب من المحصول . على أنه من جهة أخرى إذا كانت الحال تنذر بمجىء القحط فى إثر الفيضان ، بادرت الحكومة بفتح أهرائها لإغاثة الناس. غير أنه فى السنين الأخيرة من حكم أسرة « مانشو » كانت أهراء الحكومة فى الغالب خاوية . فإن الفساد كان قد فشا بين الموظفين ، وأهملت أعمال العناية بالجسور لعدم توافر ما ينفق عليها . وأخذت الإشاعات ترد من الجهات الجنوبية بأن جهوداً تبذل لخلع هذه الأسرة .

وكان بالقرية فى ذلك الوقت أسرتان ثريتان : آل «وانج » وآل « ياو » وكانت كلتا الأسرتين من كبار ملاك الأراضى ، وكانت أسطح المبانى فى مزارعهما مغطاة بالقراميد بدلا من القش كما هو المألوف . وكان أهل القرية إذا انتابتهم شدة ، أو كان عندهم فرح أو مأتم ، يهرعون إليهم لاقتراض المال وقد كان المرء يبقى مديناً لهم بقية حياته بسبب قرض اقترضه لدفن أبيه أو أمه أو تزويج ابنته . كذلك كان الناس يقصدون آل « وانج » من أجل استئجار ذلك الهودج الصغير الأحمر الرائع المنظر الذى كانت تنقل فيه العروس إلى بيت العريس . وكانت العروس تنزل من الهودج وعلى وجهها وشاح حريرى أحمر — ويختار له اللون الأحمر للدلالة على السعادة — فلا يرى زوجها وجهها إلا عندما يشربان من كأس واحدة أمام محراب السلف، وإذ ذاك يصبحان زوجين شرعيين .

ولم تكن أسرة « لا وما » على مثل ماهو فيه الآن من الفقر ،فإنها كانت تملك رقعة من الأرض يبلغ طولها مائتى خطوة وكذلك عرضها . وكانت الأرض فى تلك الناحية على جانب عظيم من الخصوبة ، حتى لقد كانت تنتج فى العام محصولين من الغلال أو ثلاثة محاصيل من الخضر . وكانت عضلات ساقى « لا وما »

يابسة كالحجر ، إذا كان يدير بهما آلة الرى التى ترفع المياه من النهر إلى الحقول فى أوقات الجفاف . وكان المزارعون يعمدون فى أواخر الخريف إلى طمر الخضر. ذلك بأن تغطى الخضر أولا بطبقة من أوراق الخضر ، ثم تليها طبقة من تراب الحقول بسمك نصف قامة ، وبهذه الطريقة كانت تحفظ الخضر غضة مصونة من الصقيع طوال فصل الشتاء .

وكان اللاوما أخوان ، فلما مات والده قسمت الأرض بين ثلاثتهم . وقد تزوج كل منهم وأنجب أطفالا ، ولم يمض طويلا وقت حتى كثر لديهم عدد الأنفس التى تطلب القوت ، فلم يكد دخلهم من الأرض يفى بحاجات معيشتهم حتى فى السنوات الوفيرة المحصول . وعندما يطغى الفيضان ويقضى على المحصول كان يتعذر العيش بلاعون حتى يأتى المحصول التالى ، ومن هنا قامت الضرورة التى دفعت « لاوما » وأخويه أيضاً ، إلى اقتراض المال من أسرتى « وانج » و « ياو » . وكان من شأن هذه الاستدانة أنه إذا لم يكن المدين على حذر ، تضاعف دينه من تلقاء نفسه ؛ فقد كان من الصعب جداً تدبير ما يكفى لسد فوائد الدين السنوية ، أما الدين نفسه فكان فى حكم المستحيل دفع شىء من أصل قيمته .

وفى أواخر عهد أسرة « مانشوا » كان رجال الحكومة يستولون على جانب كبير جداً من محاصيل الغلال ، فلم يبق للمزارعين ما يكاد يفى بحاجة أسرهم . وقد كان يتسنى لأهل القرية الحصول على قليل من النقد ببيع الخضر فى أقرب المدن إليهم ، ولكن ذلك لا يكاد يأتى حتى يذهب ، فما أكثر الأشياء التى كانوا مضطرين لشرائها : من ملح ، وأقمشة لصنع الأحذية والملابس وزيت للاضاءة ، وقليل من الدخان إذا سمحت الحال بذلك :

وكثيراً ما كانت كل أسرة تقوم بتربية خنزير واحد ، كان يقتات بفضلات المنزل وما يعثر عليه من المخلفات فى الحقول ، وعندما كان يحل وقت نقله للسوق

لبيعه ، كانت ترى لذلك حركة وجلبة فى الأسرة ، وكان « لاوما » بعد مجاوزه سن الطفولة ، يعاون الأسرة فى حمل الخنزير وهو يملأ الجو بصراخه ، إذ كان الخنزير يشد من أرجله إلى عود غليظ يحمل من طرفيه ، إذ لم يكن يسمح بذهابه إلى السوق مشياً على أرجله مخافة أن ينقص وزنه فى الطريق .

أما المزارعون أنفسهم فلم تكن حالتهم المالية تسمح بأكل اللحم ، فلم يذوقوه إلا فى الأفراح والمآتم ، أو فى موسم عيد رأس السنة ، وكان فى تلك الأيام يمتد مدة أسبوعين . أما فى باقى أيام السنة فكانوا لا يكادون يأكلون شيئاً غير خبز الذرة الصفراء ، يستعينون على ابتلاعها بحساء الكرنب ، وكانوا أيضاً يصنعون « الدوفو » ، وهو يتخذ من مسحوق فول « الصويا » ويجعل على شكل الجبنة : وهو عظيم التغذية إلا أنه تافه الطعم إلا إذا كان مقلياً ، وهيهات ذلك إذ فلما كانت حالة المزارعين تسمح بالحصول على زيت الطبخ :

وفى ذات يوم قدم إلى القرية بعض الشبان ودعوا الأهلين إلى الاجتماع . وقد قالوا إنهم من الطلبة ، ولكن الناس استعصى عليهم تصديقهم فى أول الأمر ، إذ كانوا جميعاً يحملون أسلحة نارية . ومضى القوم يتساءلون فيما بينهم : أى صنف من الطلبة يمكن أن ينتمى إليه هؤلاء الذين زجّوا بأنفسهم فى أمور الجندية ؟ إن المثل يقول إن الحديد الجيد لا تُصنع منه المسامير ، والرجال ذو المعدن الجيد لا يعملون جنوداً .

وعندما كان « لا وما » يقص علينا أنباء ما جرى فى ذلك اليوم ، كان لا يفتأ يضع يده على قفاه ويبتسم ابتسامة المترقب للنتائج ، فقال إن أولئك الشبان أخبرونا بأن أسرة « ما نشو » قد خُلعت ، وإذا كانت هذه الأسرة هى التى فرضت على الصينيين إرسال شعورهم فى ضفائر ، فقد بادر هؤلاء الشبان إلى قص ضفائرهم ، وصرحوا بأن الواجب على جميع أبناء الصين الأوفياء أن يقوموا بذلك مادام الصينيون قد نالوا حريتهم .

وكان « لاوما » فى مقدمة من قصّوا ضفائرهم . حقاً إنه شعر بشىء من الأسف لفقد ضفيرته ، التى كانت بمثابة جزء من شخصيته ، ولـكن ماذا كان فى وسعه أن يصنع ، وهؤلاء الشبان هم ، مهما كان من أمر ، طلبة يعرفون ماذا يجب .

ومما قاله الشبان أيضاً إنه يجب الإقلاع عن تقييد أقدام صـغار البنات ، ولـكن الـكثير من الأسر لزمت عاداتها فى هذا الشأن ، إذ كيف كان الوالد يمنّى نفسه بتزويج ابنته إذا كانت قدماها كأقدام الرجال ؟ ولم تنقرض هذه العادة من البلاد إلا بعد أكثر من عشرين عاماً .

على أنه بعد أن غادر الشـبان القرية عاد المزارعون إلى أعمالهم فى حرث الأرض . ثم أخذوا يتساءلون : حرية ! أى شىء هذا ؟

فقال « لاوما » وهو يبتسم ابتسامة ساخرة : « إن الحرية معناها الجند ــ الجنـــــد الذين ينهبون البلاد ويلحقون بها الدمار مادام لم يعدْ هناك إمبراطور يصدهم . ومعناها كبار القواد الذين يقاتلون بعضهم بعضاً لاقتسام البلاد فيما بينهم. وقد حصل فعلا أن صار المزارعون ينتزعون من أعمالهم انتزاعاً ليعملوا فى صفوف القواد . وكان من حسن حظ « لاوما » أن تسنى له الفرار من كل ذلك . ففى كل مرة كانت تأتى فيها القوات المسلحة لجمع المجندين كان هو يتمكن من الفرار من كوخه . وفى ذات مرة اختبأ فى اصطبل أسرة « ياو » ، وقد ذهب إلى هنالك أحد الجند للبحث عنه ، ولـكنه لم يره .

وفى ذلك يقول « لاوما » : « إن مشابهة الإنسان للحصان لها مزاياها » . وكان دائماً يختم هذه القصة بهذا القول ، فـكان السامعون يحيونه دائماً بمقـابلة هذه الملحوظة بعاصفة من الضحك .

ومضى القواد ، كل يجمع الغلال لغذاء جنوده . ففرضوا الضرائب على الأرض وعلى المنازل ـــ بل على الأبواب والنوافذ . وإذا حدث أن أحداً لم يقدر

على دفع المقرر عليه ، بالغلال أو بالفضة ، كان يضطر إلى بيع بناته ، وقد يضطر فى أسوأ الحالات إلى بيع أرضه : إن الأرض فى نظر القوم هى ملك الأسرة ، انتقلت إليها من الأجيال السالفة ، وهى توصلها إلى الأجيال القادمة ، فيكون بيعها تدنيساً للأشياء المقدسة .

وكانت أسرتا « وانج » و « ياو » خلال تلك السنين ماضيتين فى الإكثار من أراضيها ، وقد تمسكن « لاوما » بشق النفس من الاحتفاظ برقعة أرضه الصغيرة وبما قاله فى ذلك : « ليت المعدة تستطيع استساغة المرارة ، فلقد عشت على المرارة السنين الطوال » .

ولما كان لم يعد هناك من يسهر على إصلاح الجسور ، صار النهر يطغى بفيضانه كل عامين أو ثلاثة ، وعندما يتلف المحصول كان « لاوما » يخرج إلى المدينة للعمل فى سحب العربات الصغيرة التى يجرها الآدميون . وكان ، بفضل قوة ساقيه ، يصمد فى الجرى ساعات طويلة فى الشوط الواحد . على أنه عند عودته إلى بيته بعد غيبة شهر فى المدينة ، يكون قد نزل إلى درجة من النحافة تجعل زوجته تدير وجهها لتخفى عنه ما تسكبه عيناها من الدموع .

وكان قد مات له ثلاثة من أبنائه وهم لا يزالون فى سن الطفولة ، ثم فقد اثنين آخرين فى أيام وباء « السكولرا » الأكبر . ولكن « لاوما » لم يجأر بالشكوى من ذلك ، إذ كان لا يزال له اثنان على قيد الحياة ، وأحدهما غلام . ولم يكن هذا الغلام يشبه أباه فى منظره ، بل كان مثل أمه ذا وجه مستدير رقيق وطبع هادىء .

و بعد عامين من تفشى وباء « السكولرا » اجتاح البلاد سيل عارم من الجراد : ظهرت أسرابه فى أول الأمر فى السماء على شكل سحب هائلة سوداء ، وكان هبوطه على الأرض كأنه السحر بعينه ، فإنه لم يكد يسمع له صوت إلا بعد بدئه فى أكل المحصول ، و إذ ذاك كان صوت أكله يسمع من مسافات بعيدة . وكان المحصول وقتئذ على وشك النضج . وقد أخذ الزراع فى أول الأمر يكافحون

هذه الحشرات الجائمة بضربها بالعصى ووطئها بالأقدام ، ولـكن ذلك لم يكن سوى محاولة منهم لمـكافحة الطبيعة نفسها .

قال « لاوما » : « وإذا أعيتنا الحيل فى أمر الجراد أكلناه . لقد التهم غذاءنا فقمنا نحن بالتهامه » .

ثم تلا هذا العام عام القحط الأكبر . وقد كان هذا هو الوقت الذى لقى فيه « لاوما » الضربة النهائية التى نزلت به إلى الحضيض . فى ذلك القحط كان كلا محصولى الأرض من الغلال يذبلان قبل النضج ، كما كانت الخضر فى نموها لا تعلو فوق سطح الأرض بأكثر من قيراطين،فأخذ الزراع من جوعهم يهرعون إلى المدن . وهنالك كان يضارب بعضهم بعضاً فى قبول العمل بأبخس الأجور . فـكان الرجل الذى يعمل فى جر المركبات الصغيرة لا يتقاضى عن عمله سوى أجر تافه لا يـكاد يقوم بأوده وحده .

وقد استعصى الابتسام على « لاوما » وهو يحدثنا عن ذلك اليوم الذى ذهب فيه إلى آل « ياو » وباع لهم أرضه : وكانت مفاوضته فى ذلك مع أكبر الإخوة « ياو » الذين كانوا قد استولوا من فورهم على مزرعة الأسرة على إثر وفاة كبيرها . وكان « لاوما »وهو يحدثنا لا يزال يذكر كيف أن فنجان الشاى الذى قدمه إليه « ياو » وقتئذ قد أحدثله دواراً فى رأسه إذ كان قد مضى عليه يومان لم يذق فيهما طعاماً . وكان المنظور فى مثل هذه الحالة التى يئن فيها الرجل من الضيق أن يستغل الطرف الآخر ظروفه فيعقد معه صفقة رابحة .لـكن الشاب « ياو » لم يكن من هذا القبيل ، فاشترى منه الأرض بثمن معتدل : فاستطاع « لاوما » أن « أن يسدد ديونه ، وبقى معه بعد ذلك ما يكفى لصد غائلات الأحداث عن بيته حتى يحل موعد المحصول القادم .

ولما كان قد أصبح لا يملك شيئاً — حتى ولا الأرض التى تحت قدميه — فإنه عند حل وقت الزراعة التالية عمل مزارعاً عند «ياو» على نظام المشاركة ، بأن

يأخذ « ياو » خمسي المحصول . وقد كان ذلك أتعس موسم حرث شهده «لاوما» إلى ذلك الحين ، إذ باشر فيه العمل بمحراث مستعار من غيره وثور مستأجر .

فلما استولى « شيانج كاى شيك » على الحكم تحسنت أحوال القرويين بعض الشيء ؛ كما تبين من قصر جمع الضرائب على محصل واحد . غير أن جسور النهر بقيت على حالها من الإهمال ؛ بل قد كفت يد الإنسان عن محاولة التحكم في النهر ، فصار الفيضان يغدو ويروح كما يشاء ، ومن المزارعين من كادوا يمتنعون عن تكبد مشقة إصلاح بيوتهم عقب الفيضان ، فكانوا يقولون : وما الفائدة من ذلك ؟ إن النهر سوف يعود إلى الفيضان لا محالة ، لقد شهدنا منه ذلك دائماً .

وفي الدور الأول من الغزو الياباني ، كادت القرية تتحول إلى ميدان قتال ، وظلت يومين كاملين تسمع قصف المدافع الضخمه كأنه الرعد في شدته ، ثم انسحبت جنود « شيانج كاى شيك » بعد أن دمرت الجسر الأكبر . فانهالت المياه المنهمرة وصدت تقدم اليابانيين فترة من الوقت ، ولكن محصول الربيع ، الذي كان في ذلك العام يبشر بوفرة عظيمة ، عطن في مكانه بالحقول ، وغرق من الناس مالا يكاد يحصى عديدهم .

وكان اليابانيون قساة في تسيطرهم ، فإذا ضج الناس أمامهم بالعويل بأنهم لا يستطيعون التخلي عن أكثر مما قدموه من الغلال لاحتياجهم في الشتاء إلى ماتبقى ، كان نصيبهم من الغزاة الركل بالأحذية أو الطعن بحراب البنادق .

قال « لاوما » وهو يغمز بعينه ولكن أصحابنا اليابانيين ، ذوى القامات القصيرة ، كانوا يخدعون في يسر لا يتأتى مع موظفي بلادنا ، إذ كانوا لا يعرفون مواضع مخابئنا » .

وقد قضى الناس شتاءين شح فيهما الوقود لدرجة أن « لاوما » وأسرته لم يجدوا مايوقدون به النار تحت الفرن الكبير الذي كانوا ينامون عليه «الكانج»

فكانت أجسامهم تكاد تتجمد من شدة برودة طوب الفرن . كذلك كانوا قلما يأكلون أكثر من وجبة واحدة في اليوم ، وحتى هذه لم يكونوا يأكلون فيها مايشبعهم . وقد كان لهم بعض العزاء في ما كانوا يسمعون به من أن الناس على الجانب الآخر من النهر كانوا أسوأ منهم حالا ، فكانوا يضطرون من شدة البؤس إلى أكل لحم الموتى .

وكان الناس جميعاً يتوقون إلى اليوم الذى يمنى فيه اليابانيون بالهزيمة ، غير أنه لما أتى ذلك اليوم بالفعل لم تتحسن فيه أحوال معيشة المزارعين فى شيء . وقد بادر « وانج » الثرى إلى التحالف مع جامعى الضرائب المعينين من قبل « شيانج كاى شيك » والذين لم يتورعوا عن الجشع فى أعقاب السنين الهزيلة المحصول التى شهدتها الأنحاء الداخلية من البلاد . وكان « وانج » يعرف الأماكن التى كان المزارعون يخبئون فيها الغلال التى يقتاتون بها خلال فصل الشتاء ، فوشى بهم لموظفى الضرائب ، فصادروها وجلدوا أصحابها .

ثم أخذت قيمة النقد تنخفض يوماً بعد يوم : قال « لاوما » : « وقد كان فى ذلك مزية واحدة لرجل فقير مثلى » ، فإنه اغتنم تلك الفرصة وسدد ديناً صغيراً كان مديناً به لأسرة « ياو » ، غير أنه عندما أراد غيره من الزراع أن يسددوا ما يدانيهم به « وانج » بعملة الورق التى كادت تكون وقتئذ عديمة القيمة ، أبى أن يقبل منهم شيئاً غير الفضة .

وفى ذات يوم ظهر فى القرية عضو من أسرة « ياو » يدعى « تاى شينج » ومعناه « النتائج العظمى » ، وهو اسم لم يحقق المسمى به لوالديه ما كانا يؤملان فيه من آمال كاذبة . ذلك أنه منذ سنوات عدة طرد « تاى شينج » من بيت الأسرة ، وسرت الإشاعات وقتئذ بأنه لم يرع الأمانة فى الشئون المالية ، وإن كان أحد لم يعرف السبب باليقين ، إذ كانت مثل هذه الأمور تحفظ سراً داخل الأسرة .

وقد مر « تاى شينج » منذ رحيله بتجارب كثيرة : فقد عمل فى أول الأمر جندياً ثم ضابطاً صغيراً فى جيش « شيانج كاى شيك » ، وإذ ذاك أسره الشيوعيون فبقى معهم الأربع السنوات الأخيرة .

قال القرويون وهم يستمعون لقصته : « الشيوعيون ! من هم هؤلاء ؟ ». إن القرويين لم يسبق لهم أن سمعوا بغير « قطاع الطريق الحمر » ، الذين كانوا يغتصبون النساء ويقتلون كل من كان يملك شيئاً : وها هوذا « تاى شينج » يخبرهم الآن بأن الشيوعيين هم أصدقاء الفقراء ، وأنهم « يأخذون الأرض من الأغنياء ويوزعونها على من لا أرض لهم » .

ثم نظر فى بغض إلى البيت الذى أغلق بابه فى وجهه وقال : « إنهم عما قريب سيؤدون الحساب عما قدمت أيديهم من أعمال السوء . إنه لن يمضى طويل وقت حتى يصل الشيوعيون ، فإن الجيش الأحمر فى طريقه إلى هنا » .

وظل القرويون فى الأيام التالية يرددون فيما بينهم تلك العبارة التى فاه بها : « إنهم يأخذون الأرض من الأغنياء ويوزعونها على من لا أرض لهم » .. إنه كلام أحلى من أن تصدقه العقول . فلم يقم أحد قط بعمل شىء من أجل الفقراء ، فلماذا يشذ الشيوعيون عن ذلك ؟

وحدث أن مر بالقرية بعض جنود « شيانج كاى شيك » فى طريق تقهقرهم إلى الجنوب ، فكان آخر ما فعلوه أن أخذوا ينتقلون من بيت إلى بيت لجمع كل ماله قيمة . فلم يحظوا إلا باليسير التافه — بعض حزم من الملابس البالية ، ومعطف قديم من الفراء ، وبضعة أمشاط شعر فضية : وقد وضعوا كل ذلك فوق عربة نقل وانصرفوا .

فلما غاب آخر جندى منهم عن الأبصار صاح أحد المزارعين : فليحل بهم عقاب السماء ! » ثم انفجر سائر القرويين فى الإعراب عن سخطهم بعد كل ما كبتوه فى صدورهم من الشعور بالمرارة ، فأخذوا يتنافسون فى صب اللعنات

على سلف الجند وخلفهم، وقد تفوق « لاوما » عليهم جميعاً فى سهولة، ثم عادوا بعد ذلك إلى أكواخهم الباردة وما فيها من خزانات طعام خاوية.

و بعد ثلاثة أيام من ذلك ظهرت أول دفعة من الشيوعيين. كانوا جماعة من الجند جاءوا ليقضوا ليلتهم ثم يواصلوا سيرهم جنوباً لمطاردة قوات « شيانج كاى شيك »، وقد كان الجند على جانب كبير من الأدب حتى كاد المزارعون لا يصدقون أعينهم. وقد قضوا ليلتهم، بعد الاستئذان، فى بيوت المزرعة، فلم يسرقوا شيئاً — لا لأنه لم يبق بها ما يستحق السرقة، بل إنهم دفعوا ثمن ذلك الشيء اليسير من الطعام الذى استطاع المزارعون متعاونين إعداده لهم. وقبل أن يرحلوا عن القرية فى الصباح ألقى قائدهم كلمة شكر فيها المزارعين على كرم ضيافتهم.

و بعد مضى بضعة أسابيع حل موسم الزراعة. فشرع « لاوما » مع ابنه فى حرث نفس الأرض التى كانت يوماً ما ملكاً لهم، والتى كانوا قد داوموا على استئجارها كل عام من أسرة « ياو »، غير أنهم لم يجدوا فى هذا العام ثوراً يستأجرونه لحرثها. لذلك اضطر الوالد وابنه إلى جر المحراث بنفسيهما، ولزمت زوجة ابنه مؤخرة المحراث لتوجيه سيره. وقد كان عرقهم يتصبب على الأرض من مشقة العمل، فكانوا يتوقفون كل نصف ساعة أو نحو ذلك للاستراحة.

وفى صباح ذات يوم حضر إلى القرية ثلاثة شبان، وقد كان فى منظرهم فى أول الأمر ما أعاد إلى ذاكرة « لاوما » صورة أولئك الطلبة الذين اضطروه منذ سنوات كثيرة إلى قص ضفيرته، إذ كان القادمون الجدد أيضاً يحملون الأسلحة، وكانوا يستعملون عبارات لم يفهمها المزارعون: من ذلك مخاطبتهم كل إنسان بعبارة « تانج شيه » (الرفيق)، وطلبوا إلى المزارعين أن يخاطبوهم هم بمثل ذلك.

إذن لقد كان « تاى شينج » بلا شك صادقاً فى أقواله، لأن هؤلاء الشبان الشيوعيين الثلاثة قد أبدوا اهتماماً كبيراً بالفقراء. فإنهم جمعوا كل المزارعين

الذين لا أرض لهم والذين لايملكون من الأرض إلا قدراً ضئيلا . وكان من بين هذا الفريق الأخير رجل يملك رقعة لا يزيد مسطحها عن عشر ياردات فى ثمان . وقد كان « لاوما » أيضاً بين أفراد هذا الجمع ، وقام بالإجابة على عدد لا يحصى من الأسئلة . وقد كان سائر المزارعين لا يحسنون التعبير عما يريدونه ، واختاروا « لاوما » للتكلم بلسانهم .

وكان نظر القوم لايتحول عن شيء لامع أخرجه أحد الشبان من جيبه . قد كان هذا قلماً مزوداً بذاته بما يلزمه من الحبر ، وكان يجرى على الورق جرياً ، من أعلى الصفحة إلى أسفلها ، ولا عجب ، فإنه مامن شيء قاله المزارعون إلا وقد دون كله تقريباً . وطلب الشبان أيضاً الوقوف على ما يعرفه القوم عن أسرتى « وانج » و « ياو » : ماهو مقدار ما يملكون من الأرض ، وكيف آل إليهم ذلك ؟

وكان « لاوما » وابنه قد تخلفا عن الحضور الاجتماعين الأخيرين ، حرصاً على عدم إهمال أعمال الحقل ، إلا أنه فى ذات يوم طلب جميع القرويين إلى الاجتماع بلا استثناء ، فما أن ظهر « وانج » العجوز حتى أخذ القوم يتغامزون بأكواعهم ويتهامسون فيما بينهم . وكان الرجل قد لزم عقد داره أخيراً ، وقد بدا وجهه شاحباً ويداه ترتعشان .

عند ذلك قام أحد الشبان الشيوعيين وألقى كلمة . وقد ظل المزارعون خلال ذلك مطرقين رؤوسهم ينظرون إلى الأرض ، ومنهم من كان ينكت أسنانه أو يعبث فى أنفه ، إذ كانوا قد شعروا بالإحراج والحيرة من جراء الألفاظ الغريبة التى يتفوه بها الخطيب : الحرية — حكومة الشعب — العدالة . وأخذت أذهانهم تنصرف إلى ماهو بعيد عن ذلك . لقد كانوا فى فصل الربيع — ولا بد لهم من المبادرة الى إدارة السواقى لرى الأرض . . . .

وبينما هم كذلك ، إذ بالشاب يتفوه بشيء لفت انتباههم ، قال : « إن

أولئك الذين ظلموا الشعب سوف ينزل بهم العقاب . إن أرضهم سوف تنزع منهم وتعاد إلى الشعب . . . . وكذلك المبالغ التى يداينون بها الناس لن تسدد لهم . . . . فليتقدم إلى الأمام كل من له شكوى فى هذا الشأن » .

و بعد فترة من السكون قام شاب يدعى « لى » فقال إنه كان له فيما مضى أرض يملكها ، غير أنه لما مات والده اضطر إلى اقتراض ما ينفقه على جنازته ، وقد تراكم الدين عليه ، فأخذوا الأرض منه ..

فقاطعه الشاب الشيوعى بقوله : « من هم الذين أخذوا الأرض ؟ »

فتمتم « لى » بألفاظ لم تفهم .

فقال الشيوعى : « أفصح وارفع صوتك حتى يسمعك الجميع » .

قال « لى » : إنه « السيد وانج » . . . . وكان من الطبيعى بالفطرة أن يذكر « لى » اسم الرجل مسبوقاً باللفظ الدال على الاحترام . كذلك تحاشى الناس جميعاً النظر إلى « وانج » ، إذ أنه من المحرج أن يجرى مثل هذا الكلام عن رجل حاضر بينهم . ولكن الشاب الشيوعى التفت وأشار بإصبعه إلى «وانج» وهو يقول : « أهذا هو الذى تسميه « السيد » ! إنه ليس بالسيد ولا بالرفيق ، إنه عدو من أعداء الشعب ، ألم تفهم ؟ لقد مضت السنون الطوال وهو يسرقكم و يستغلكم ! فلماذا كل هذا الاحترام ؟ فليقف كل من له مظلمة و يصرح بكل ما يشعر به من مرارة ! »

فقام مزارع آخر ، ثم اثنان غيره . ثم قص « شو » العجوز كيف قامت شرطة « شيانج كاى شيك » بانتزاع ابنه الوحيد منه ــ وكان ذلك وقت أن كان « وانج » الوكيل المحلى لجمع المجندين للجيش ، ولم يستطع « شو » إذ ذاك أن يدفع له الخمسين ريالا التى طلبها « وانج » منه لكى يقصى ابنه عن التجنيد ، ولم يعد إليه ابنه بعد ذلك قط . وقال آخر إنه فقد زوجته بسبب قيام « وانج » بإبلاغ الموظفين عن المكان الذى أودع فيه مؤونة الأسرة من الغلال ، فقضوا

ذلك الشتاء وهم يتضورون جوعاً ،وإن زوجته عند وفاتها كانت هيكلا عظمياً .

عند ذلك أخذت العبارات القارصة تترى موجهة إلى « وانج » : « أنت فرضت على ربحاً فاحشاً ! » — « أنت أخذت أرضى » — « أنت خدعتنى »..

وكان أصحاب هذه الصيحات يقتربون من « وانج » ويشيرون إليه بأصابعهم ويطوحون قبضات أيديهم أمام وجهه . ثم أخذت أصواتهم ترتفع حتى صار ضجيج غضبهم يشبه هدير المياه وهى تتدفق بعد طول حبسها عندما تنفجر الجسور.

ثم عاد الشاب صاحب القلم اللامع وقال : « إننا جميعاً متفقون على أن « وانج » مذنب ، ولكن هل هو العدو الوحيد للشعب هنا ؟ ألا يوجد غيره من الأغنياء الذين استغلوا الفقراء ؟ »

فاتجهت أنظار الجميع إلى « ياو » ، ولكن أحداً لم يقل شيئاً . عند ذلك قام « تاى شينج » وسار فى تؤدة نحو الرجل العجوز ، وفاه بكلمات ارتعدت لها فرائض الجميع .ياللهول ! إن ولداً يوجه التهم لأبيه ! إن ذلك لا محالة سوف يقض مضاجع الأسلاف فى قبورهم !

وكان من بين أقوال « تاى شينج » إن والده أيضاً قد استغل الفقراء . قال ذلك فى صوت يشبه الصراخ ، فى حين أن « لاوما » كان يشعر بوجوب تحاشى النظر إلى « ياو » ، بينما الشيخ نفسه وإن شحب وجهه ، قد بقى ساكناً لا يبدى حراكاً . وإذ ذاك فوجىء الجميع بأن انتفض « لاوما » واقفاً على غير وعى منه وصاح « إن هذا غير صحيح ! إن الرجل لم يخدعنا ! لقد اشترى منى أرضى وقت أن كنت فى غاية الضيق ، ومع ذلك دفع لى فيها ثمناً معقولا ! »

عند ذلك تساءل أحد الشبان الشيوعيين : « ولماذا بقيت ثروته فى نمو فى حين كان كل إنسان غيره يعيش فى ضنك ؟ ولماذا كان يعيش فى ترف بينما كان الناس يتضورون جوعاً؟إن الأغنياء هم الذين استغلوكم وسببوا لكم العذاب . »

فسرت بين الناس تمتمة تشعر بإقرارهم لهذه الأقوال ، وكأن كل ما كان

عندهم من تحفظ قد تبدد بعد أن سمعوا « تاى شينج » يندد بوالده . و بقى المزارعون يشيرون بأصابعهم إلى « وانج » و إلى « ياو » ، ولكن الحقيقة أن شعورهم كان قد تحول ، فلم تعد المسألة عندهم أمر الرجلين اللذين كانا موضع طعنهم ، و إنما أصبحت تتعلق بنفس كيانهم التعس ، ودوام كفاحهم المضنى من أجل الغذاء ، وجهودهم الضائعة فى توقى و يلات النهر .

ثم سأل الشاب: «هل أبدى عدوا الشعب هذان، أى رحمة قط نحو ضحاياهم؟»

« كلا ثم كلا ! »

« أما يستحقان الإعدام ؟ »

« نعم ، اقتلوهم . « شا ، شا » . . . . »

قال الشاب الشيوعى : « إذن هى إرادة الشعب » .

وعلى إثر ذلك شد وثاق الرجلين وسيقا إلى خارج مكان الاجتماع . وقد لزم « لاوما » مكانه ، وظل يسمع صيحات الناس « شا » — « شا » وهى تتضاءل شيئاً فشيئاً : و بعد فترة وجيزة سمع صوت طلقين . ففزع لذلك ، إذ اتجه ذهنه إلى « ياو » العجوز . ولكنه ما لبث أن أخذ يفكر فى الأرض التى ضاعت منه : إنها ستعود إليه عما قريب .

الفصل العاشر

الآلهة الجدد

سمع « لاوما » وقع أقدام خارج كوخه ، ثم رأى خيالا يمر أمام نافذته المصنوعة من الورق ، و بعد هنيهة انطلق الباب مفتوحاً . إنه أصغر أبناء جاره ، دخل عليه وقال :

« إن هناك اجتماعاً وقت الغروب . إنه هام جداً »

قال « لاوما » فى نفسه : اجتماع آخر ! ولـكنه بادر إلى كبح جماح نفسه وقال : « حسنا ، حسنا ، سوف أكون هناك » .

فخرج القادم وجذب الباب وراءه فى شدة فانقفل. فهز « لاوما » رأسه وقال فى نفسه : إن حال هذا الغلام لا تدعو إلى الارتياح . إنه يخاطب الـكبار كما لو كان نداً لهم ،وفى يوم رأس السنة الأخيرة أبى أن يؤدى لوالديه مراسيم الخضوع.

ولـكن ماذا ينتظر الإنسان غير ذلك ؟ لقد سبق للغلام أن شكا فى أحد الاجتماعات الماضية من أن أباه قد صفعه على وجهه ، وأقر شكواه إذ ذاك الشاب « لى » رئيس جمعية المزارعين ، فى حين أنه كان من رأى « لاوما » أن الغلام كان يستحق تلك الصفعة تماماً ، إذ المفهوم أنه لا ينبغى تشجيع صغار الأبناء على مخالفة آبائهم ورد القول عليهم .

على أن « لاوما » لم يقل شيئاً فى ذلك الاجتماع ، بينما مضى الشاب « لى » فى تأنيب جاره ، فقال إنه لم يعد من الجائز الآن أن يضطهد الناس أبناءهم لأن الجميع فى الصين الجديدة سواء ،صغاراً وكباراً. وقد قابل ذلك «لاوما» باستنشاق نفس طويل من أنفه امتعاضاً من هذا الـكلام ، الذى كاد يصرح بأن السن والخبرة لا قيمة لهما . ولـكن ما الحيلة وقد أصبح الصغار يعاملون فى هذه الأيام كما لو كانوا هم الأسلاف .

أخذ « لاوما » يعد نفسه لمغادرة الـكوخ . فتناول زجاجة من تحت « الـكانج » الفرن وأخذ يصب منها فى عناية قليلا من الماء فى حوض غسيل الوجه . لقد كان ماء لطيفا دافئا يتصاعد منه البخار فى الهواء . إنها زجاجة عجيبة : إذا ملأتها فى المساء بالماء وهو فى حالة الغليان ، بقى الماء ساخناحتى صباح اليوم التالى ، و بذلك لم يعد الإنسان يضطر ، إذا استيقظ فى الليل وهو عطشان، إلى شرب الماء بارداً . إن كل فرد تقريباً من أهل القرية يقتنى الآن زجاجة من هذا النوع .

كذلك كان حوض غسيل الوجه مستحدثاً ، فإنه من الخزف الأبيض ، وله حافة حمراء ، وفى قاعه صورة وجه مستدير لطفل يبتسم — شتان بين هذا و بين الحوض الذى كان يستعمل سابقاً : إنه كان من الفخار وكثيراً ما كان ينـكسر . لقد كانت حالة المزارعين فيما مضى لا تسمح لهم بشراء هذه الأشياء، أما الآن فإنه يتوافر لديهم فى بعض الأوقات القليل من المال .

وما أن انتهى « لاوما » من حركة اغتساله حتى وجد أنه قد تعذرت الآن رؤية الطفل الذى كان يرى فى قاع الحوض ، وقبل أن يقذف بالماء خارج الباب رش جانباً منه على أرض الـكوخ لتثبيت التراب . ثم وضع قطعة الصابون فوق العارضة الخشبية حتى لا تصل إليها الفئران : ثم لبس سترته المضربة الزرقاء . لقد كانت هذه آخر شىء صنعته له زوجته قبل وفاتها فى العام الماضى . وكثيرا ما كانت تتحسس الملابس بيديها النحيلتين وهى تقول إنه من العجيب أن قد أصبح فى مقدور كل إنسان تقريباً أن يقتنى ملابس جديدة .

ألم يكن من الخطأ فى حقها ، مهما كان من أمر ، أنها لم تشيع بجنازة أحسن من التى شيعت بها ؟ لقد كان فى نية « لاوما » أن يشترى بيتاً صغيراً من الورق يحمل فى موكب جنازتها ثم يحرق مع النقود الورقية عند الدفن : وعلى فرض أنها كانت فقيرة فى حياتها ، قد كان الواجب يقتضى بتوصيلها إلى الأسلاف

فى حال لائقة ، إذ كيف ينتظر الإنسان أن تلقى لديهم معاملة حسنة مادامت وصلت إليهم فى منظر إنسان تافه ؟

ولكن الشاب « لى » قال إن مثل هذه الأشياء لم يعد لها معنى قط ، وأنها « خرافات » . وعلى كل حال فإن « لاوما » عندما ذهب إلى المدينة ليشترى النقود الورقية ، تبين له أن مجرد شرائها لم يعد ممكناً ، فإن الدكان الذى كان يبيع مثل هذه الأشياء أصبح يتجر الآن فى بيع الأقمشة .

كذلك بطلت إقامة المآدب فى المآتم ، وصار يكتفى بتقديم وجبة طعام متواضعة لأقرب الأقربين . غير أن « لاوما » سلك فى هذا الشأن الطريق الذى رآه واجباً ، فعزز الطعام بجانب من لحم الخنزير وزجاجة من النبيذ ، إكراماً للأقارب .

وكذلك الأفراح ، فقد كان الشاب « لى » يعارض فى إقامتها على الطريقة القديمة ، فلم يعد القرويون ينقلون العروس إلى بيت العريس فى هودج صغير مغلق فإن حملها إلى العريس على هذا الوجه كان يشعر بأنها متاع من أمتعته . وهذا فضلا عما قال « لى » من أنه من إهدار كرامة الآدميين أن يحملوا غيرهم من الآدميين . وبذلك هجر ذلك الهودج الصغير الأحمر الجميل المنظر وأخذت الأتربة تتراكم عليه .

وكان من رأى « لاوما » أن الفرق يكاد يكون صورياً بين ما كان مرعياً من قبل وبين الطريقة الجديدة التى بها تأتى العروس على إحدى عربات النقل ذات الضجيج ، ثم يتجه العروسان نحو صورة « الرئيس ماو » المنصوبة فى قاعة الاجتماعات ويقومان أمامها بمجرد حركة انحناء . وهو فى الواقع يفضل التقاليد القديمة ، التى كان بمقتضاها يركع العروسان أمام هيكل الأسلاف بعد ارتشافهما النبيذ من كأس واحدة . وربما شاركه فى هذا الشعور بعض القرويين الآخرين ، ولكن الناس فى هذه الأيام يحتفظون بمثل هذه الميول فى قرارة نفوسهم ،

إذ ليس من مصلحتهم أن يوسموا بأنهم من الطراز العتيق وأنهم رجعيون .

خرج « لاوما » من كوخه ، وقبل أن ينطلق فى طريقه دس يده فى ثقب خلف قائمة الباب وأغلق الباب بالمزلاج من الداخل . والواقع أنه لم يكن هناك داع لهذا العمل فى هذه الأيام ، إذ لم يعد المرء يشغل باله من جهة سطو المتشردين أو الأشرار على منزله وسرقة شىء منه أثناء غيابه عنه ، فانه لم يحدث فى القرية حادث سرقة واحدة خلال ست السنوات التى مضت منذ أن قبض «الرئيس ماو» على زمام الأمور فى البلاد .

سار « لاوما » على ذلك الدرب الضيق بخطى قصيرة وئيدة ، شأن سائر الشيوخ ، وكانت الحزوز الغائرة التى تركتها عربة يده الصغيرة ذات العجلة الواحدة قد صارت فى يبس الحجارة من أثر الصقيع . وكان على يمينه المعبد ،وهو مبنى واطىء شديد القدم متخذ من الحجر الأحمر . وكان « لاوما » لم ير تلك المرآة الصغيرة المثبتة فى حافة سطحه العليا سوى مرة واحدة فى حياته ، وذلك وقت أن كان غلاماً صغيراً ، عندما تسلق الشجرة الكبرى فى مزرعة « ياو » ، وما زال يذكر إلى الآن كيف كانت المرآة تتلألأ فى أشعة الشمس . وإنه لمن السهل أن يفهم الإنسان ما عزى إليها من طرد الأرواح الشريرة ، فإن تلك الأرواح فى هبوطها السريع من السماء ، لا تكاد تفاجأ برؤية منظرها الفظيع فى المرآة حتى تفزع وتلوذ بالفرار .

وما من مرة كان يمر فيها « لاوما » الآن أمام المعبد إلا تذكر ذلك اليوم الذى انتزعت فيه الآلهة من بيتها . لقد حصل ذلك ولما يمض غير وقت يسير على توزيع الأرض على المزارعين . فقد كان ثلاثة الشبان الشيوعيين لا يزالون بالقرية ، وكان من بين ما صرحوا به أن القرية فى حاجة إلى مدرسة ، فأقرهم الجميع على ذلك ، ولم يبق سوى مشكلة إيجاد مبنى لائق لها . وكان من الضرورى أن يكون ذلك المبنى فسيحاً ، إذ أن بالقرية ما يقرب من مائة طفل .

وقد اقترح فى أول الأمر أن تتخذ لذلك مزرعة أسرة « وانج » ، ولـكن اتضح أنها تبعد عن القرية بأكثر مما ينبغى . كما أن مزرعة « ياو » قد اتخذت بالفعل مقراً عاماً لجمعية المزارعين الجديدة . وعندما اقترح أحد الشبان الشيوعيين تحويل المعبد إلى مدرسة ، تردد المزارعون : وقد ضحك الشبان لذلك ، وقال قائل منهم : «هل حمتكم الآلهة من ويلات النهر ؟ هل منعت الأغنياء من استغلالـكم؟ وهل حالت دون دخول المرض والجوع إلى منازلـكم ؟ »

كلا : والحقيقة أن المزارعين لم يكن لهم فى أى وقت كبير ثقة بالآلهة ، فإنهم بعيدون عنهم وأمرهم محوط بالغموض ، فهم ليسوا كالأسلاف ، الذين يتخذ لهم هيكل فى كل منزل : إن الأسلاف وحدهم هم الذين تربطهم بالأهلين رابطة شخصية قوية . ومع ذلك بقى هنالك شعور يخالج الأفئدة بأنه ليس من الحـكمة التصدى لهؤلاء الآلهة القدماء بهذا الشكل القارع .

فقال أحد هؤلاء الشبان إن الآلهة لم تتخذ إلا كوسيلة لخداع الناس واستغفالهم ، وإنما ليست سوى تماثيل خشبية طليت بالألوان ، فى حين أن كل إنسان يعلم أن القرية فى حاجة إلى مدرسة ، فلماذا لا يتخذ المعبد مكاناً لها ؟ وأخيراً استقر الرأى على الفصل فى الموضوع بالاقتراع . وكانت هذه هى الطريقة الجديدة لمعرفة موافقة السامعين ، بأن يرفع المرء يده للدلالة على موافقة على ما يقوله الخطيب .

وكان نظر الشبان خلال الاقتراع لا يفارق الحاضرين ، فـكان كل من هؤلاء يقول لنفسه : من يعرف ؟ ربما علق أمرك بأذهانهم إذا لم ترفع يدك — أنظر هاهم أولاء كثيرون قد رفعوا أيديهم ، إن أغلب الظن أن الحـكمة تقضى بأن تحذو حذوهم .

وقد ضج الأطفال بالضحك والصياح عندما انتزعت الآلهة القدماء من مكانها ، وجرت جراً إلى الخارج وطرحت خلف المعبد . وكان أول ماشوهد منها تماثيل فى شكل محار بين ذوى وجوه قرمزية ، ثم غيرها على شكل الجلادين —

الذين كانت بلطهم وسيوفهم المسلولة تنقصف كما تنقصف عيدان الكبريت — ثم تلتها المعبودة « كوان يين » إلهة الرحمة ، وعلى وجهها ابتسامة تشعر بالاهتمام وهى التى جرت النساء منذ أجيال لا تحصى على استدرار عطفها بتقديم القرابين لها من الدمى الصغيرة . وكانت الخاتمة المعبود « لانج وانج » ، ملك التنين، الذى كان يعزى إليه التحكم فى منابع المياه .

وربما كان هنالك ، إلى جانب « لاوما » ، طائفة من القرو يين يتوقعون ، فيما يشبه الاعتقاد ، وقوع كارثة هائلة فى الربيع القادم ، ولكن النهر سلك فى ذلك الموسم مسلكاً لاتذكر الأجيال المعاصرة خيراً منه ، كما أن ارض أنتجت محصولا فاق فى وفرته كل تقدير حتى كادت الأهراء لاتتسع له . فكانت هذه الظواهر تشعر بأن قوة الآلهة القدماء قد حطمت .

و بينما كان المزارعون يباشرون جمع المحصول ، قال أحدهم وهو يقهقه : « وما حاجتنا بعد ذلك بالآلهة ؟ إن لنا الآن من يقينا « بوذا » آخر حياً ، هو « الرئيس ماو » .

وقد أدرك « لاوما » أن هناك أسباباً أخرى لوفرة المحصول . فإنه لم يسبق للمزارعين أن بذلوا فى العمل مثل ما بذلوه هذا العام من الجهد . ذلك أن الذين لم يكن لهم من قبل أرض ماقد أعطيت لكل منهم رقعة عند توزيع الأراضى ، وهى وإن كانت يسيرة فإنها ملك خالص له . فصار المزارع بذلك يعيش فى جو جديد ، حتى لقد كان يهيأ له وهو يسمع الطيور تغرد عند استيقاظه فى الصباح أنها تصيح به ، إنها أرضك ! إنها أرضك . وكان « لاوما » فى تلك الأيام لا يكاد يجد وقتاً لابتلاع فطوره ، المكون من العصيدة الرقيقة واللفت المملح ، إذ كان يشعر بشدة الحاجة إلى الإسراع فى الذهاب إلى حقله .

و بعد توزيع الأراضى ، صاروا يتناوبون استعمال الثيران التى كانت من قبل ملكاً لأسرتى « وانج » و « ياو » . وكانوا يختلفون أحياناً فى أمر من

يطعم الثيران ، وكثيراً ما كان يشكو بعضهم من أن غيرهم قد استخدموا الثيران لمدة تزيد عن المقرر لهم ، ولــكن الشاب «لى» كان دائماً يفض هذه المشا كل .

وكان « لى » قد أصبح رجلا ذا مكانة عظيمة فى القرية . إذ أنه كان ، قبل مغادرة الثلاثة الشيوعيين لها ، قد تم انتخابه رئيساً لجمعية المزارعين . فقد كان الجميع يعلمون أنه محبوب لدى الشيوعيين ، ولذلك اقترعوا جميعاً لصالحه .

وكان « لاوما » أيضاً ممن أعطوه صوتهم ، وإن كان فى الحقيقة لم يشعر بميل إليه . لقد كان « لاوما » يشعر بأن « لى » كان صريحاً مستقيماً ، كما كان أيضاً أميناً وذا مقدرة فى عمله ، ولــكنه كان فى رأيه ينقصه إبداء شىء من الحفاوة بغيره من الناس .

و بعد فترة وجيزة من انتخاب « لى » غادر القرية لقضاء عدة أشهر فى « بكين » بدعوة من الحــكومة الجديدة . ولما عاد من رحلته بدا عليه تغير شامل فلم يقتصر الأمر على القبعة المفلطحة الأجنبية الشكل التى فوق رأسه ، ولا على زر سترته الجديد اللامع الذى رسمت عليه صورة « الرئيس ماو » ، بل إنه صار أيضا يتــكلم بشكل جديد تتردد فيه ألفاظ وعبارات عجيبة . فإنه كثيراً ما كان يستعمل عبارة « العمل معاً متحدين » و ينطق بها كأنها كلمة واحدة ، وعندما كان يريد أن يوصى بشىء كان دائماً يصفه بأنه« الجهد المتحد للجبهةالمتحدة » لأجل « تقوية الوحدة » . كما أنه كان يطلق على الذين يخالفونه فى الرأى صفة المعرقلين السائرين ضد التيار .

وكانت هذه الصفة الأخيرة هى التى أطلقها على « لاوما » واثنين آخرين من المزارعين عندما امتنعوا عن قبول الانضمام إلى « فرق التعاون المتبادل » الجديدة ، التى أنشأتها جمعية المزارعين ، بأن يعمل الجميع مجتمعين فى حقل واحد منهم أولا ، ثم ينتقلون إلى العمل فى أرض مزارع آخر ، وهكذا . وكان من رأى بعض الناس أن هذه الطريقة تجعل العمل أسهل من قبل .

وعندما جرى تكوين هذه الفرق قال « لاوما » إنه لا يرغب فى الانضمام إليها فى الحال . وأنه يفضل الانتظار ريثما يرى النتيجة ، ثم تدارك نفسه فى الحال وشفع كلامه بقوله إنه يدرك تمام الإدراك أن الطريقة الجديدة تعود بالنفع على الجميع ، « ولكننى أخشى أن يكون انضمامى فى غير مصلحتكم ، فإننى رجل عجوز ولم يعد فى وسعى اللحاق بالشباب فى العمل » .

على أن ما قصده فعلا كان يختلف عن ذلك كل الاختلاف ، إذ كان فى الحقيقة يريد أن يقول : كيف يمكن الاستيثاق من أن المزارعين يقومون بحرث أرض غيرهم بنفس الاتقان الذى يحرثون به أرضهم ؟ وهل يجمع الإنسان غلال غيره بنفس الحرص الذى يجمع به غلاله ؟ كلا . ليس من المضمون أن يبذل المرء غاية وسعه فى العمل إلا إذا كان يعمل فى أرضه بالذات ، وهذه هى سنة البشر .

ومما قاله « لى » فى هذا الشأن إن الأمر متروك بالطبع للمزارعين انفسهم ، بحيث لا ينضم إلى فرق التعاون المتبادل إلا الراغبون فى ذلك « فإننا لا نستعمل القوة فى الصين الجديدة » ، ولكن لما كان « لاوما » والاثنان الآخران لم يرغبوا فى التعاون مع الباقين ، فمن الطبيعى ألا ينتظروا الانتفاع بالمزايا التى تقدمها جمعية المزارعين ..

وبمرور الأيام وجد « لاوما » أنه كلما أراد استعارة ثيران الحرث كان دائماً يجد صعوبة فى الحصول عليها ، إذ كانت جمعية المزارعين هى التى تعين أسماء الذين تعار لهم ، ورئيس الجمعية كما نعلم هو « لى » . كذلك كان كلما احتاج إلى شىء من البذور لا ينال ما يفى بحاجته منها — وكان شراء البذور قد أصبح غير ممكن إلا عن طريق جمعية المزارعين .

فانتهى الأمر بذهاب المزارعين الثلاثة إلى « لى » وأخبروه بأنه قد صحت عزيمتهم الآن على الانضمام إلى فرق التعاون المتبادل . بذلك كسب « لى » المعركة ، وكان ينبغى له أن يتظاهر بأنه لم يكن هناك قط أى خلاف بينه وبينهم

ولكنه بالعكس جعل من هذه المسألة موضوع خطاب طويل له فى الاجتماع التالى . فكأنه « قد دعك الجرح بالملح » . فقال إن « لاوما » وزميليه قد أدركا فى النهاية أنه ليس من الحكمة السير ضد التيار ، وأن الافضل وضع أيديهم فى أيدى الشعب تحت قيادة الحزب الشيوعى المظفر « الرئيس ماو » .

و بينما كان « لاوما » يسير فى طريقه إلى قاعة الاجتماعات ، مر بالصوبات الجديدة Hot houses التى أعدت لتنمية النبات بالحرارة الصناعية ، وكانت تقع فى أحد الحقول التى كانت يوماً ما ملكاً لأسرة « ياو » . فوقف لحظة وأخذ يتأمل تلك الصفوف الطويلة من النوافذ الورقية المواجهة للجنوب . إن « لى » هو الذى أشار على الجمعية بإنشاء هذه الصوبات . وليس من أحد يفكر ماقد لقيه هذا المشروع من نجاح كبير . فقد كان المزارعين من قبل لا يكادون يجدون عملا لهم خلال أشهر الشتاء ، ومنهم من كان يقصد المدينة بحثاً عن عمل يعمله ، ومنهم من قنع بالجلوس فى ركود انتظاراً لحلول الربيع . أما الآن فقد صار كل رجل يعمل فى الصوبات مدة ساعتين فى اليوم ، فكانت كل أسرة تحظى عن هذا الطريق بشىء من المال عند بيع ماتنتجه الصوبات من الطماطم الكبيرة الحمراء .

كذلك لا يستطيع أحد إنكار ما أحدثته الطرق الجديدة لفلح الأرض من زيادة غلتها . لقد كان « لى » هو الذى أعد الترتيب لحضور نفر من الاخصائيين الزراعيين وتحدثهم إلى القرويين . وقد علموهم كيفية استعمال ذلك المسحوق الأبيض الذى يكاد يعادل فى قوة تسميده للأرض تلك المخصبات المتخلفة عن الإنسان ، كما علموهم ما للبذور المنتقاة من الفضل فى زيادة المحصول . وكذلك دربوهم على كيفية مكافحة الحشرات الضارة بالزراعة .

على أن الأهم من ذلك كله أن الحكومة الجديدة بادرت فى الحال إلى دراسة الوسائل التى تكافح بها أخطار النهر . فمهد بالعمل فى أول الأمر إلى المزارعين أنفسهم بإرشاد قوم حضروا من « بكين » لهذا الغرض ، ولم يخرج

ذلك عن مثل ما كان يعمل فى الأيام السالفة . ثم جيء بعد ذلك بالألوف المؤلفة من الرجال للعمل تحت حراسة الجند ، وكان من المحظور على المزارعين التحدث إليهم ، واكتفى بابلاغهم أن هؤلاء السجناء هم من أعداء الشعب .

تقدم العمل على هذا الوجه وأخذت الجسور تعظم فى سرعة شديدة . غير أنه حدث خلال العام الثالث من سيطرة « الرئيس ماو » على البلاد ما كان يشعر بأن النهر أراد أن يظهر أنه مازال محتفظاً بسطوته . فارتفعت مياهه فى يومين اثنين بما يزيد على عشرين قدماً . ومع ما أتخذ ازاء ذلك من استدعاء جميع الرجال للعمل فى تقوية الجسور فقد تغلب النهر على كل مجهود وأخذت مياهه تتدفق من ثلمات الجسور . وطغت المياه فى كل مكان متى لقد بقيت ثلاثة أسابيع فى كوخ « لاوما » وهى فى علو كعوب الأرجل ، وعطنت الغلال والخضر فى الحقول .

وكانت قلة من المزارعين فى حالة يسر . أولئك هم الذين كانوا يملكون شيئاً من الأرض من قبل حركة توزيع الأراضى ، وإذ كانت لديهم مقادير مدخرة من الغلال ، فإنهم لم يخشوا عقبى ما وقع . ولكن الكثيرين غيرهم استولى عليهم الفزع وأخذوا يتساءلون فى أنفسهم كيف يتسنى لهم العيش إلى أن يأتى المحصول القادم ؟ إنهم لن يجدوا من يقرضهم مالا ، بعد أن فنيت أسرتا « وانج » و « ياو » ، ولا فائدة من ذهابهم إلى المدينة ، فإنه يكاد يكون من المستحيل العثور على عمل فيها ، والتسول قد أصبح محرماً .

وقد وعد الشاب « لى » القوم باتخاذ وسيلة ما لملافاة الحال، ولكن أكثرهم لم يصدقوه ، ولجأ بعض القرويين إلى بيع جانب من أرضهم إلى أولئك الذين كانوا أحسن منهم حالا ، وتقاضوا الثمن غلالا .

ولكن ما كان أكثر أسفهم عندما رأوا عربات النقل ترد إلى القرية محملة بالغلال وأخذت تفرغ من حمولتها زكيبة بعد زكيبة توزع على المزارعين .

وقال شيخ من بين المزارعين : « ولكننا لن نستطيع دفع الثمن » ، فكان الرد على قوله : « إنك لن تطالب بثمن ما ، إن الغلال مرسلة من قبل الحكومة » .

وفى أعقاب ذلك ألقى الشاب « لى » خطاباً لا ينساه القرويون قط . فقال إنه فى الأيام السالفة كان كل إنسان يعيش لنفسه ، أما الآن فقد علمتهم الحكومة الجديدة قوة الاتحاد . فلم يعد القرويون فى معزل عن غيرهم فى كفاحهم للنهر ، فإن من ورائهم الأمة بأسرها يقودها « الرئيس ماو » ، ولن يعيشوا بعد الآن فى خوف من القحط إطلاقاً ، لأنه إذا خاب المحصول فى جهة ما فإن الحكومة تبادر بإرسال الغلال إليها من جهة أخرى وفر فيها المحصول .

واختتم كلامه بقوله : إن هذه ستكون آخر مرة يطغى فيها فيضان النهر ، لأن الحكومة قائمة بصنع بحيرة كبيرة أقرب لمنابعه من هذه القرية ، حتى إذا أتى النهر بأكثر مما ينبغى من المياه سالت المياه من تلقاء نفسها إلى البحيرة ، وهى كبيرة جداً بحيث لا يمكن أن تفيض المياه قط من جوانبها . . .

ولم يصغ « لاوما » لما جاء بعد ذلك فى الخطاب ، بل ظل جالساً فى مكانه يستوعب هذه الأقوال الجديدة العجيبة : لا داعى للخوف من النهر بعد الآن — إنه لن يتحكم فى حياتنا مستقبلا ، بل سنكون نحن السادة المتحكمين فيه .

وبعد نحو نصف سنة من الفيضان أبدى « لى » اقتراحاً بأن يوسع نطاق نفوذ جمعية المزارعين ، بأن يدخل فى اختصاصها تقرير نوع المحصول الذى ينتجه كل مزارع ، وعندئذ تستولى هى على المحصول وتتصرف فيه ، بما فى ذلك تسلم الحكومة نصيبها من الغلال كضريبة للأرض — ويقدر ذلك عادة بخمس المحصول .

ويترتب على هذا النظام الجديد أن الفرد من المزارعين لن يستطيع بعد ذلك اليوم أن ينقل محصوله إلى السوق لبيعه بنفسه ، ومعنى هذا نقص فى دخل

المزارعين ، لأن الثمن فى السوق « الحرة » أعلى مما تدفعه الحكومة . وعلى الرغم من ذلك ، وافق المزارعون على الاقتراح دون كبير تردد ، نظراً لما أوضحه « لى » لهم من أن الحكومة فى حاجة إلى الغلال . فقد مدت الحكومة لهم يد المعونة وقت أن كانوا فى شدة ، فعليهم الآن بدورهم أن يعاونوها ، فإن ذلك من مقتضيات العدالة .

على أن « لى » ما لبث أن طلع عليهم باقتراح يقضى بإزالة السياجات الفاصلة بين الحقول . وقد كان ذلك فى أعقاب اليوم الذى دفن فيه « لاوما » زوجته ، وهو يذكر ذلك فى وضوح لأن أسرته كانت وقتئذ لا تزال فى دور الحداد ، الذى كان من مظاهره ذلك القماش الأبيض الذى تغطى به الأحذية . كما أنه يذكر ذلك الصمت الرهيب الذى خيم على القوم على إثر سماعهم هذه الأقوال من « لى » .

وقد كان كلام « لى » يزداد سرعة على سرعة ، لأنه كان يشعر فى هذه المرة أن لا أحد فى جانبه . فقال إن المزارعين فى جميع أنحاء الصين يطالبون « بالمزيد من التجمع » (وهذه عبارة أخرى من عباراته الجديدة البراقة) ، وليس فى مقدور أى شىء الوقوف فى طريق مسير الشعب نحو « المستقبل ذى الملكية المشتركة » ، الذى هو هدف الحكومة والأمة معاً . فهل يريد أهل هذه القرية أن يكونوا هم وحدهم المقاومين لهذه الفكرة الجديدة ؟

« ولماذا تزال السياجات ؟ »

أتى هذا السؤال من جانب مزارع شاب . لقد صار هذا الشاب بحركة توزيع الأراضى ، مالكا لرقعة من الأرض لأول مرة فى حياته ، وهو يخشى أن يكون المراد انتزاعها منه من جديد .

فأجابه « لى » بأن « ذلك أكثر تيسيراً للعمل » ، فإنكم تضطرون الآن

إلى تغيير إتجاه المحراث مرات كثيرة وتستغنون عن ذلك عندما تصير الأرض حقلا واحداً كبيراً » .

« ولكننا لا نضيق بتغيير إتجاة المحراث مرات كثيرة » .

فواصل « لى » كلامه وقال : « إننا فى بحر بضع سنوات سنأتى بجرارات ميكانيكية لجر المحراث ، فإذا كانت هناك سياجات فلن يكون من الممكن استعمال الجرارات » .

فقال قائل : « إذن فلننتظر حتى تأتى الجرارات » .

وقال آخر : « نحن مرتاحون لعملنا الآن ، فلماذا التغيير ؟ »

ومضت لحظة بدا فيها « لى » فى شدة الحيرة والارتباك ، ثم أخرج خطاباً كان قد جاءه من أولى الشأن ، وأخذت عيناه تمر بسطوره فى سرعة خاطفة . لقد كان الكثيرون من المزارعين قد تعلموا القراءة فى الجمعية ، ولكن لم يكن من بينهم من يدانيه فى سرعة القراءة .

وأخيراً قال : « إن فى الاتحاد لقوة » ، والفكرة الجديدة ، التى نبعت من الشعب ، كفيلة بأن تؤدى إلى المزيد من الاتحاد ، أى إلى المزيد من القوة . . »

قال أحد المزارعين : « إنى أريد الاحتفاظ بأرضى » .

فنظر إليه « لى » فى الحال ، وكان لم يألف مقاطعة أحد لكلامه وقال :

« ولكنك ستبقى فعلا محتفظاً بأرضك» .

« إذن لماذا تريدون إزالة السياجات ؟ »

« لأن . . . » وأخذ يشرح أنه لن يؤخذ من أحد شىء ، وأن المسألة ليست سوى جعل ملكية الأرض بالاشتراك ، أى جعلها ملكية جماعية . وبذلك يكون الجميع فى مأمن أكثر من الآن . فإن المرء فى الحالة الراهنة معرض للدمار من جراء تلف محصول واحد ، أما بالنظام الجديد فلن يتعرض أحد لمثل ذلك الخطر إطلاقاً . وهذا فضلا عن أن بعض المزارعين قد باعوا جزءاً

من الأرض التى أعطيت لهم . وفى ذلك خطر كبير ، لأن من شأنه أن يعيد إلى الوجود طبقة جديدة من الملاك وطبقة جديدة ممن لا أرض لهم . وهذا كله يمتنع متى صارت الأرض كلها ملكا مشتركا ، وفى هذه الحالة تصبح القرية كلها بمثابة أسرة واحدة كبيرة تقتسم كل شىء بينها .

قالوا : « ولكن لم ذلك ؟ لماذا نفعل شيئاً بودنا ألا نفعله » ؟

فعبث « لى » بأصابعه فى الزر اللامع الذى منحه فى بكين ، ثم قال : « إن أحداً لن يجبر على ذلك . فحكومة الشعب لا تستعمل القوة قط ، إذ هى صديقة الشعب ، ولكنها يضيق صدرها بالذين لا يفكرون إلا فى أنفسهم — الذين هم أعداء الشعب » .

وكان يهيأ للانسان وقتئذ أن هذه الألفاظ الأخيرة بقيت تتردد فى الآذان مدة طويلة بعد فراغ « لى » من النطق بها ، وأيقن « لاوما » فى نفسه بأن الكثيرين غيره كانوا مثله قد أتجهوا بأذهانهم فى هذه اللحظة إلى ما جرى لكل من « وانج » و « ياو » ، إذ كانت هذه الصفة ـــ أعداء الشعب — هى التى أطلقت عليهما .

ومضى « لى » فى كلامه فقال إنه عندما تصبح خطة « الملكية المشتركة » أمراً واقعياً ، سوف يعمل حساب عن كل محصول عقب جمعه ، فيبين قدر ما سيسلم للحكومة من الغلال ، ومقدار ما يحفظ بصفة « احتياطى » وما بقى يوزع على المزارعين ، كل بنسبة ما قام به من عمل . فالذين قضوا فى العمل مدة أطول من غيرهم يكونون أكثر منهم نصيباً ، بحيث تكون أقل الأنصبة للكسالى . فلن يكون دخل المزارع فى ذلك الوقت متوقفاً على قدر ما يملكه من أرض ، ولا على مقدار ما أنتجته أرضه بالذات مهما كان حظها ، وإنما يتوقف على مبلغ جده فى العمل .

عند ذلك قال (لاوما) فى نفسه إننا بذلك لن نكون مزارعين بعد اليوم

و إنما سنكون مثل العمال الذين يعملون بالأجر فى المدينة .

على أنه عندما أحيل المشروع إلى الاقتراع ، ابتسم (لاوما) ابتسامة المغتبط (بفراسته) ، إذ لم ير أحداً من المزارعين الا وقد رفع يده .

وفى ذلك المساء ذهب (لاوما) إلى حقله والتقط كتلة صغيرة من طينته . لقد ظلت هذه الأرض السنين الطوال وهى ملك لأسرته . ثم ضاعت منه ، ثم عادت إليه ، وهاهم أولاء يعمدون الآن إلى انتزاعها منه مرة أخرى ، وقد تفتتت الطينة بين أصابعه ، ووقف خالى اليد وسط ظلام الليل .

كان ذلك منذ نحو عام . وعُقدت خلال هذه المدة اجتماعات كثيرة ، كان موضوعها النظافة وتحسين وسائل الزراعة ، كما تكلم فيها بعض أولئك القوم الذين يتحدثون عن حقوق المرأة وما شابه ذلك من الأمور . وقد تعلم الإنسان كثيراً من هذه الاجتماعات ، ولكن عددها كان أكثر مما ينبغى ، وقد أخذ صاحبنا « لاوما » يحس بالتعب لأنه ، مهما كان من أمر ، قد تقدمت به السن . حقاً ، لم يقل أحد بأن حضور الاجتماعات كان إجبارياً ، ولكن تخلف المرء عن الحضور كان يعد أمراً مستغرباً .

وها هو ذا إجتماع الليلة ، قال عنه ابن الجيران إنه اجتماع هام . وكان ذهن « لاوما » قد شرد وهو يفكر فى شتى الأمور وكاد ينسى أن الوقت قد أزف ، فها هى ذى الشمس قد غربت وأخذنا ندخل فى ظلام الليل . فأسرع « لاوما » فى مشيته ، حتى إنه عند بلوغه قاعة الاجتماع كاد يكون مقطوع النفس . وكان لا يزال يتوسط القاعة المائدة الكبيرة بعينها ــ تلك المائدة التى كان يجلس أمامها « ياو » وهما يتفاوضان فى شأن بيع الأرض له . والآن كان « لى » واقفاً أمامها وقد بدأ من فوره فى الكلام .

فقال « لى » إنه جاءه إنذار شديد اللهجة من « بكين » ، لأن القرية لم تقم بإنجاز « حصتها » من العمل ــ وهذه كلمة أخرى جديدة قد كثر استعمالها .

فقد صار على كل مزارع أن ينجز قدراً معلوماً من العمل فى كل ساعة ، وفى كل يوم ، وفى كل شهر ، وإلا اعتبر غير منجز لحصته ، وذلك من المساوىء الجسيمة . وهناك حصة معينة لكل قرية ، وكل مديرية ، بل للصين بأكملها ، ولكن هذه الأخيرة ضخمة جداً فلا يمكن للمزارعين تصور ما تؤديه أرقامها من المعنى .

وواصل « لى » كلامه فقال إن الحقول لاتلقى الآن من العناية قدر ما كانت تلقاه من قبل ، ويرجع السبب فى ذلك إلى أولئك الذين « الذين يسيرون ضد التيار » ، فإن هؤلاء يدعون أنهم أصدقاء الشعب ولكنهم فى الحقيقة يعملون على إحباط جهود الحكومة . .

وكاد « لاوما » يبتسم عند ذكر ذلك ، لكنه حبس ابتسامته . فهل كان « لى » يعتقد حقيقة صحة ما تفوه به ؟ ألم يلمس تماماً أنه لم يكن من بين أهل القريه مزارع واحد ذو شعور معاد للحكومة الجديدة ! أما كون المزارعين لم يبذلوا فى العمل مثل ما كانوا يبذلونه من عناء فإنه يرجع إلى أسباب أخرى لا علاقة لها إطلاقاً بهذا الاعتبار . فالمرأة مثلا لا تعنى بأبناء غيرها بمثل ما تعنى بأبنائها هى . والرجل لا يعنى بحرث أرض غيره مثل ما يعنى بحرث أرضه بالذات .

كان هذا هو السبب فى أنهم لم يتعمقوا فى حرث الأرض أو يدققوا فى إزالة الحشائش كما كانوا يفعلون من قبل ، وهذا بعينه هو السبب فى فقد الكثير من الحبوب عند جمع البقايا من الحقول وقت الحصاد ، وفى عدم إجهادهم أرجلهم فى إدارة دواليب الرى بقدر اجهادهم فيما سبق ، والناس يجارون بعضهم بعضاً ، فإذا رأى أحدهم فى غيره تهرباً فى العمل تهرب هو أيضاً .

وواصل « لى » الكلام فقال إن الحكومة « قامت منذ نحو نصف عام بأعطاء كل مزارع قطعة صغيرة من الأرض قدرها أربعون قدماً فى مثلها لزراعته الخاصة ، فكان العمل فى فلح هذه الحقول أدق بكثير من فلح الحقول المشتركة .

فقال « لاوما » فى نفسه : أجل ، هو كذلك ، لأنها زراعتنا الخاصة ، ومانتيجه منها لا يقتسمه غيرنا معنا .

والواقع أن المزارعين كانوا يعجزون عن سد النفقات الضرورية لمعيشتهم لو لم يبذلوا قصارى جهدهم فى فلح تلك «الحقول الخاصة» ـ كما كانوا يسمونها . فقد كانت الحكومة تزيد فى مقدار نصيبها من محصول الحقول المشتركة عاما بعد عام ، وفى هذا العام لم تسمح للمزارعين بالاحتفاظ بأكثر من ثلاثمائة رطل من الغلال لكل عضو من أعضاء الأسرة . وكان « لاوما » قد سمع بأن سكان المدن يقل نصيبهم حتى عن ذلك ، وهو قدر مقرر لهم حسب نظام (التموين) ، ولكن فى وسعهم أن يشتروا لحما « وكعكا » وما أشبه ذلك من مواد الغذاء ، فى حين أن القرويين كادوا يكونون مقتصرين على الغلال ، ولم يكن فى نصيبهم منها ما يكفيهم . ولم يتناولوا فى اليوم سوى وجبتين من الطعام ، وكانت إحداهما فى العادة عبارة عن العصيدة الخفيفة .

وفى فصلى الربيع والصيف ، حين تكون حركة العمل لدى المزارعين على أشدها ، كانوا عادة يتناولون من الأغذية أكثر من المقرر لهم ، فإذا جاء الشتاء اضطروا إلى زيادة الشد على بطونهم ، وكثيراً ما كانوا لا يجدون لهم طعاماً غير البطاطس . وكان قد أدى لهم النصح بالإكثار من زراعة البطاطس لأنه ، كما قال « لى » ، أكثر ربحا من معظم المحاصيل الأخرى ، ولكنهم كانوا لأمر ما ، يمقتون البطاطس ، وكان يهيأ لهم أنه طعام لا يملأ المعدة على الوجه المطلوب.

وقال « لاوما » فى نفسه وهو يشعر بالامتعاض : وهذا هو كل طعامى هذه الليلة ولم يكن لديه حتى القليل من الزيت لتحمير البطاطس حتى يتحسن مذاقه نوعاً ما . فقد كان مقرر الزيت يقل شيئاً فشيئاً خلال السنوات القليلة الماضية حتى صار ما يناله كل مزارع منه لا يزيد على فنجان صغير فى الشهر . وكذلك

لا يستطيع الإنسان الحصول على « الدوفو » لأن كل محصول فول « الصويا » يسلم للحكومة بصفة حتمية .

وكثيراً ما أوضح لهم « لى » أنهم لا يشدون الأحزمة على بطونهم عبثاً ، بل إن ذلك لمصلحة الأمة بأسرها . فأن المحاصيل التى تستولى عليها الحكومة تنتفع بها فى شراء الآلات التى تنتج ما يحتاجه الجميع من المصنوعات . ولكن ذلك لم يكن فيه ما يحول دون أن يمض الجوع معداتهم . فقد كان ذلك يشتد فى بعض الأوقات حتى يكاد يشبه ما كانوا يعانونه من القحط فى الأيام السالفة .

وعلى أنه بالرغم مما حدث من النقص فى المحصول على إثر جعل ملكية الحقول مشتركة ، فإن المزارعين صاروا يحظون الآن بالقليل من النقد فى أيديهم فإن الأرض ما زالت تنتج أكثر مما كانت تنتجه قديماً ، وهذا فضلاً عما ينالهم من دخل قليل من زراعة « الصويات » ، وعن أن بعض المزارعين كانوا يذهبون إلى المدينة ويبيعون ما أنتجته « حقولهم الخاصة » الصغيرة .

ولكن ما الفائدة من النقود ؟ إن فى وسع الإنسان أن يشترى بها طشوت غسيل أو قدوراً معدنية ، ولكن أعظم ما كان المزارعون فى حاجة إليه هو الطعام ، وهذا هو مالا يمكنهم شراؤه . فقد حدث فى عيد رأس السنة أن ذهب بعضهم إلى المدينة واشترى بعض مواد غذائية غير داخلة فى كشوف المقررات ، وبينما هم فى طريق عودتهم بها استوقفهم رجال الشرطة . وقد كان هؤلاء لينى العريكة ، ولكنهم صادروا تلك المواد الغذائية وأوضحوا لهم أن من غير المسموح به نقل الأغذية من المدينة إلى الريف .

ما كان أعبس من وجه « لى » إذا قورن بوجه « الرئيس ماو » الباسم كما كان يرى فى تلك الصورة المعلقة على الحائط ! لقد أخذ « لى » فى ذلك الاجتماع يحض القوم على التشمير عن سواعدهم ومضاعفة جهودهم . ثم ذكرهم بالقدر الذى هم مدينون به للحكومة : ألم تقم بإقصاء « شيانج كاى شيك » وكبار ملاك

الأراضى الأشرار ؟ ألم تعلم أبناءهم القراءة والـكتابة ؟ أما يرتدون الآن ملابس خيراً مما ارتدوه من قبل ؟

وكان الزراع يهزون رؤوسهم بالموافقة بحالة تلقائية عقب كل هذه الأسئلة ، وكانوا قد سمعوا كل ذلك مرات كثيرة من قبل . وقد شغل انتباه « لاوما » عنكب تدلى من السقف فوق رأس « لى » مباشرة . وكان كلما اقترب من رأسه حتى كاد يلمسه ، صعد قليلا من جديد . وقد اغتبط « لاوما » برؤيته العنكبوت فى وضوح ، وأخذ يفكر فى كيف أنه كان فى الغالب يرى الأشياء مدغشة وهى قريبة من عينيه ، أما وهى على بعد فها هو ذا يراها بجميع تفاصيلها .

ثم تنبه على سماع صوت « لى » وهو يقول : أولم نقم بكسر شوكه النهر ؟ وعندئذ نسى « لاوما » العنكبوت وأومأ برأسه بالموافقة فى تحمس شديد ، وقال فى نفسه : أجل ، لقد هذبوا النهر حقاً . إن أحفاده وأبناء أحفاده سوف يعيشون ويكبرون دون أن يشعروا بخوف ما من ذلك العدو القديم . . .

وابتسم « لاوما » فى اغتباط ، حتى لقد نسى مؤقتاً أن غذاءه الليلة هو البطاطس المسلوق .

الفصل الحادي عشر

تفويض من السماء

التقينا أنا وماك على الحدود بين هونج كونج والصين . وكان كل فى طريقه إلى « بكين » فى قطار واحد . فشعرت فى الحال بالارتياح إلى ذلك البريطانى الوديد ذى الجسم الضخم ، الذى كان يبدو ، على الرغم من بياض شعر رأسه ، ذا شخصية صبيانية تبعث على المرح . ولكن ما أن علمت منه أنه صحفى حتى فارق وجهى الإبتهاج .

وبمثل ذلك بدا « ماك » أيضاً . فقد كان فى أمل كل منا أنه سيكون المراسل الأجنبى الوحيد فى الصين ، وبذلك تستأثر الأنباء التى يبعث بها بكل شىء . على أننا اتفقنا فى الحال على ألا يعترض أحدنا طريق الآخر ، فإن رقعة الصين كبيرة تتسع لكلينا .

فلما غادرنا القطار فى « بكين » شد كل منا على يد الآخر فى رزانه وتمنى له حسن التوفيق .

وبعد بضعة أيام من ذلك كنت على موعد مع « رئيسة الاتحاد النسوى الديمقراطى» ، وبينما أنا فى طريقى إلى حجرة المقابلة ، وعلى بعد كبير منها ، سمعت صوت « ماك » يرن عالياً فى داخلها . وقد جرت الأمور على هذا المنوال خلال الأسابيع القليلة التالية . فإننى أنى ذهبت ــ المصانع ، أو المزارع الجماعية ، أو المدارس ، أو أحد ملاجىء الصم والبكم ــ كنت أرى « ماك » بشعر رأسه الأبيض ، أو أسمع أنه كان هنالك وانصرف من توه .

ولم يكن من قبل المصادفة أن يعترض كل منا طريق الآخر فى كل هذه المرات الكثيرة . فإن المراسل الأجنبى فى الصين الحمراء ، إذا أراد إجراء حديث

أو زيارة مكان ما ، فعليه أن يذهب أولا إلى وزارة الخارجية لتدبير ما يلزم لذلك . وهنالك أيضاً يعاونونه باقتراحات عن الأماكن التى تـكفل له زيارتها مادة وفيرة للـكتابة .

ولـكن الوزارة تسعى فى الغالب لضم الوافدين معاً مفضلة بطبيعة الحال أن تصيب بحجر واحد أكبر عدد ممكن من العصافير . ولديها كشوف طويلة متنوعة ليختار منها الزوار الأجانب ما يروق لهم : هل يريد معرفة شىء عن الديانة فى الصين ؟ إن كنت ترغب فى مقابلة كاهن بوذى أو قسيس كاثوليكى ـ وكلاهما من اليساريين بالطبع ـ فإنك تجدهما تحت تصرفك فى الحال . وفى استطاعتك أيضاً التحدث مع رئيس عصابة سابق كرس حياته الآن لخدمة المصلحه العامة الجديدة ، أو مقابلة رأس مالى سابق يدعو الآن للاشتراكية . والواقع أنك أنى ذهبت تقابل بحفاوة ، ولـكنك تشعر بين حين وآخر أن القوم الذين تتحدث إليهم يفـكرون فى أمر آخر ، كأنهم يذكرونك فى شكل ما بالممثلين الذين أجادوا حفظ أدوارهم .

وفى ذات يوم كنت على موعد لمقابلة « السيد ساو » رئيس حزب « الاتحاد الديمقراطى بالصين » ـ والصين هى الوحيدة بين دول الستار الحديدى التى تسمح بوجود أحزاب أخرى بجانب الحزب الشيوعى . وكان موعد المقابلة فى تمام الساعة الحادية عشرة ، ولـكننى وصلت قبل الموعد بنحو عشر دقائق . وظننت أن « السيد ساو » قد وصل هو أيضاً مبكراً ، بدليل وجود معطف وقبعة فى الممر .

وفتحت الباب ، ولـكن أتدرى من رأيت واقفاً وسط الحجرة وعلى وجهه ابتسامة فاترة عريضة ؟

إنه « ماك » . وبادرنى بقوله : « ها قد اتضح أن الصين ليست واسعة بالدرجة التى « ظننا‌ها » ، وشفع ذلك بقوله إنه يأمل أن تـكون المقابله ممتعة ،

إذ المعروف عن « السيد ماو » أنه ذو مقدرة فى إثبات أن الصين الجديدة هى فى الواقع أكثر ديمقراطية من الدول الغربية .

قلت : أجل ، هذا هو ما سمعته عنه . ثم جلست فوق إحدى المتكئات الضخمة المزركشة وأخـذت أسرع النظر فى مشتملات الحجرة . فكان على الحائط المقابل لى مرآة فى إطار ذهبى كثير الزخارف ، و بأسفلها منضدة دقيقة حسنة الطلاء ، عليها طائر محنط ظل ينظر إلى نظرة خبيثة .

لماذا كان للصينيين العصريين هذا الذوق فى اختيار الأثاث ؟ قل أن يوجد شعب آخر له مثل هذا الإرث الزاخر الجدير بالاقتباس منه — ولكنهم لا يفعلون ذلك ، و يفضلون الذوق الأوربى الذى ساد فى عصر « فكتوريا » . يظهر لى أن بيوت اليابانيين هى أجمل بيوت فى العالم ، فى حين أن معظم منازل الطبقة الراقية من الصينيين تذكرنى بذلك النوع الطافح بالمظاهر من المساكن الأوربية المعدة للنزلاء . فلماذا هذا الفرق الكبير بين الجارتين ؟

لقد أوضحت لى « شى يان » ذلك ذات مرة فقالت: « إننا معشر الصينيين قد تمسكنا بالتقاليد القديمة أطول مدة فى حدود استطاعتنا ، إذ كنا نعتقد أن حضارتنا فوق كل حضارة ، ثم تبين لنا فجأة أن الغرب قد سبقنا فى ميادين كثيرة . فرأى الذين أرادوا أن يكونوا عصريين أن وسائلنا القديمة أصبحت عديمة الجدوى ، وعلى ذلك نبذنا كل شىء صينى » .

أما اليابانيون فإنهم لم يحاكوا الغرب إلا فى الأمور العلمية الفنية ، فأبقوا منازلهم على ذوقهم الخاص بهم وعلى تقاليدهم . وكانوا منذ أكثر من ألف سنة قد اقتبسوا عن الصين زيهم وطراز أثاثهم ومعظم عاداتهم ، و بذلك يكون ذلك الذوق الصينى القديم ، البسيط فى جماله ، ما زال عائشاً فى اليابان ، وإن كان لا وجود له ، فى الوقت الحاضر على الأقل ، فى موطنه الأصلى .

نهض « ماك » واقفاً وقال : « ها هو ذا قد أتى » وانفتح البـاب ،

ودخل علينا سيد صيني يلبس نظارتين ، ومن ورائه امرأة صبية .

وقد كان من السهل أن أرى من أول نظرة أن « السيد ساو » من أهل الجنوب . فإنهم في العادة صغار الأجسام وليس على وجوههم من الشعر إلا النزر اليسير . وجلودهم رقيقة ناصعة اللون ، ويكاد منظرهم يكون أنثويًا إذا قورن بمنظر أهل الشمال الضخام الأجسام ، الذين امتزجوا على مر القرون بالتتار والمغول وغيرهم من الشعوب البدائية ، وأهل الشمال في الغالب أكثر سذاجة وفجاجة من أهل الجنوب .

انحنى « ماك » أمام « السيد ساو » وقال : « يسرني أن أقابل زعيم المعارضة » .

فبهت الرجل وقال : « لا بد أن يكون في الأمر سوء فهم ، فلا وجود للمعارضة في الصين » .

فدهش « ماك » بدوره وقال : « إذن ما الغرض المقصود من حزبكم ؟ »

فقال « السيد ساو » إن من أحب الشعارات لدى «ماوتسي تونج » القول المأثور : « من الشعب إلى الشعب » ، فالعقيدة التي يدين بها الشيوعيون أن كل خير وكل ما هو جميل ينبع من الجموع الهائلة الكادحة . وإذ كانت هذه الجموع تجد صعوبة في التعبير عن رأيها ، فإن الشيوعيين دائمًا في عونهم ، بأن ينصتوا لرغبات الشعب ويقوموا بتنفيذها .

وأهم الوسائل لتسمع أصوات الشعب هي لجان الأحياء (الشوارع) واللجان القروية . وإنك لتجدها في كل مكان مسكون في كافة أنحاء البلاد مع ضخامة رقعتها الهائلة . وتنعقد هذه اللجان في اجتماعات دورية مطردة ، يبدي فيها الناس آراءهم بطريق الأصوات . ثم تحال هذه الآراء إلى « الجمعية القومية ببكين » ، وهي شبيهة بالكونجرس (بأمريكا) أو مجلس العموم (في بريطانيا) . ومن اقتراحات الشعب الآنفة ما يتحول إلى مراسيم أو قوانين ، وهذه بدورها

يجرى شرحها فى اللجان القروية أو لجان الأحياء . وبذلك تكمل الدورة : من الشعب إلى الشعب .

وحاول « ماك » الكلام فقال : « ولكن كيف . . . » . غير أنه ما كاد ينطق بهذين اللفظين حتى رفع « السيد ساو » يده إشارة إلى أنه يريد إتمام كلامه أولا قبل أن نبدأ بتوجيه الأسئلة إليه .

وواصل كلامه فقال إنه ليس من السهل على الشيوعيون أن يستمعوا إلى جميع الصينيين ، وهم بهذه الكثرة . فهم لذلك سمحوا ببقاء نحو ستة من الأحزاب الأخرى بقصد قيامها بمعاونتهم . والحزب الذى يرأسه «السيد ساو» يمثل المثقفين .

ثم قال : « إن جميع أعضاء حزبى متفقون على أن الاشتراكية هى خير نظام يلائم الصين ، وقد نص نفس الدستور الجديد على ذلك فعلا . غير أن الكثيرين من أعضاء الحزب ليس لهم كبير اتصال بالشيوعيين ، ولذلك يفضلون الإعراب عن آرائهم عن طريق حزبهم » .

وهناك منظمات أخرى كثيرة تعاون الشيوعيين بهذه الطريقة نفسها ، منها النقابات والأندية النسائية ، واتحادات الشباب ، ومنها أيضاً « جمعية الصداقة الصينية — السوفييتية » . وهذه الجمعية الأخيرة وحدها تضم الآن أكثر من خمسين مليون عضو . وقد نضم إليها جيش الصين الحمراء وأسطولها فى صفقة واحدة . وهذا يذكرنى بقصة « فينج يوهسيانج » ، ذلك القائد المسيحى المشهور ، الذى عاش فى عهد « سيادة رجال الحرب » ، فإنه أجرى عملية تعميد جيشه بأكمله فى يوم واحد بأن سلطت عليه خراطيم إطفاء الحريق .

وحدثنا « السيد ساو » أيضا عن كيفية إجراء الانتخابات فى الصين الجديدة . فقال إن الحركة تبدأ بالتشاور بين الأحزاب للاتفاق على المرشحين ،

« ويجرى هــذا التشاور بروح الود والثقة المتبادلة » ، على أن تكون الأولوية لأبرز « التقدميين » مع عدم التمسك بضرورة عضويتهم فى الحزب الشيوعى .

ثم تقدم أشخاص المرشحين للجان القروية ولجان الأحياء المختصة بجهات إقامتهم ، وهناك يسمح لأى عضو بتوجيه الأسئلة إليهم أو نقدهم ، ثم يوافق جميع الأعضاء على ترشيحهم بصفة نهائية بالطريقة المألوفة وهى رفع الأيدى ، وبعد ذلك تبدأ عملية الانتخاب .

وهنا حاول « ماك » الـكلام مرة أخرى ، فقال : « ولـكن لماذا . . » ، ولـكن « السيد ساو » مضى فى كلامه غير متأثر بهذه المقاطعة ، فقال إنه خلال الانتخابات فى البلدان المسماة بالدول الديمقراطية ــ وكان فى ذلك يشير إلينا معشر الديمقراطيات الغربية ــ يكون الأثر الفعال للمال ، فالحزب الذى ينفق فى الانتخابات أكثر من غيره هو الذى يكسب المعركة . وهذا لا وجود له فى الصين ، حيث لا ينفق شىء من المـال فى سبيل الدعاية خلال الانتخابات ، ويقتصر الأمر على مجرد تقديم كشف المرشحين لأصحاب الأصوات ، وهؤلاء يقومون بتوقيعه ، والذين لا يعرفون منهم الـكتابة يبصمون بأصابعهم .

وهنا استطاع « ماك » أخيراً أن يزج بكلمة من عنده ، فقال : « وهل يعتمد الـكشف دائماً من أصحاب الأصوات ؟ »

« نعم بالطبع » .

« ولـكن ما العمل إذا كان بين المرشحين من لا يوافق عليه صاحب الصوت ؟ » .

« ما عليه إلا أن يشطب اسمه ويكتب مكانه اسماً آخر » .

« وهل يحدث ذلك كثيراً ؟ »

« كلا ، بل إننى لا أعرف حادثاً واحداً من هذا القبيل ، وإن صاحب الصوت الذى لا يوافق على مرشح بالذات ، ما عليه إلا أن يقول ذلك وقت تقديمه للجنة القروية أو لجنة الحى » .

عند ذلك قال « ماك » فى قنوط : « قد فهمت قولك ، ولكن هناك أمراً تبين لى ، وهو أن كل شىء يكون ، على ما يظهر ، متفقاً عليه من قبل ، فلماذا مكابدة مشقة الانتخابات ؟ » عند ذلك أخذ « السيد ساو » يحكم وضع نظارتيه وقال : « لأن . . . » ، ثم تنحنح قليلا وقال : « لأن ذلك من مقتضيات الديمقراطية » .

فنظر كل منا ، أنا و « ماك » ، إلى الآخر نظرة خاطفة . ثم قلت : « إننى أود أن أسمع مز يداً من البيانات عن لجان الأحياء . إن رؤساء هذه اللجان يكاد يكون جميعهم من التقدميين ، وجميع اجتماعاتها تنتهى دائماً بالموافقة الإجماعية على كل ما يقترحه الرئيس « فهل من الممكن أن يكون السبب فى ذلك أن الرئيس يعمد أحياناً إلى إغلاق الباب ويقول إنه لن يسمح بفتحه ثانية إلا بعد موافقة الجميع على ما هو معروض ؟ »

فهز « السيد ساو » رأسه وقال : «لقد سمعت بمثل هذه الحالات ، ولكن ذلك عمل خاطىء مناف للديمقراطية » .

ولابد أنه قد شعر فى هذه اللحظة بأن أنباء تجاربه الشخصية فى الديمقراطية الصينية قد تزيد فى قوة إقناعنا ، فأخذ يقص علينا شيئاً من سيرته الشخصية ، فقال : إنه أسس « الاتحاد الديمقراطى » منذ سنوات طويلة ـ وقت أن كانت مقاليد الحكم فى يد « شيانج كاى شيك » . وكانت له فى تلك الأيام صحيفته الخاصة ، ولكنها كانت دائماً تصادر فى كل مرة أقدمت فيها على نقد الحكومة . فانتقل فى نهاية الأمر إلى « هونج كونج » ، حيث كان يستطيع التعبير عن

آرائه فى حرية تامة فى ظل الحماية البريطانية .

فلما هاجم اليابانيون « هونج كونج » عاد إلى الصين ، غير أنه عندما قاربت الحرب نهايتها قامت شرطة « شيانج » السرية بقتل عدة من أعضاء حزبه البارزين ، وكانوا قد اجترأوا على المجاهرة بما كان يكنه كل صينى فى قلبه من أن حكومة «شيانج» فاسدة ولا تعمل لصالح الشعب بل لمصلحتها وحدها .

ثم واصل « السيد ساو » كلامه فى تحمس فقال : « وإن لنا الآن حكومة شريفة تقوم فعلا بعمل ما فى وسعها لمصلحة الشعب » . وقد أحسست وأنا أنصت إليه أنه كان يقصد ما يقول « وقد أبدى الشيوعيون ثقة بنا ، فعهدوا إلى الكثير من أعضاء حزبنا بمناصب عالية ، وهذا فضلا عن إصغاء الحكومة الجديدة لما نقدمه لها من النصح » .

عند ذلك اتجه ذهنى إلى السيدة حماتى . إنهاامرأة تهتم اهتماماً قلبيا بالشئون العامة ، وقد ظلت سنين طويلة تمد يد المساعدة لمنشآت خيرية شتى . فلما تسلم الشيوعيون زمام الحكومة تولت الدولة أمر الأعمال التى من هذا القبيل ، وأخذت هى تشعر بأنها أصبحت الآن أرملة ، وقد غادرها أبناؤها وصارت تحس بأنها وحيدة عديمة النفع . وكتبت إلينا إذ ذاك تقول : « لا أحد يرجو أية منفعة من امرأة عجوز مثلى » .

على أنه بعد قليل من وصولنا إلى « بكين » جاءتها دعوة من إحدى اللجان التى تمد الحكومة بمقترحاتها فى شأن الخدمات العامة بالعاصمة ، تدعوها إلى حضور اجتماعها القادم . ولم يبد عليها عند مغادرتها المنزل شىء يذكر من التحمس ، وتصورت أنها ستقتصر على مجرد الجلوس فى مكانها والاستماع لقراءة بعض التقارير . ولكنها عندما عادت إلى المنزل فى ذلك المساء كانت فى حالة نفسية رائعة ، وقالت :

« لقد دعى كل فرد من الحاضرين إلى التـكلم . وكنت أظن بالطبع أنهم لن يهتموا بسماع آرائى ، ولـكنهم تمسكوا بأن أعرب أنا أيضاً عن وجهات نظرى . وقد أبلغت فيما بعد أن مقترحاتى كانت وجيهة . وتصورى يا «شى يان» أننى انتخبت عضواً فى إحدى اللجان الخاصة للتفتيش ، أى أن أمك العجوز ، مهما كان من ظن سابق ، ليست عديمة المنفعة بالمرة .

كذلك كان يحس « السيد ساو » أنه عنصر نافع فى الصين الجـديدة ، وهذا هو السبب الذى من أجله يتعاون هو وحزبه مع الحـكومة . وقد حاولت أنا و « ماك » الوقوف على مبلغ نفوذ الأحزاب غير الشيوعية . فأجاب « السيد ساو » بأن جميع الأحزاب ممثلة فى المؤتمر القومى .

« ولـكن هل لهذه الأحزاب تأثير فى السياسة القومية ؟ »

« إلى حد ما » .

« وهل يستطيع إعطاءنا مثلا ملموساً لذلك ؟ »

فتردد « السيد ساو » قليلا ثم قال : « إن بعض الأساتذة قد شكوا أخيراً من أنهم ملزمون بحضور عدد أكبر مما ينبغى من الاجتماعات السياسية ، وإن ذلك يؤثر فى أعمالهم الرسمية . فعرضنا الأمر على أنظـار الحـكومة ، وصار الأساتذة الآن لا يحضرون غير الاجتماعات الهامة » .

فدهشنا أنا و « ماك » لهـذه الإجابة ورفعنا نظرنا من مذكراتنا . وسأله « ماك » : «أما يستطيع أن يذكر لنا مثلا . . نقصد ، مثلا يكون أقوى أثراً، نوعاً ما ، فى تصوير الأمر أمامنا ؟ » فقال : « إن ذلك لا يكون على الفور » ، ولـكنه أعاد القول بأن الحـكومة تعنى دائماً بمقترحات الأحزاب الصغيرة ، واختتم كلامه بقوله : « وهذا يفوق كل ما فعله « شيانج كاى شيك » فى جميع أيام حكمه » .

فأومأنا برؤوسنا إقراراً لذلك . ها هى ذى مزايا الشيوعيين قد ظهرت أمامنا واضحة جلية ، وخاصة إذا قورنت بحكم « شيانج » ولكن كان يبدو لنا أن أمراً واحداً ينقص الصين الجديدة ، وهو الحرية الفردية .

وكنت قد سمعت من الشيوعيين أن الشعب متمتع بحرية لا حد لها تحت حكم « ماوتسى تانج » غير أن « السيد ساو » كان أكثر حكمة عندما تناول هذا ، فقد أومأ إلينا فى أدب بأنه يجدر بنا الإلمام بالماضى السابق لوقوع الثورة ، إذ أننا لو نظرنا فى صحائف ماضى الصين ربما تبينت لنا الأسباب فى عدم تقدير الحرية الفردية فى هذه البلاد التقدير الكافى .

وقد أخذ « ماك » و « السيد ساو » يتناقشان فى معنى بعض الألفاظ ، مثل « الحرية » و « الديمقراطية » . أما أنا فقد شرد ذهنى إلى غير ذلك من النواحى لقد أخذت أفكر فى قيمة ما قاله « السيد ساو » وسرحت بذهنى فى تاريخ الصين الطويل .

فى الوقت الذى ولدت فيه الإمبراطورية الروسية ، تم توحيد بلاد الصين وصار يحكمها إمبراطور واحد . وكانت البلاد قبل ذلك تتألف من عدة ممالك ، تقوم على شئون كل منها حكومة بلغت فيها اللامركزية غايتها ، إذ لم يكن فى وسع الحكومات اللامركزية الاضطلاع بعبء مكافحة خطر الفيضانات ، ذلك الخطر الذى لم يكن يفارق البلاد قط .

وقد قضى « كونفوشيوس » معظم أيام حياته وهو يجوب البلاد ، يحض الحكام فيها على أعمال البر والعدالة ، فكانوا يقبلون على الإصغاء لفيلسوف الإنسانية العظيم ، و إن كان ذلك لم يمنعهم عما جروا عليه من الغلظة فى حكمهم فالتاريخ الصينى لا يفتأ يحدثنا عن رجال قضى عليهم بالنفى أو الخصاء جزاء اقترافهم أموراً صغيرة ضد العرش ، وفى حالات الذنوب الجسيمة لم يقتصر العقاب على المذنب وحده بل كان يقضى بإعدام الأسرة بأكلها . وكان اعتبار الأسرة

أو القبيلة مسئولة عن أعمال كل فرد منها عادة من العادات القديمة المتأصلة في الصين .

وكان الناس لا يجدون شيئاً من الغرابة في هذه العقوبات الصارمة ، إذ كان الولاء واجباً على الرعية نحو عاهلها ، فإن تفويضه الحكم آت من السماء ، والشعب مدين له بالطاعة العمياء ، مادام يحسن الحكم .

ولخروج الشعب عن الطاعة حد محدود . فإن تاريخ الصين مملوء بأنباء الثورات الدموية ، ولكن لم تكن من بينها ثورة واحدة ترمى إلى التطويح بالعرش نفسه ، فإن ذلك هو الخيانة العظمى . وإنما كان هدف الثائرين يقتصر دائماً على خلع الجالس على العرش إذا عم أحواله الفساد وعجز عن تدبير شئون الملك ، فصار بذلك غير خليق بالتفويض السماوى .

وكان الثوران لا يحدث عادة إلا عندما تكون الأسرة الحاكمة قد قضت في الحكم أحقاباً طويلة وفشا فيها التدهور . فإذا كثرت حوادث طغيان الفيضان بسبب عدم العناية بالجسور ، أو إذا زادت الضرائب زيادة فاحشة لا تحتمل ، فعندئذ يرفع علم العصيان ولا ينزل من مكانه إلا عندما يجلس على العرش عاهل جديد خير من سابقه .

وقد خضنا نحن الأوربيين الكثير من المعارك في بلادنا من أجل الحرية . أما الصينيون فلم يقوموا بشيء من ذلك إلا مرتين : إحداهما في الثورة التي قامت عام ١٩١١ ضد أسرة « مانشو » والأخرى الخروج على « المغول » المتبربرين عام ١٣٦٧ . والحاكمون في الحالتين لم يكونوا من الأسر الصينية .

وكان « المغول » عندما غزوا بلاد الصين في القرن الثالث عشر قد أزعجهم ألا يروا فيها غير المدن وحقول الزراعة ، ولا مراعى فيها لخيولهم . فكان الكثيرون منهم ينزعون إلى تقتيل الأهلين وتسوية المدن هدماً حتى ينمو الكلأ في مكانها ، لولا أن جاد الحظ بالإقلاع عن ذلك على إثر نصيحة من أحد

مستشارى «جنكيزخان » إذ قال لذلك « الخان » الأكبر إنه ليس من الحكمة أن تذبحوا الإوزة التى تبيض البيض الذهبى .

و بعد نحو قرن من الزمان أخذت حوادث التمرد تنخر فى قبضة « المغول » على الصين . وكان « المغول » قد وقعوا فى خطأ جسيم بعدم تعيينهم الموظفين الصينيين فى المراكز الإدارية بالحكومة ، مما أثار عليهم حقد طائفة المثقفين وجعلهم فى صفوف أعدائهم .

ومما يذكر عنهم أن وزيراً من وزراء « الخانات » قال ذات مرة إن أساس البلاء أن عدد الصينيين أكثر بكثير مما ينبغى ، واقترح قتل كل صينى يحمل اسم « شانج » أو « وانج » أو « ليو » أو « لى » أو « شاو » ، وذلك بمثابة اقتراح القضاء على كل إنجليزى يحمل اسم « جونز » أو « سميث » أو « جرين » أو « هوايت » أو « جونسون » . غير أنه قبل العمل بهذا الاقتراح ، كان قد تم القضاء على الحكم المغولى .

وقبيل انتهاء عصر القرون الوسطى بأوربا أخذت الثورات تزداد فى الصين يوماً بعد يوم . وكان السبب الأكبر فى نشوبها الضغط الناشئ من كثرة عدد السكان ، فلم يعد من الممكن الحصول على شىء من الأراضى الجديدة بالولايات الجنوبية الغربية بعد أن كانت هى التى تمص كل زيادة فى السكان إلى ذلك الحين ، فتضاعف بذلك عبء الولايات الواقعة على الشاطئ فى توفير الطعام للجموع المتزايدة .

واضطر المزارعون ، حرصاً على الحياة ، إلى محاولة كسب قوتهم من طريق بعض الحرف المحلية ، كنسج الأقمشة وصنع الآنية ، لبيعها فى المدن . وقد كان فى ذلك بعض العون ، ولكن سرعان ما جاءت الدول الغربية واليابان بمصنوعاتها الرخيصة واضطرت الصينيين إلى شرائها . ولم يكن فى طاقة المزارعين تحمل

المنافسة في هذا المضمار ، وبذلك ازدادت وطأت البؤس في البلاد ، وزادت معه محاولات الثوران .

وكانت من بين هذه المحاولات ثورتان هلكت فيهما الملايين من الأنفس . كانت الأولى في منتصف القرن الماضي ، عندما قامت الصين الجنوبية بقيادة زعيم مسيحي أطلق على حركته اسم « تاي بينج » « السلام الأكبر » . وقد انقضت عشر سنوات كاملة قبل أن تتمكن أسرة « ما نشو » بمعاونة الدول الأجنبية المسيحية من إخماد حركة الثائرين .

وكانت الثورة الثانية في أوائل هذا القرن ، عندما اكتسح كثيراً من أنحاء الصين الشمالية ذلك الفريق من الثوار الذين أطلق عليهم الأوروبيون اسم « الملاكمين » Boxers ، وكان هدف الثوار في أوائل الأمر خلع أسرة «مانشو» ولكن الإمبراطورة الماكرة استطاعت بدهائها أن تحول مجرى سخطهم إلى الدول الأجنبية ، التي كانت من قبل قد استغلت ضعف أسرة « مانشو» وأرغمتها على النزول لها عن بعض المزايا في الصين . وقد اشتدت حركة « الملاكمين » حتى إنهم حاصروا مندوبي الدول الأجنبية في حي السفارات ببكين ، ولم يمكن التغلب عليهم إلا بعد وصول قوات مسلحة أوربية ويابانية .

وقد ظن الكثيرون أن ثورة « تاي بينج » كانت حركة دينية ، وأن ثورة الملاكمين كان منشؤها شعور الصينيين بالكراهية للأجانب ، ولكن الحقيقة أن الانفجارين كان منشؤهما سخط المزارعين .

ثم جاءت حركة التطويح بالعرش الإمبراطوري في عام ١٩١١ . وقد أثبتت الأحداث أنها كانت هينة بدرجة لم تكن تخطر ببال — يرجع ذلك إلى أن الاستياء في البلاد كان قد بلغ مبلغاً لا مثيل له من قبل .

وكان الجانب الأعظم من الصينيين ينتظر أن يؤول العرش إلى أسرة جديدة تعقب « مانشو » ، وأكبر الظن أنه لو أتت وقتئذ أسرة ما وبذلت جهوداً

صادقة لتخفيف البؤس الذي عم البلاد بإيجاد حل ما لمشكلة المزارعين لقيت إقبالا من الشعب . ولكن قادة الثورة كانوا من أبناء الطبقات العليا ، وكانوا على مبدأ المثالية ولا يدرون إلا القليل عن مشا كل الصين الحقيقية . فقد كان على رأس الثورة « الدكتور سان ياتسين » ، الذي قضى معظم سنى حياته لاجئاً سياسياً باليابان أو انجلترا أو الولايات المتحدة ، وكان يريد أن يجعل الصين دولة ديمقراطية من الطراز الغربي .

وقد كانت محاولته لانتهاج هذا النهج مهزلة من أول أمرها وكأن العرش حين هوى هوت معه جميع مثل الصين الأخلاقية . فقد كان الصينيون دائماً شديدي الولاء ، ولكن لمن يكون هذا الولاء الآن ؟ أرجال الثورة ؟ إن هؤلاء قد بذلوا غاية وسعهم للقضاء على التقاليد القديمة ، ولكن النظم الجديدة التي حاولوا نقلها عن الدول الأجنبية لم تجد في الصين أرضاً صالحة تضرب فيها بجذورها . أما الصينيون «العصريون» الذين ملأوا الدنيا صياحاً عن الديمقراطية والحرية فلم يكد يكون بينهم أي نماذج لامعة يقتدي بها غيرهم . وكذلك ما جيء به من مبدأ « الفردية الجديدة » : فإنه كان يدعو في الغالب إلى نبذ مسئولية الأسرة أو القبيلة دون أن يأتي في مقابل ذلك بمسئولية جديدة يشعر بها القوم أمام المجتمع بأسره . أم كان يصح أن يكون الولاء لسادة الحرب ، الذين سرعان ما رأوا في هذه الظروف فرصة سانحة للقبض على زمام الأمور ؟

وقد جرى الصينيون منذ آلاف السنين على تسمية بلادهم « المملكة الوسطى » — أي وسط الدنيا . وفي هذا الاسم ما يشعر بالفخار ، ولكنهم أصبحوا يشعرون بالخجل على إثر ما لحق الصين من الضعف الذي أصغر شأنها في أعين العالم ، حتى أخذت انجلترا واليابان تتصرفان معها كما لو كانتا صاحبتي السيادة في البلاد . وقد أخذت المصانع تظهر تباعاً في المدن الكبرى الواقعة على الشاطىء ، وظهرت معها كما هي العادة معالم البؤس والآلام التي هي وليدة كل

انقلاب صناعى . فكانت جموع المزارعين الجياع الذين يهرعون إلى المدن يستغلون فيها أبشع استغلال من طائفة الرأسماليين الجديدة . وهذا فضلا عن الملايين الذين كانوا يموتون جوعاً فى أعقاب طغيان فيضان كبير أو قحط شديد، دون أن يحرك أحد أصبعاً واحداً لإغاثتهم .

فلما قهر «شيانج كاى شيك» سادة الحرب وقام بتوحيد البلاد قوبل بتحمس شديد ، على اعتبار أن البلاد قد حظيت فى النهاية برجل قوى يستطيع استعادة سطوة القانون ويعيد الأمن والنظام إلى نصابهما . غير أنه سرعان ما اتضح أنه من رجال سياسة المنازعات الفرعية أكثر من كونه من الساسة القادرين على إدارة دفة شئون الدولة ، وكان أهم ما شغل باله العناية بسلطته الشخصية .

وقد خسر شيانج « تفويضه السماوى » بعدم قيامه بعمل ما من أجل المزارعين ، الذين تبلغ عدتهم ثمانين فى المائة من جملة أهل الصين . وقد كان هذا التذمر من جانب المزارعين هو القوة الدافعة التى ساقت « ماوتسى تانج » إلى النصر .

والآن قد انقضت الحرب الأهلية بصفة نهائية ، وأصبح الصينيون يجدون أمامهم أهم ما كانوا يشعرون بالحاجة إليه ، وهو الحكومة القوية . وقد أخذت هذه الحكومة على عاتقها ما كانت تحمله الحكومة الإمبراطورية القديمة من المسئوليات تجاه المزارعين . أما أنها حكومة شيوعية ، فهذا لا يهم الصينيين كثيراً ، إذ لم يكن لهم اهتمام بالسياسة فى أى وقت مضى . فهم يشعرون بأنهم مدينون بالولاء للحكومة الجديدة ما دامت تحسن الحكم .

وأخيراً نظرت إلى « السيد ساو » ، وكان لا يزال يناقش « ماك » بشأن الديمقراطية ، وقد بدا لى أنهما لم يصلا بمناقشتهما إلى نتيجة ما . لقد قال : « السيد ساو » إن الصينيين لا يشعرون بأنه تنقصهم الحرية الشخصية . ربما كان على حق ، فإن أهم ما يريدونه هو القدر الكافى من الغذاء .

الفصل الثانى عشر

أيها الرفاق ، هذا قطاركم . . .

الصحف ! ! ! فوجئت برؤية هذه الكلمة بهذا الشكل وسط إحدى صفحات مذكراتى . فجعلت أسائل نفسى عن السبب الذى دعانى إلى كتابتها على هذا الوضع ، وأمامها كل هذه العلامات التعجبية . ها قد تذكرت الآن . لقد حصل ذلك فى أثناء رحلة إلى جنوبى الصين . فإننا كنا عائدين إلى الشمال، وفى طريقنا إلى محطة السكة الحديدية ، وفجأة استوقفتنى « شى يان » وجذبت ذراعى بيدها وقالت :

« أنظر إلى هـذا يا كارل ! »

وأشارت بيدها إلى كوم من الصحف على إفريز المحطة . وكان بجانب الصحف صندوق خشبى يحوى بعض قطع النقـد الصغيرة ، ولم أستطع قراءة النقوش الصينية المكتوبة على الصندوق ، فترجمتها لى « شى يان » ، وإذا بها : « خذ صحيفة واترك خمسة سنتات » .

فضحكنا معاً ، ثم قلت : « تصورى ما كان يحصل لو كان ذلك فى الأيام السالفة ! كانت النقود تسرق بمجرد وضعها فى الصندوق » . ولكن زوجتى هزت رأسها وقالت : « لا . بل ما كان ليوجد شىء للسرقة ، ولا سنت واحد ، لأن الناس كانوا فى هذه الحالة يكتفون بأخذ الصحف ، ولا شىء غير ذلك » .

ثم أتى الحمال بأمتعتنا ، وقال إنه يجدر بنا أن نسرع ، لأن القطار سيقوم بعد بضع دقائق . فأسرعت فى خطاى ، ولكن ذلك لم يكن إلا من قبيل المجاملة ، لأننى كنت أعلم من خبراتى الأليمة أن القطارات فى الصين لا تقوم قط فى مواعيدها .

ولما أتم مناولتي الأمتعة من نافذة مركبة السكة الحديدية سألته عن قيمة ما يستحقه مني . وكنت قد وطدت النفس لجدل عنيف يجرى بسبب ذلك — فإن الذى كان مألوفاً أنه عندما كان الإنسان ينقد الحمال أو صاحب العربة الصغيرة أجره ، كان يتهمه بأنه سيتسبب فى كسر وعاء الأرز فى بيته وإجاعة عياله ، وكان عادة يصيح بهذه التهم بأعلى صوته . فكان المسافر يتلافى إحراج نفسه ويدفع فى الغالب أكثر مما يقتضيه الأمر ، تحاشياً للموقف .

ولكن الحمال أجاب ، وعلى وجهه ابتسامة : « إن حسابى هو أربعة عشر سنتاً » . وهذا يعادل أقل من خمسة بنسات،مع أننى كنت أنتظر منه أن يطلب عشرة أمثال ذلك . وعندئذ أخرج تذكرة وكتب عليها شيئاً ما وناولها إياى وهو يقول : « ها هو ذا الإيصال . . . . . . »

وقد قوطع فى كلامه بصوت مدو يخرج من مكبر الصوت وسط المركبة ، وفى اللحظة نفسها أخذ القطار يتحرك . وكنت ما زلت واقفاً عند النافذة ، وتلك الورقة فى يدى ، وكنت من دهشتى لا أكاد أحس بتحرك القطار فعلا . فقد كنت أعرف أن الناس لا يستعملون الإيصالات فى الصين إطلاقاً ، بل إن المرء لم يكن يطالب أحداً بعمل حساب دقيق عن شيء — إذ كان من المسلم به أن الطباخ ، أو الغلام المساعد ، أو أى إنسان آخر تقريباً ، كان يحتفظ لنفسه بنسبة معينة من كل مبلغ يمر بيده . ولم يكن ذلك يعد غشا ، وإنما هو من قبيل العادة .

وما لبثنا أن سمعنا من مكبر الصوت صوتاً نسوياً يقول : « أيها الرفاق ، هذا قطاركم ، فالواجب عليكم أن تحافظوا على نظافته وأناقته بقدر ما فى وسعكم . فإذا أراد الأطفال قضاء حاجة لهم ، فلا تدلوهم من النافذة لهذا الغرض ولا تستعملوا المباصق لذلك ، فإنه توجد دورة مياه فى كل من طرفى الممر » .

وأخذ القطار يسلك طريقه فى الممرات الملتوية بين تلك المرتفعات الرقيقة الانحدار ، المزروعة أرزاً . فكانت حقول الأرز تبدو كأنها مجموعة من السلالم المائلة ، ضيقة عند القمة وتزداد طولا كلما قاربت السفح . وكان المزارعون يجمعون المحصول ، فكانوا يعملون مجتمعين فى فرق كبيرة تشمل كل منها الرجال والنساء معاً . وعند ما كانوا يسمعون دوى القطار وهو يقترب منهم كانوا يقفون العمل لحظة وينظرون إلينا من تحت قبعات القش العريضة الحافة التى يلبسونها ، والتى كانت تلقى على الأرض ظلا مستديراً .

وبدت أمامنا القرى تعلو مساكنها السقوف المنحدرة الرشيقة ، وكانت تقع عادة حول غدير ماء أو بالقرب من مجرى صغير ، وتظللها سيقان الغاب الهندى العالية الخضراء . وعلى مقربة منها ساحة تملؤها أكوام صغيرة منتظمة . تلك هى قبور الأسلاف ، وهذه القبور تشغل فى الصين نحو اثنين فى المائة من الأراضى المقابلة للزراعة ، أى ما يعادل نصف حجم انجلترا تقريباً .

ورأينا رجلا يمشى فوق جسر (كوبرى) ، وهو يئن تحت الحمل الخيزرانى الثقيل الذى يحمله على كتفه ، وكان يعلو وينخفض فوق كتفه فى رفق . ومع أننى لم أستطع سماع صوته ، فقد كنت موقناً أنه كان يدمدم بشىء من النغم : « إيه — هو . إيه — هو » ، شأن الصينيين الجنوبيين ، فإنهم يعمدون عادة إلى ذلك أثناء حملهم حملا ثقيلا .

وقد كنا فى أول الأمر وحدنا فى « الديوان » الذى ركبنا فيه . غير أنه انضم إلينا عند إحدى المحطات الأولى من الرحلة ضابط صغير السن يحمل بقبعته نجمة حمراء ، وبصحبته زوجته وأربعة من الأطفال . وتساءلت فيما بينى وبين زوجتى : «من أية جهة يكون ؟» فقالت «شى يان» : «على سبيل التخمين إنهم من الصين الوسطى» ، وقد اتضح أن حدسها كان صحيحاً ، إن هذا الأمر يمكن معرفته

مسموح للفلاحين فى الصين الشيوعية أن يبيعوا ما تنتجه قطعة الأرض « الخاصة » التى يملكونها .

←
فى بكين :
مدن الصين
مملوءة الآن
بأماكن من
هذا النوع
حيث يستطيع
الناس قراءة
الصحف .
*

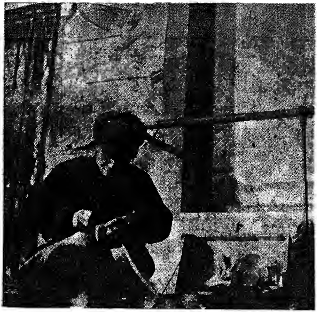

←
إسكاف يباشر
عمله فى الطريق

←

يوجد فى بكين الآن أربع دور للضيافة ينزل فيها المزارعون الذين يفدون على المدينـة . ويرى فى الصورة اثنان منهم يلعبان الدومينو فى عنبر النوم .

←

صورة شبيهة بما كان يرى فى الأيام الغابرة وقتما كان كل شيء على ما يرام

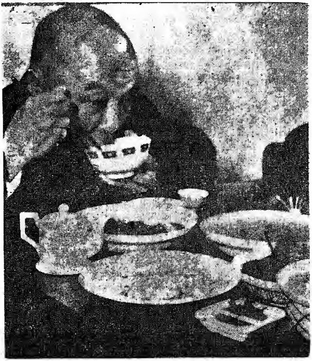

هذه هى الطريقة الصحيحة لأكل الأرز . . . بالعصا

من نبرات المتكلم ولهجته ، فإن لكل منطقة لهجتها الخاصة بها ، ولكن أهل معظم المناطق لا يجدون صعوبة فى فهم بعضهم بعضاً أكثر مما يجده الإنجليزى والإسكتلاندى مثلا فى فهم أحدهما الأخر . ولا تقتصر هذه الفروق على الاختلافات الطفيفة فى مخارج الأصوات ، بل إن هناك بعض عبارات محلية خاصة بالجهة ، ويتحتم على القادم الجديد أن يتعلمها .

غير أن هناك اثنتين من محافظات الصين يتكلم أهلهما لغات لا يكاد يفهمها سائر أهل الصين . وهاتان المحافظتان تقعان على الساحل فى الطرف الجنوبى من البلاد . وكان أهلهما يضطران فيما مضى إلى استعمال قلم الرصاص والورق عندما يتجولون فى أنحاء أخرى من الصين — هذا إذا كانوا يعرفون الكتابة. بل إننى سمعت مرة اثنين من الصينيين يتكلمان باللغة « البدجينية » (pidgin) وهى خليط بدائى من اللغتين الإنجليزية والبرتغالية مترجم رأساً عن الصينية . وكان منشأ هذه اللغة فى المدن الساحلية ، وكانت تستعمل كوسيلة للتفاهم بين الصينيين والأجانب .

وقد أخبرنا الضابط أن جميع الصينيين تقريباً يتكلمون الآن ، إلى حد ما « اللغة القومية » ، وهو الاسم الذى أطلق على لهجة « بكين » ، وفى ذلك بعض الشبه بما يسمى فى إنجلترا « لغة الملك » (King's English) . ويجرى التعليم الآن فى جميع مدارس الصين باللغة القومية ، كما أن الكثيرين من الكبار يعمدون إلى تعلمها أيضاً عندما يتعلمون القراءة والكتابة . ويبذل الشيوعيون جهداً عظيما للقضاء على الأمية ، وفى تقديرهم أن ذلك يستغرق ما بين ثلاثين وخمسين عاماً .

وعندما يتم ذلك سيحاولون أن يحل محل الحروف الصينية حروف الهجاء « الرومانية » . وستكون هذه خطوة خطيرة ، لأن لغة الكتابة ظلت هى

الأساس الرئيسي للوحـــدة القومية خلال تاريخ الصين الطويل . وهذه اللغة الـكتابية بعينها مستعملة فى كافة أنحاء البلاد ، وفى وسعنا أن نقول إنها ظلت حجر الأساس للثقافة الصينية ، التى ترجع بدايتها إلى قبل وقت بناء الأهرام بزمن طويل ، وهى مازالت حية إلى الآن .

ولـكن تلك الحروف مركبة شديدة التعقيد فإن عدتها ٦٠٫٠٠٠ حرف ، كل منها رمز لـكلمة ، وليس فى وسع أكبر الطلاب مقدرة أن يلم بها جميعاً . وإذا تسنى للمرء أن يعى خمس هذا العدد فقط وعياً جيداً ، فلن يبقى فى ذهنه متسع لشىء آخر من ألوان المعرفة .

والشيوعيون مصممون على إقصاء هذه الحروف ، باعتبار أنها عبء معرقل ثقيل لا تحتمله دولة حديثة ، فى حين أن رغبة الصين أن تـكون دولة من هذا الطراز . غير أن المشروع يقتضى بألا يبدأ استعمال الحروف اللاتينية إلا بعد أن يصبح جميع الصينيين يتكلمون لغة واحدة ، وإلا آل الأمر إلى أن تقوم كل محافظة بكتابة الألفاظ طبقاً لطريقتها هى فى نطقها ، و بذلك تنهار الوحدة .

وفى خلال حديثنا مع الضابط أشعلت « شى يان» سجارة ، وجعلت تنفض رمادها على أرض المركبة . وكان جميع الناس فى الأيام السالفة يلقون بكل شىء على الأرض ، فما كاد القطار يصل إلى نهاية مرحلته حتى كانت الفضلات تصل إلى كعوب أرجل المسافرين ، من قشور فواكه ولب قرع ، وقشر بيض ، ممزوجة بالبصاق وأشياء أخرى كثيرة .

على أننا لم نلبث أن رأينا « فراشاً » يأتينا و بيده مكنسة ومجرفة . ولم يكن من السهل الوقوف على مشاعره من ملامح وجهه ، إذ أن على وجهه ستار أبيض يغطى فمه وأنفه ، ولـكننى شعرت بأنه كان ينظر إلى زوجتى نظرة تقريع . وقد قام بكنس الرماد بكل عناية ، ثم عاد بعد لحظة ومسح الأرض . ثم إننا رأيناه كذلك ينفض الأتربة بالمركبة مرتين فيما بعض الظهر ، وعندما

تسربت ذبابة إلى ديواننا أخذ يطاردها فى الحاح ، ثم عنى بإزالة آثار قضائه عليها . لقد كان هذا أنظف قطار ركبناه فى حياتنا .

وكان بالديوان المجاور لنا أربعة من الأوربيين ، أتضح أنهم فنيون سوفييتيون أتوا لمعاونة الصينيين على بناء صناعتهم . وكانت العبارة الوحيدة التى يعرفونها من اللغة الصينية هى « دينج هاو » (حسن جـداً) ، وإذ كانوا لا يعرفون شيئاً من الإنجليزية أو الألمانية فلم يكن فى وسعنا التحدث إليهم .

والروس السوفييتيون الموجودون بالصين كلهم تقريباً مستشارون فنيون ، ولا يتجاوز عددهم بضعة آلاف . وهم يتقاضون مرتبات ضخمة جداً ، تتراوح بين مائتين وثلاثمائة جنيه إسترلينى فى الشهر ، أى بمتوسط يبلغ خمسة أمثال مرتب « ماوتسى تونج » . وليس من المسموح لهم أن يأخذوا معهم مبالغ كبيرة عند مغادرتهم البلاد ، ولذلك عمدوا إلى إيداع مدخراتهم فى شكل ملابس ، ومعاطف من الفراء ، ومصوغات ، وعندما غادر بعضهم البلاد كان معهم من المقادير الهائلة من الأمتعة ما جعل الناس يتحدثون بالأمر . وعلى أثر ذلك أبلغ الروس أنهم لن يأخذوا معهم بعدئذ عند مغادرتهم البلاد سوى حقيبة ملابس واحدة لكل منهم ، وبعد فترة وجيزة ظهر فى أسواق « بكين » نوع جديد من الحقائب الهائلة الحجم تحمل الواحدة منها ما يكفى لملء دكان بأكمله .

وليس هناك كبير اتصال بين الروس السوفييتيين والصينيين ، وفى كل من مدينتى « بكين » و « شنغهاى » خصصت للروس سيارات عامة لا يسمح لغيرهم بالركوب فيها . كذلك حدثنى أحد معارفى الصينيين بأنه تعرف منذ عامين بأحد العلماء السوفييت ونمت بينهما مودة كبيرة ، وفى ذات يوم طلب صاحبى إلى الروسى أن يزوره فى بيته ، فأعرب الروسى عن شديد رغبته فى ذلك لكنه قال إن الأفضل الحصول على إذن بذلك أولا . عند ذلك كتب الصينى إلى وزارة الخارجية ، وإذا بها تجيب بأنها تنصح للصينيين بعدم استضافة الروس السوفييتيين

بمنازلهم ــ لما فى ذلك من عظيم المسئولية إذا حدث لضيوفهم شىء ما .

وفى مركبات الطعام كان أمام الآكلين مجال للاختيار من بين اثنى عشر صنفاً صينياً لذيذاً ، ولكن الروسيين لم يطعموا شيئاً غير البطاطس وكتل اللحم الحمر . وفى حين أننا تناولنا طعامنا بالعيدان الخشبية الرقيقة ، انهالوا على أطعمتهم بالشوكة والسكين . ومع أنهم كانوا يفرغون الزجاجة بعد الأخرى من الجعة ، فقد بقوا صامتين متزمتين . وكانت الجعة من صنع الصين ، وكانت لا تقل فى جودتها عن الجعة الدانمركية .

وعندما غادر الروس القطار عند أول مدينة كبيرة ، استقبلهم على أفريز المحطة نحو إثنى عشر صينياً . وإننى لن أنسى قط التغيير الفجائى الذى بدا على هذا الوفد الذى أتى للترحيب بالقادمين . فقد كانوا واقفين على الإفريز فى صف منتظم ، فى رزانة وبمظهر رسمى . ولكن ماإن وقع نظرهم على الروس حتى ابتسموا جميعاً ، وانطلقوا يصيحون : « فلتحى الصداقة بين الشعب السوفييتى وجمهورية الصين الشعبية الديمقراطية » . ثم تقدموا فرداً فرداً وشدوا على أيدى الروس . وقد أظهر هؤلاء الآن أنهم أيضاً يستطيعون الابتسام .

والظاهر أن الأطفال الذين كانوا بالقطار ظنوا أننى روسى ، فكانوا كلما وقع نظرهم على يشدون أكمام آبائهم أو أمهاتهم ويقولون : « سوليين رين » (رجل سوفييتى) . ومعظم الأجانب فى الصين اليوم روسيون .

وكان الأطفال فى الأيام السالفة يطلقون على الرجال البيض اسماً مصطنعاً آخر ، وهو : «يانج جواى تزى» ، أى أنهم كانوا يسموننا الشياطين الأجانب ، مع أنهم كانوا يلفظون العبارة فى أدب ، بل حتى بنغمة ودية . وقد كان من الطبيعى تماماً أن يقرنونا بالشياطين ، إذا كان كل إنسان يعلم أن الشياطين ، فى الجحيم الذى ذكره «بوذا» ، ذوو شعر أحمر ، مثل الكثيرين من الأجانب .

وكان الأطفال الذين ضمهم ديواننا قد حافظوا طوال اليوم على السكون

والطاعة ، ولكنهم لما أقبل المساء أخذ يبدو عليهم القلق والامتعاض .

عندما قال لهم والدهم: «الأولى بكم أن تذهبوا إلى أمكم وتحضروا معها إجتماعاً قصيراً للنقد الذاتي» . وفي النصف ساعة التالي كنا نراهم جالسين مع أمهم يتكلمون في رزانة ، وكنا نفهم من تعبيرات وجهها نوع ما كانت توجهه لهم : من مدح أو تقريع . ثم انصرفوا للنوم في أحد الأسرة الصغيرة بالقطار .

ومن العجيب أن قد تسنى لهم الإستغراق في النوم رغم استمرار الراديو في الصياح بكامل قوته ، وكان من المستحيل إقفاله . وقد حيانا بعدد لا يحصى من الأغاني الجماعية ، وكانت الأنغام فيها روسية والألفاظ صينية ، وكان موضوعها في الغالب وجوب السير إلى الأمام كتفا إلى كتف مع التضحية بكل شيء من أجل الوطن الجديد ، وكانت من بينها أغنية « بنات الجر الديمقراطيات » . وقد بدت لي جميعها شبيهة بالأغنية الروسية « ملاح الفولجا » .

كذلك كانت هناك إذاعات منتظمة للأنباء . فكان من بين ذلك أن الصين قد أتمت الحصة المقررة لخطة الخمس السنوات الأولى مع أنه مازال باقياً من الزمن المقرر لذلك عام كامل ، ومنه أن إنتاج الألومنيوم قد ارتفع في الشهر الماضي بنسبة ٢,٨ في المائة ، وأن عاملاً نموذجياً قد سجل رقما قياسيا جديداً في مناجم الفحم ، وأن مزرعة جماعية في الشمال الشرقي قد أبلغت عن محصول وفير من فول « الصويا » .

وكان الإنسان عندما يكاد يستغرق في النوم يفاجأ بدقة قوية على الدف النحاسي ، تتلوها ضربات عالية على الطبول ، مع صدمات الصنوج وجميع الأصوات المرافقة التي تشملها الأوبرا الصينية . وقد يكون الأوربيون وحدهم هم الذين يبدو لهم ذلك شبيهاً بالضوضاء ويبحثون فيه عن لحن عذب فلا يجدون منه شيئاً .

على أنه في الصباح وجدت في الراديو ما يستطاب . فإنه بمجرد أن لاح ضوء النهار أخذنا نسمع موسيقى وتربية جماعية ، جاءت في الوقت الملائم . فقد

كان الجميع منهمكين فى تنظيف أسنانهم بالفرشاة أو تنظيف ألسنتهم أو تسليك حلوقهم ، وكانوا يبصقون فى مباصق زينت بصورة « حمامة السلام » (ابيكاسوا).

وكنا نرى خارج القطار الحقول السمراء يكسوها صقيع الليل الأبيض . وكان المحصول قد تم حصده من مدة طويلة ، ولم يبق فى الحقول إلا مخلفات الزرع . وكان المزارع يسيرون بجانب عربات النقل المحملة بالأتربة أو الطوب تجرها خيولهم، قاصدة مقر الأعمال الجارية وقتئذ : من شق الطرق وسط الأراضى المنبسطة أو إنشاء الجسور العريضة على جوانب تلك الأنهر التى تجرى كلها شمالاً فى طريقها إلى النهر الأعظم « يانجتزى » ، الذى هو الطريق المائى الرئيسى فى الصين الوسطى . وفى المدن كانت المصانع الحديثة البناء تنفث دخانها الأسود فيعلوا مصعداً نحو السماء الزرقاء .

وعندما بلغنا «هنكاو» ، التى هى أهم المدن فى وادى « يانجتزى » ، غادرنا القطار ، فكنا نرتعد من شدة البرد ، إذ كنا فى السنوات العشر الماضية نقضى الشتاء دائماً فى المناطق الحارة ، فكانت هذه أول مرة نذوق فيها هذا الجو الشمالى الجليدى .

وقد رأينا آلاف العمال يعملون فى بناء « كوبرى » فوق هذا النهر العظيم الذى يقسم الصين قسمين . وعندما يتم بناء هذا الكوبرى يكون فى وسع الإنسان أن يقوم بالرحلة كلها ، من جنوبى الصين إلى الحدود السوفييتية ، بالقطار دون إنقطاع ، وهى رحلة سوف تستغرق نحو خمسة أيام بالقطار السريع .

أما الآن فقد كان أمامنا أن نعبر هذا المجرى المتدفق بطريق (المعدية) . فلما عدنا إلى القطار فى الجانب الآخر من النهر شعرنا من الحالة الواقعة أننا قادمون على الشمال حقاً . فإن معظم أهل الصين الجنوبية قلما يستعملون الثوم ، أما أهل الشمال فإنهم يأكلونه نيئاً مع طعامهم . وهناك نكتة تقول : « إن الشماليين إذا دخلوا قطاراً سقط الذباب من سقفه ميتاً » ، رواها لنا صاحبنا الضابط .

سار بنا القطار وقد اختفت خمائل الخيزران الخضراء ، وأخذ الهواء الجاف يلهب شفاهنا . وأثارت الرياح سحباً من الغبار ، فكان ينفذ إلى الداخل بصورة ما عن طريق الأبواب والنوافذ حتى لقد كنا نحس بصريره بين أسناننا ، واضطر « الفراش » إلى إزالته بالمنفضة والمسحة . لقد كنا نقترب من تلك البقاع الطفلية الشاسعة التى تكتنف « النهر الأصفر » .

والأنحاء المحيطة بهذا النهر هى التى ابتدأ فيها ظهور الحضارة الصينية ، ومنها أخذت تنتشر إلى ما يليها من الجنوب ، وكانت وديان الأنهر فى مقدمة منازل تلك الحضارة ، ومازالت هى أغزر بقاع الصين سكاناً . فإن ٥٨٠ مليوناً من أهل الصين يقطنون فى ذلك الثلث من رقعتها ، الواقع بجوار الساحل ، وفى وادى « يانجتزى » الذى يصل إلى قلب القارة . أما العشرون مليوناً من جملة السكان ، فموزعة فى تلك الفيافى الشاسعة القحلاء الضاربة فى أعماق الداخل .

وكان المتكلم فى مكبرات الصوت يحدثنا أحيانا عن الأصقاع التى نمر بها فيذكر لنا أشهر محصولاتها وعدد سكانها ، والأشياء التى يمكن شراؤها فى محطاتها مما تخصص أهلها فى صنعه . وقد نعمت « شى يان » بهذه الفرصة ، فكانت تنطلق مسرعة عند كل محطة لتتذوق تلك الأشياء ، إذ كانت تتلهف على تلك المأكولات الصينية اللذيذة التى افتقدتها سنوات طويلة : كالدجاج المدخن ، والزعرور البرى الملبس بالسكر والمغروس به أعواد خشبية ، والحلاوة السمسمية ، وغيرها . وكان المكان الوحيد الذى لم تشتر منه شيئاً بلدة تخصص أهلها فى صنع دواء خاص للعيون .

قال المذيع : « ها نحن أولاء نقترب الآن من « كايفينج » ، التى هى مركز إنتاج القطن » . وكان هذا هو المكان الذى سنغادر فيه القطار .

وكنت منذ عشرين عاما قد قضيت فى « كايفنج » هذه ما يقرب أسبوع لاستقصاء موضوع آخر من عاش فى الصين من اليهود . وقد كان أحد

اليسوعيين هو الذى أظهر للعالم أن الصين ، على بعدها ، لم تخل من مستعمرة يهودية . ذلك أنه عندما قدم هذا اليسوعى إلى « المملكة السماوية » فى أوائل القرن السابع عشر ، سمح له الإمبراطور بالنزول فى عاصمة البلاد والقيام فيها بالدعوة لدينه . وفى ذات مرة زاره رجل تسمى باسم « آى » (ومعناه باللغة الصينية الحب) . وقد لاحظ اليسوعى أن « آى » هذا ، مع ارتدائه الرداء الطويل المألوف فى الزى الصينى ، لم تتوافر فى وجهه القسمات الصينية ، بل كان ذا أنف أقنى وعينين غائرتين رماديتى اللون .

وقال « آى » إنه قادم من مدينة كبيرة على مقربة من « النهر الأصفر » حيث تقيم جماعة من الناس يختلفون فى دينهم عن بقية الأهلين ، وليسوا مع ذلك من المسلمين . ثم قال : « وأظننا نعبد نفس الإله الذى تعبدونه » .

فتعجب اليسوعى فى نفسه ، وظن أنه قد عثر على سـلالة جماعة من « النساطرة » كانوا قد طردوا من سورية منذ نحو مائة عام لخروجهم على أصول الدين . وكان المعروف أنهم اتخذوا الصين دار إقامة لهم ، وأنه كانت تصل عنهم أحياناً بعض الأنباء إلى كنيسة روما عن طريق السياح ، دون أن يكون بينها وبينهم اتصال مباشر .

وذهب الرجلان معاً إلى الكنيسة . فركع اليسوعى أمام « العذراء » وأدى بيده علامة الصليب . أما « آى » فانه ركع أيضاً ، ولكنه لم يقم بأداء علامة الصليب ، فضلا عن أنه نهض واقفاً فى سرعة شديدة . ثم قال : « إن قومى لا يعبدون التماثيل ، وإن كنا لا نمانع فى الركوع أمام الأسلاف ، لأن ذلك عادة صينية نقابلها نحن باحترام .

ولما أطلعه اليسوعى على صورة الحواريين أومأ برأسه بما يشعر بالموافقة ولكنه قال إنهم لا بد أن يكونوا هم أبناء يعقوب . الاثنى عشر أما « العذراء » فقد ظنها « رفقة »

وقد شعر اليسوعى بشدة الاستياء حين علم أن « آى » وقومه ليسوا بالمسيحيين ، وأنهم يهود . على أنه قضى بضع ساعات مع زائره ، وإننا نجد فى المذكرات التى دونها عن الحادثة التى جرت بينهما مصدراً زاد كثيراً من معلوماتنا عن اليهود الصينيين .

والمفهوم أن اليهود وفدوا على الصين فى عهد عاهلها « مينج تاى » الذى حكم من سنة ٥٨ إلى ٧٦ بعد الميلاد . وأغلب الظن أن قدومهم كان فراراً من الرومان عندما دمروا « بيت المقدس » بعد سبعين عاماً من مولد المسيح . ولا بد أن عدد أولئك المهاجرين كان كبيراً إلى حد ما . أو أنهم تكاثروا فى سرعة شديدة عقب وصولهم إلى الصين ، إذ الثابت أنه كان يوجد بمدينة « كايفنج » حوالى عام ٤٠٠ ، سبعون أسرة يهودية كبيرة . وكانوا يتعبدون فى كنيس كبير بنى على الطراز الصينى ، ولكنه لم يكن مواجهاً للجنوب كسائر المعابد الصينية ، بل كان يواجه الغرب — شطر « بيت المقدس » . وقد أودعت أقدس حجرة فيه ثلاثة عشر كتاباً من كتب اليهود المقدسة .

ونعثر أحياناً فى التاريخ الصينى على أسماء عجيبة لبعض موظفى الدولة ، مثل : آه — تان ، وآه و و — لو — هان ، وآى — تزى — لا ، ولييه واى ، وبى — تزى — لوه — ييه . ذلك أن الصينيين يتعذر عليهم النطق بمثل لفظ آدم ، وأبراهام ، وعزرا ، وليفى ، وإسرائيل ، فتلك كانت طريقتهم الصوتية فى التعبير عن تلك الألفاظ بالأحرف الصينية .

وما قاله « آى » إن اليهود لقوا معاملة حسنة من الصينيين ، ولعل السبب فى ذلك أنهم لم يحاولوا تحريض أحد على اعتناق دينهم وساروا على العادات الصينية بقدر ما فى وسعهم ، غير أنهم احتفظوا بقداسة يوم السبت ، ولم يسمح لأحد منهم بالتزوج بأكثر من زوجة واحدة .

أما مهاجرو « النساطرة » فإنهم لم يحظوا فى الصين بمثل ذلك المصير . فقد

أحسن استقبالهم فى أول الأمر ، بأن سمح لهم ببناء الكنائس فى مدن معينة وعين بعضهم فى مناصب الحكومة . وقد شمل الكثير من الأباطرة الديانة المسيحية برعايته الخاصة ، بل إن أحدهم أصدر المنشور التالى على أثر إستقباله قسيساً « كاثوليكياً » يدعى « أولو بين » (رو بين) :

إن « الطريق » (القويم) له أكثر من اسم واحد ، وفى الوجود أكثر من حكيم واحد . والعقائد تختلف باختلاف البلدان وثمارها تصل إلى الجنس البشرى بأكمله . إن « أولو بين » ، ذلك الرجل المتحلى بأعظم الفضائل ، القادم من « تاى تسين » (الأمبراطورية الرومانية) ، قد حمل معه كتبه وتماثيله مع طول شقة السفر ، لعرضها فى عاصمة بلادنا . و بعد أن أنعمنا النظر فى عقائده وجدناها ذات تعمق فى النظر جانحة إلى السلام ومبادئه . . تحث على الخير وكل ذى شأن عظيم ، وتعاليمه ليس فيها شرود ، ومحاجته سليمة . إن هذا الدين يعود بالنفع على جميع الناس ، فليسمح بالدعوة له بلا قيد فى أنحاء عاهليتنا »

وسرعان ما اشتهر « النساطرة » فى الصين بحسن بلائهم فى القتال ، وأسند إلى الكثير منهم مراكز عالية فى الجيش الإمبراطورى . وقد عظم نفوذهم إلى حد كبير ، حتى لقد قيل إن الأباطرة أخذوا يخشون جانبهم . ومع ذلك لا يعلم ماذا كان مصيرهم ، إلا أن سائحاً ، ممن وفدوا على الصين بعد ذلك بعدة مئات من السنين ، روى أن « النساطرة » وكنائسهم لا وجود لهم بعد فى الصين ولم يبق لهم فيها أثر ما . وقال السائح إنه سمع أنه كان يوجد بالصين أناس يؤدون علامة الصليب ولكنه كان يعزى إليهم أنهم لم يعرفوا السبب فى قيامهم بذلك .

أما اليسوعيون الذين وفدوا على الصين فى القرن السابع عشر ؛ فإنهم أيضاً لم يطيلوا المكث فيها . وكانوا فى أول أمرهم قد حولوا إلى دينهم كثيراً من الصينيين ، غير أن « البابا » استشاط غضباً عندما سمع بأن القساوسة فى تلك

الديار الصينية النائية آخذون فى التحول شيئاً فشيئاً إلى ما يشبه أحوال الصينيين. فإنهم كانوا يطاقون الألعـاب النارية فى الإحتفالات الدينية ، جرياً على العادة الصينية القديمة ، وأنهم كانوا يسمحون للصينيين الذين اعتنقوا المسيحية بالركوع أمام هيكل أسلافهم ، وقال البابا عن هذا الأمر الأخير إنه تقليد وثنى وأصدر أمره بتحريمه . فاستاء العاهل الصينى لذلك أشد الأستياء ، ونفى أولئك القسس من بلاده .

وأما اليهود فى الصين ، فلم يسمع عن أمرهم شيء بعد تلك الزيارة التى قام بها « آى » إلى بكين ، إلا بعد أن مضى على ذلك نحو مائتين وخمسين عاماً ، حين مر أحد مبشرى البروتستانت بمدينة « كايفينج » ورأى أنه لم يبق بالمدينة من اليهود سوى نحو عشرين أسرة . وقد اختفى تقريباً ذلك الأنف الأفنى من وجوه القوم نتيجة لتزاوجهم مع غيرهم . وكان الـكنيس فى حاله تهدم ، ولم يكن هناك من يستطيع قراءة الـكتابة العبرية التى نسخت بها الأسفار المقدسة المودعة داخله.

وعند قدومى إلى « كايفينج » فى عام ١٩٣٧ ، لم يكن قد بقى شيء من الـكنيس إطلاقاً ، وهنالك سمعت بأن الأحجار التى تخلفت عن مبناه قد بيعت لمسلمى الجهة واستعملوها فى بناء مسجد لهم . وقد وقفت إلى مقابلة شخص واحد من أخلاف أولئك اليهود — وهى امرأة عجوز تدعى « آى » ومع أننى لا تخوننى مخيلتى عادة ، فقد تعذر على أن أتبين شيئاً فيها من المعالم اليهودية . وقد كانت تعلم بأن أسلافها كانوا غرباء عن الصين ، فقالت : « ولـكننا نحن قد أصبحنـا صينيين »

على أن اليهود قد تركوا وراءهم فى الصين أثراً واحداً ، وهو ذلك المثل الذى نسمعه يتردد أحياناً على ألســنة الصينيين ، « إنه بخيل ، لا بد أنه من « كايفينج . . . » .

وقد صفرت القاطرة ، ثم وقف القطار ، وبعد هنيهة كنا فى « كايفينج » .

الفصل الثالث عشر

النهر الأصفر

خرج العمال من معسكراتهم فى بزوغ الفجر ، وساروا صامتين فى صف طويل ، وكل منهم يحمل مجرفته على كتفه . ثم وقفوا أمام مبنى الادارة لقراءة مقياس الحرارة . لقد كانت درجة الحرارة ١٤ تحت الصفر بالمقياس المئوى ! فأبدوا ارتعاداً من البرد ثم انطلقوا فى طريقهم إلى النهر .

قال المهندس عندما صعدنا السيارة : « كانت درجة الجو فى أحد الأيام الأخيرة ٢٠ تحت الصفر ، وقلنا للعمال إذ ذاك إنه من الممكن إعفاؤهم من العمل فى ذلك اليوم مع صرف مرتباتهم عنه ، ولكنهم لم يقبلوا ذلك ، إذهم يعرفون مبلغ الخطر الذى يتهدد الحالة . إن معظمهم من مزارعى تلك الجهة التى أغرقها الفيضان فى الصيف الماضى .

قلت : « أما تستخدمون فرق العمل الاجبارى ؟ » وكنت إذ ذاك أشعر بأصابعى وكأنها قد تجمدت على الرغم من قفازى السمك .

فأجاب : « كلا ، إننا لا نستخدمها فى هذه الجهة ، فإننا نقصى أولئك العمال عن المشروعات الهامة ، حيث نستعمل الآلات أو الديناميت ، لأن بعضهم مازال ذا موقف عدائى ولا نستطيع الثقة بهم ، وهم الآن يعملون فى بناء الجسور على جانب النهر بعد انحداره من هنا بمسافة ما » .

ثم دفع بجهاز إدارة محرك السيارة ، و بعد لأى وتلكؤ دار المحرك ، وانطلقنا وسرنا منحدرين على الطريق وسط سحب من الغبار ، فكنا نضطر إلى استعمال البوق مراراً ، إذ كان العمال قد أرخوا حواف قبعاتهم فكان يتعذر عليهم سماع حركة قدومنا .

وواصل المهندس كلامه فقال : « إن لدينا فى الوقت الحاضر عشرين ألف عامل فقط ، وهذا فيه الكفاية مادمنا لا نزال فى الأعمال التمهيدية ، وبعد عام أو نحو ذلك ، نبدأ فى بناء الخزان ، سيكون لدينا ضعف هذا العدد » .

وعند ذلك أخذ محرك السيارة فى التعثر . فنقل المهندس جهاز منظم السرعة إلى المركز الثانى ، ثم إلى الأول ، فلم يثمر ذلك شيئاً أمام شدة انحدار الطريق ونحن مصعدون ، وكانت السيارة تشيكوسلافية من النوع الذى يرى الآن فى كل مكان فى الصين . ومن رأى معظم سائقى السيارات الصينيين أن آلة هذه السيارة أضعف مما ينبغى ، ولكن الشيوعيين يمتدحون هذه السيارات لأنها صنعت فى إحدى « الديمقراطيات الشعبية » . على أن ذلك لم يمنعهم من طلب ثمانمائة سيارة من نوع « مرسيدس » من ألمانيا الغربية الرأسمالية . وقد وصلت هذه السيارات الجميلة منذ بضعة أشهر ، ولكن استعمالها مقصور على موظفى الدولة . وعندما يركب هؤلاء الموظفون فى السيارة يسدلون الستائر دائماً — وهى عادة اقتبسوها عن زملائهم السوفيتيين .

وعندما بلغنا القمة فى هذا الطريق المصعد شعرنا كأن يداً خفية تمسك بالسيارة وتهزها هزاً . لقد كان ذلك من شدة قوة الرياح التى انطلق لها العنان فى هذا المكان المرتفع ، وازدادت شدة الوطأة بهبوب الغبار فى صورة دوامة عنيفة . فتشبثت « شى يان » بذراعى ، وعمدت وأنا بدورى إلى توطيد قدمى بشدة فى أرض السيارة ، ذلك لأننا كنا نسير على شفى هاوية مخيفة .

وأومأ المهندس برأسه تجاه المياه التى كانت تزمجر من تحتنا ، وقال : « هذا هو النهر الأصفر » وقد اضطر إذ ذاك إلى استعمال « الفرامل » إذ بدأنا نهبط مع هذا الطريق الشديد الانحدار ، ثم أضاف : « إن النهر كما ترونه الآن ليس سوى ظل من حقيقته ، التى تظهر لكم إذا شاهدتموه بعد بضعة أشهر ، عندما تذوب الثلوج فوق المرتفعات ، وعندئذ تبلغ المياه ذلك الحد الذى ترونه هنالك »

وأشار بيده إلى الجانب المقابل ، وكان عارياً شديد الانحدار ، وقد ظهر فى أعلاه خط ضئيل على علو شاهق من تلك المياه الصفراء .. ولقد رأيت النهر يرتفع ستين قدماً فى ظرف بضع ساعات ، وكان له إذ ذاك دوى شديد كصوت الرعد ، حتى لقد كان المرء لا يكاد يسمع نفسه إذا تكلم » .

ثم وصلنا إلى كوبرى معلق ؛ كان يعلو فوق سطح الماء بما يقرب من مائة ياردة ، وهنا غادرنا السيارة وسرنا على الأقدام . ولم أجرؤ خلال السير على الكوبرى على الالتفات يميناً أو يساراً ، إذ كان يبدو لى أن الكوبرى يترجح بنا فى الهواء إلى الأمام والخلف ؛ ولعل شعورى هذا كان عن مجرد وهم . وكان الشطر الأول من الكوبرى يمتد من « سقالة » شبيهة بالبرج المائل إلى صخرة هائلة وسط النهر ، ومن ثم يمتد الشطر الثانى إلى الشاطىء المقابل ، وقد سرت أنا و « شى يان » الخطوات الأخرى من الكوبرى جريا ، ثم تنفسنا الصعداء عندما شعرنا بأرجلنا تقف فى النهاية على الأرض اليابسة .

وكنا نقف وقتئذ على درب ضيق قام بنحته فى الصخر أولئك العمال الأجراء المختصون بسحب السفن المصعدة فى النهر . وهذه البقعة من النهر تسمى « مضيق جهنم » ، إذ ليس فى مجرى النهر كله البالغ ثلاثة آلاف ميل بقعة أخرى يجرى فيها التيار بمثل هذه الشدة . وقد يقضى العمال عدة أيام فى سحب السفينة الواحدة حتى تجتاز هذا المضيق .

عندئذ نظر المهندس إلى فى تساؤل وقال : « أتدرى ما الذى أسقط أسرة « تانج » ؟ فتطلعت إلى « شى يان » ، إذ لم تقتصر على كونها قاموسى المتحرك ، بل كانت أيضاً دائرة معارفى فى الشؤن الصينية . فقالت ، من وراء ملفحتها السمكية ، إن أباطرة أسرة « تانج » حكموا من القرن السابع إلى العاشر ، وفى عهدهم بلغت الثقافة الصينية غاية ازدهارها ، وفى أواخر أيامها قامت ضدها ثورة أضعفت من قوتها وانتهت بسقوطها .

قال المهندس : « حقاً . ولكن النهر كان رأس البلاء فى القضاء على « أسرة تانج » ، إذ كان هو سبب التذمر الذى لولاه لما كانت الثورة » . ثم أوضح أن مقر الأباطرة فى ذلك الوقت كان فى مدينة تقع فى أعالى المجرى فيما يلى هذا المضيق من الغرب . وكان المزارعون يدفعون ما عليهم من الضرائب أرزاً ، وإذ لم تكن هناك طرق نقل برية ، كان الأرز ينقل بالسفن إلى أعالى المجرى ، فكانت آلاف السفن تهلك كل عام عند مرورها بالدوامات المائية أى أن ثمرة جهود الشعب كان يبتلعها « مضيق جهنم » هذا . وكان من حكمة الأسرة التالية أن نقلت عاصمة ملكها إلى مدينة شرقى المضيق .

عند ذلك سمعنا زمجرة شديدة قطعت على المهندس حديثه . فاهتزت الأرض ورأينا على بعد مائتى ياردة منا إنهياراً أرضياً هائلا . فلما ركزت الأتربة التى أثارها الانفجار هرولت جموع العمال إلى العمل من جديد . فجعلوا يفتتون الصخور بمطارقهم ، تعلو وتنخفض ، ثم ينقلون أجزاءها بمجارفهم إلى المقاطف فتحمل إلى ذلك المكان المنخفض الذى سوف يبنى فيه القطاع الأول من الخزان وكانت ضربات الصلب فى الصخور تحدث شرراً ، وحاملوا الحجارة يغدون ويروحون فى صفوف لا تنقطع ولا تكل ، مما يصح معه القول بأنه من الممكن فى الصين نقل الجبال من أماكنها .

« والنهر الأصفر » يروى نحو أربعين فى المائة من أرض الصين الزراعية وقد مضى على الصينيين ثلاثة آلاف من السنين وهم يسجلون أحداث هذا النهر . ففى خلال هذه المدة طغى فيضانه على الأراضى ألفاً وخمسمائة مرة ويقدر عدد من أغرقتهم مياهه ، أو ماتوا جوعاً بسبب ماتلا فيضاناته من القحط ، بعدة مئات من ملايين الأنفس . ولم تسجل لهذه الأحداث أرقام تفصيلية دقيقة ، ولكن المعروف أنه خلال الفيضان العالى الأخير الذى حدث عام ١٩٣٨ ، عندما قام جنود « شيانج كاى شيك » بنسف الجسور بالديناميت

لوقف اليابانيين ، غرق من الأهلين ثمانمائة وثمانون ألف نفس .

وفى يوم ما كان مصب النهر بالقرب من « بكين » ؛ ثم غير مجراه فصار يصب بجوار « شنجهاى » ، أى جنوبى مكانه الأول بنحو ألف ميل . ثم عاد فتحول إلى مجراه الحالى جنوبى « بكين »

وقد أخبرنا المهندس أنه لا يوجد فى العالم نهر آخر يعادله فى عكر مياهه حتى ولا نهر النيل . فإن كل ياردة مكعبة من مياهه الأخير ، بمتوسط حالاتها خلال العام ، لا تحمل سوى رطل وسبعة أعشار الرطل من الطمى ، فى حين أن الياردة المكعبة من مياه النهر الأصفر » تحمل سبعة وخمسين رطلا ، وإذا ارتفعت مياهه عقب مطر غزير قد يصل المقدار إلى تسعمائة وخمسة وسبعين رطلا.

ثم قال المهندس : « وإذا جمعت كل الطمى الذى يفرغه النهر فى البحر الأصفر » فى عام واحد وبنيت به سوراً بسمك ياردة وعلو ياردة أيضاً لكفى السور لأن يحوط بالكرة الأرضية عند خط الاستواء ثلاثاً وعشرين مرة .

ومعظم هذا الطمى يرد من الأنحاء الطفلية الخصيبة الواقعة فى الشطر الشمالى الغربى من الصين . وهى أصقاع جبلية شاسعة ، وفى بعض أجزائها تجرف مياه الأمطار معها كل عام ما يبلغ سمكه نصف قيراط من سطح الأرض .

كيف يستطيع الإنسان وضع حد لهذه الفيضانات وهذا التآكل العظيم ؟ لقد كانت هذه المسألة موضع تفكير عميق من جانب حكام الصين منذ أيام عواهلهم الأوائل ، وجرت العادة منذ آلاف من السنين على بناء الجسور ولكن القوم كانوا يضطرون دائماً إلى تعليتها مرة بعد مرة ؛ لأن النهر كان ماضياً فى رفع مستواه بنفسه بما يركز فيه من رواسب، ولا مناص من جنوحه بعد مدة ، طالت أو قصرت ، إلى قطع تلك الجسور ، فتتدفق منها مياهه .

لقد استدعى « شيانج كاى شيك » فى عام ١٩٤٦ جماعة من المهندسين الأمريكيين للطيران إلى حوض « النهر الأصفر » ، وبعد جولة وجيزة هنالك

أعلنوا أن الحل الوحيد للمسألة إنما يكون ببناء مجموعة من الخزانات مع زرع مجرات كبيرة من الغابات في نفس الوقت الذي يجرى فيه البنـاء . وقالوا إن المشروع يستغرق نحو قرن من الزمان ويتطلب قدراً من الآلات لا طاقة للصين بدفع ثمنها .

وقد ابتسم المهندس عند استعراض هذا الكلام وقال : « إننا في الصين الجديدة لا نقيس مثل هذه الأشياء بالدولارات والسنتات ، ولعل هذا هو السبب في عدم استسلامنا للتخاذل إزاء هذه المصاعب ، وقد وطدنا العزم على بناء مجموعة مؤلفة من أربعة وأربعين خزاناً . وسيكون أكبرها وأعظمها شأناً بلا نزاع هو ذلك الذى سيقام في هذه البقعة ، عند « مضيق جهنم » وسيكون هذا الخزان وحده كفيلا بمنع الفيضانات ، وسوف يتم بناؤه عام ١٩٦٢ .

وفي هذه اللحظة قدم إلينا رجل يحمل راية حمراء ، وأنبأنا بأن انفجاراً آخر سيحدث بعد هنيهة . فأوينا إلى طرف كان بعض العمال قد تجمعوا تحته ، فأومأوا إلينا برؤوسهم وأفسحوا لنا مكاناً .

ثم واصل المهندس كلامه فقال : « إن معظم هؤلاء العمال سيصبحون بلا بيوت ، لأن جدار الخزان سوف يمتد في النهر بين الشاطئين ، مكان هذا الكوبرى المعلق تقريباً » . ثم قال ، وهو يشير بذراعه إلى ما يكاد يشمل معظم أرجاء الوادى : « كل ذلك سوف تغمره المياه ، فتحل محله بحيرة يزيد سطحها على خمسمائة ميل مربع ، ولذلك سنضطر إلى إجلاء أكثر من نصف مليون نفس عن هذه الجهات .

وسوف تستوعب البحيرة الصناعية كل المياه مهما زادت حتى بعد سقوط الأمطار الغزيرة ، وبذلك يزول كل خطر من جانب الفيضان ، ولما كان الطمى سيرسب في قاع البحيرة فإن المياه سوف تكون رائقة عندما تخرج منها» . ثم أضاف ، وهو يبتسم ابتسامة عريضة : « ولذلك قد نضطر إلى تغيير اسم النهر »

ثم أخذ يشرح للعمال ما كان يتحدث به إلينا . فقالوا نعم إنهم يعرفون أن الخزان الجديد سوف يمنع طغيان الفيضانات ، وأنهم سيتركون بيوتهم ؛ ولكن الحكومة وعدت باعطائهم بدلا منها مساكن جديدة خيراً منها في جهة أخرى ، وأن جميع الأهلين المقيمين بجوار النهر ستتحسن حالتهم ، بل ستتحسن حال الصين كلها ، عندما يتم بناء الخزان . لقد تعلموا ذلك كله في الاجتماعات السياسية التي يحضرونها في المساء .

واستأنف المهندس حديثه فقال : « إن الخزان الذي سيقام هنا ، عند « مضيق جهنم » ، سيكون في ضخامته ثاني خزان في العالم ، وسيكون منسوب مسقط المياه منه حوالى مائتي قدم ، وقد قمنا فعلا بطلب التربينات اللازمة لذلك من الاتحاد السوفييتي ، وهي سوف تنتج من الكهرباء أربعة آلاف وستمائة مليون كيلووات / ساعة في العام ، أي أكثر مما يكفي لتزويد ثلاث محافظات بالكهرباء حتى بعد تصنيع مدنها ».

ثم مد بصره إلى ما أمامه من البقاع المترامية ، وهي في ثوبها الشتوي المجدب ، وقال مبتسما إنه يكاد يرى هذه المرتفعات وقد غطتها الغابات ، والحقول الخصيبة ترويها المياه من البحيرة الصناعية ، ويسمع أزيز التربينات وهي تدور لتمد بالقوة المنشئات الصناعية الجديدة .

ثم عاد وقال في رزانة : « ولكن أمامنا الكثير من المصاعب » — فإن إحدى الحملات السياسية الأخيرة أكدت التنبيه إلى أن « الماركسي » الصادق يجب ألا يصغر في نفسه أمر المشكلات التي تواجهه ، بل الواجب أن يكون متواضعاً وأن يركن إلى نقد نفسه بنفسه . « إن في تقديرنا أن إنجاز المشروع بحذافيره يستغرق حوالى خمسين عاماً ، وأنه سيكون أضخم بكثير من مشروع وادي التينسي بالولايات المتحدة . وبدايته بوجه خاص محوطة بالمصاعب ، إذ ليس لدينا الآن سوى القليل من الآلات ، وكل شيء تقريباً تقوم به الأيدي البشرية

ولكن فى اليوم الذى نبدأ فيه إنتاج آلاتنا بأنفسنا ، سوف يكون فى مقدورنا مضاعفة السرعة فى العمل .

إن الخزانات ستكون سلم هائل فى القطاع الأوسط من النهر وسيترتب على إقامتها أن الحقول التى لا تجد الآن مياهاً لريها فى فصل الجفاف ، سوف يعمها الرى طوال العام بمجرد إتمام البحيرات الصناعية . فبعد أن كان النهر مصدر بؤس وشقاء للناس ، سيصبح مورداً للرزق والغنى ، وسوف ينتج من الكهرباء عشرة أمثال ما تستهلكه منها الآن الأمة بأسرها .

ثم أخذت عينا المهندس تبدو مرة أخرى كمن أخذ يسرح فى أحلامه . وفى وسعى أن أدرك كنه تحمسه ، فإنه لم يسبق للصين قط أن حاولت الإقدام على تنفيذ مثل هذا المشروع العظيم .

وفى هذه اللحظة سمعنا دويا هائلا . فمددت أنا و « شى يان » إلى شدة الالتصاق بالصخور . فضحك العمال ، وحتى قبل أن ينتهى تساقط الحجارة وهى تهوى من السماء ، هرولوا عائدين إلى العمل .

الفصل الرابع عشر

إله المدينة

استيقظنا مبكرين فى أول صباح لنا فى « شنغهاى » ولم يكن عمال الموائد بالفندق قد ظهروا بعد ، واضطررنا إلى الانتظار نصف ساعة قبل أن يأتينا الفطور ، و بمجرد انتهائنا من تناول الطعام بادرنا بالخروج إلى المدينة .

فقصدنا فى أول الأمر إلى حى « الباند » The Bund (اتحاد الأعمال المالية) . وكان هذا من قبل هو قلب مدينة « شنغهاى » ، وكأنه قطاع نقل من « مانهاتان » وغرس من جديد على شاطىء ذلك النهر الصينى العكر . فكانت هنا بيوت الأعمال العظمى ، التى ظلت تقوم من داخلها حفنة من الرجال البيض بإدارة دفة التجارة الخارجية بالصين نحو قرن من الزمان .

وعندما بلغنا المبنى الذى كان من قبل « بنك هونج كونج وشنغهاى » ، وقفنا كلانا ، ولسان حالنا يقول : « نعم ، إنهما لايزالان هنا ـ ذينك الأسدين المهيبين البريطانيين الصنع ، المصنوعين من البرونز ، واللذين ظلا يحرسان المدخل سنين طوالا » . وكان أحد معارفى قد أخبرنى بأنهما نقلا من مكانهما بعد فترة من تولى الشيوعيين الحكم . وقد بقيا غائبين أكثر من عام ـ وكان ذلك فى أيام التطهير ـ ثم عادا ذات يوم إلى الظهور بغتة فى مكانهما مرة أخرى .

ويتفكه الصينيون بشأنهما بقولهم : « لا ضرر منهما الآن ، إذ قد تم غسل مخهما أيضاً » .

وتروى قصص أخرى كثيرة عن الأيام الأولى من قدوم الشيوعيين إلى « شنغهاى » وكانوا قد وصلوا إليها رأساً من الريف . وكان معظم الجند من الفلاحين الذين لم يروا من قبل مدينة كبيرة قط . فحدث أن جنديا منهم زجر

بأعلى صوته وهجم على إحدى المرايا بالحربة المثبتة فى بندقيته ، ظنا منه أن خياله فى المرآة جندى من الأعداء . وحاول آخر تهشيم المصباح الكهربائى لإطفاء النور قبل نومه . وقام آخرون بإيقاد نار تحت حوض الاستحمام بالشقة التى نزلوا فيها إذ رأوا أن لا وسيلة غير ذلك للحصول على حمام ساخن .

وكان عهدى بمدينة « شنغهاى » كما كنت أعرفها أنها كانت تعج بالحركة فى حى « الباند » فى مثل هذا الوقت من الصباح . فكان المشاة يسيرون مسرعين فوق الأفاريز الخاصة بهم — ومع أن الصينيين قوم يجنحون عادة إلى الهدوء ، فقد لحقتهم فى تلك الأيام عدوى السرعة التى امتلأ بها جو المدينة الكبيرة . كما أنه إذا حدث أن ظهر أحد ساحبى المركبات الصينية الصغيرة فى طريق صفوف السيارات التى لا نهاية لها ، كانت تبادره فى الحال جموع من الأبواق بالصياح الساخط .

أما اليوم فقد تغيرت الحال . هاهى ذى مركبة نقل مشترك واحدة مرت بنا وهى تكركر وتتعثر . وهاك امرأة عجوز قد عبرت الشارع دون أن تلتفت يمينا أو يسارا ، ثم قصدت إلى أحد الأسدين وجعلت تمر بيدها على مخلبه ، وكان قد أملس وأصبح لامعا من كثرة أيدى الناس التى مسته أثناء سيرها التماسا لشىء من قوة الأسد .

وقد نظرنا نحن الاثنين إلى مبنى قريب منا ، ثم ابتسمنا وأخذ كل منا بيد الآخر . ففى الدور الخامس من هذا المبنى ، حيث توجد القنصلية الدانمركية ، صرنا زوجين شرعيين منذ سبعة عشر عاما .

وسألتنى « شى يان » ونحن نواصل سيرنا : « أتذكر القنصل ؟ » فقلت : « نعم بالتأكيد . لقد رفض فى أول الأمر تزويجنا ، على اعتبار أن ذلك فى رأيه يكون سابقة تؤدى إلى كثرة تزوج البيض من الصينيات » .

ثم قالت : « ألم يتحول بعد إلى رجل لطيف وقدم لك باقة من الزهور في حفل القران ؟ إنه على ما أتذكر ... » .

فقاطعتها قبل أن تتم جملتها ، إذ كنا قد بلغنا « نادى شنغهاى » ، وقد تذكرت فجأة حادثاً جرى لى بجواره ولم يمر على ذهنى منـذ سنين طويلة ، فانطلقت أقصه عليها الآن :

« فى ذات يوم ــ ولا بد أنه قد مضى عليه الآن أكثر من عشرين عاماً ــ اشتبكت هنا أمام النادى فى جدال مع أحد ساحبى المركبات الصينية الصغيرة ، كان قد سار بى مسافة طويلة ، ولما نقدته عشرين سنتاً كأجر له تذمر وقال : إن ذلك دون استحقاقه . ولعله كان على حق ، غير أنه لم يكن معى وقتئذ من النقد غير ذلك .

وسرعان ما تجمع الناس حولنا ، وانحازوا لجانب الرجل ، ولـكن المشاحنة وقفت بقدوم شرطى ملتح من جماعة « السيخ » تابع لهيئة « البوليس الدولى بشنغهاى » . لم يحاول هذا الشرطى حتى معرفة أينا كان على حق ، وإنما اتجه رأساً إلى ساحب المركبة وقال له : « إن الأولى بك أن تقف الضجة التى أحدثتها هنا ، وإلا سحبت وسادتك » . وكان هذا هو الجزاء المعتاد توقيعه على رجال هذه المركبات ، فـكانوا يضطرون إلى دفع دولار لاسترجاعها من مركز الشرطة .

فاستسلم رجل المركبة فى الحال . وإنى مازلت إلى هذه اللحظة أذكر منظره وهو منصرف بمركبته ، وظهره النحيل يلمع من شدة العرق . وقد شكرت رجل الشرطة وصعدت إلى النادى .

وإنى أشعر الآن بالخجل من هذا الحادث ويحمر وجهى حتى يكاد يلتهب لمجرد استعادة صورته فى ذهنى ــ ولـكنه مر على فى ذلك الحين كأمر طبيعى بسيط ، إذ أننى لم أخرج عن كونى رجلا أبيض ، و« شنغهاى » مدينة الرجل الأبيض .

تهيأنا بعـد الانتهاء من القصة للصعود إلى النادى . فلاحظنا أن اللوحة القديمة التى كانت تحمل اسم النادى قد زالت من مكانها عند المدخل ، وقد كان مكتوباً عليها « نادى شنجهاى : للأعضاء فقط » . ورأينا بدلا منها كتابة صينية تنبىء بأن المـكان أصبح الآن « قصر البحارة الديمقراطيين » .

فقلت فى نفسى إنه قد يكون من الممتع أن نرى المكان الآن بعد هـذه الغيبة ، ولكننى ما كدت أصعد السلم حتى خرج لى حاجب يستوقفنى ، وسألنى عما إذا كنت بحاراً . فأطلعته على بطاقتى الصحفية ، ولكنه ألقى عليها نظرة خاطفة وهز رأسه .

فضحكت « شى يان » وقالت : « إن الدخول هنا كان من قبل مقصوراً على البيض ، أما الآن فيتمنى المرء أن لو كان صينياً . فما أعجب الأيام ! ! »

ثم رأينا عند مدخل المبنى التالى رجلا من طائفـة « السيخ » يجلس على صندوق خشبى فارغ . وكان منظره وهو فى هذه الملابس المدنيـة غاية فى البساطة والدعة . فوقفنا للتحدث معه قليلا . فقال إنه كان فى الأيام السالفة من رجال الشرطة ، وأن مجرد مرور ذلك بذهنه الآن يمده بالقوة . وهو اليوم يعمل خفيراً من قبل البيت المـالى الإنجليزى الذى يملك هذا المبنى — وهو عمل ممل للغاية ، فإن عدد الداخلين إلى المبنى والخارجين منه يتراوح بين الخمسين والستين فى اليوم ، وهذا كل ما هنالك ، لقد أصبحت « شنغهاى » مدينة ميتة .

ثم أحدق النظر فى النهر وقال إنه كانت ترى هنا عشرات السفن الـكبيرة والمئات من السفن الشراعية والقوارب الصينية ، أما الآن فترى هذه الأرصفة الطويلة خالية إلا من باخرتين صغيرتين .

وكان الرجل تابعاً فى عمله لبيت « ساسون » المـالى ، لصاحبه « سير فكتور ساسون » ، ذلك اليهودى الإنجليزى الذى كان فيما سبق من أكبر رجال الأعمال فى « شنغهاى » ، وكون ثروة طائلة من تجارة الصين ، وعندما استولى الشيوعيون

على الحكم كانت أملاكه فى « شنغهاى » تقدر بأكثر من ٥٠٠ر٠٠٠ر٥ جنيه. وقد قرر أن يجرب حظه ويواصل عمله فى ظل الحكم « الأحمر » ، مرتئياً فى ذلك أن هذه قد تكون خير خطة يتبعها ، إذ أنه لو قرر مغادرة البلاد لما كان فى استطاعته أن يأخذ معه فنادقه الفاخرة وعماراته ذات الشقق السكنية الحديثة .

وقد سارت الأمور معه فى أول الأمر على ما يرام فأجرت الفنادق لشركات صينية ، ولم يلق صعوبة ما فى تأجير الشقق السكنية ، ولكن حدث بعد عامين أن أخذت الحكومة تفرض غرامات على مخالفات سابقة لم تكن وقت وقوعها تعتبر غير مشروعة . وكذلك فرضت ضرائب جديدة ثقيلة ، وبعد فترة وجيزة صار المقرر على « ساسون » دفعه للحكومة يفوق دخله من أملاكه، وكان القرار يقضى بدفع المستحق فى الحال ، وإلا فرضت عليه غرامة تضاف إلى المطلوب قدرها ثلاثة فى المائة فى اليوم — وقد خفضت هذه الغرامة فيما بعد إلى واحد فى المائة ، وأعلن الشيوعيون عند تخفيضها أنهم « لا يرضون بغير الاعتدال ».

وقد أصبح الآن « سير فيكتور ساسون » مديناً للحكومة الصينية بما يزيد قليلا على مليون جنيه . ولعل أولى الأمر منتظرون حتى يتجاوز الدين قيمة أملاكه ، وهذا لا يستغرق وقتاً طويلا . وإذ ذاك تصرح الحكومة باستعدادها لإقرار تساوى طرفى الحساب — ومع أنها ستخسر فى ذلك قليلا ، فهى تقبل التسوية من باب المودة .

ولا يحتاج التنبؤ بذلك إلى النظر فى الأمر بمنظار دقيق ، فإن جل الأجانب الذين كانت لهم فى الصين أملاك يربحون منها جرى لهم مثل ذلك بالفعل .

ثم واصلنا السير ، ولم نلبث أن وجدنا مركباً شراعياً صينياً ألقيت مراسيه فى جانب « الباند » . وكان بعض الأطفال يلعبون لعبة « الاستغماية » على سطح ذلك المركب المرتفع العديم الرونق ، وقد قيدت حركة الصغار منهم بقطع صغيرة من الحبال . وبالقرب منهم إمرأة ترفع من النهر دلواً مملوءاً بالماء . فكانت

وهى تعانى سحب حبل الدلو تهتز معها ضفيرتها السوداء إلى الأمام والخلف . وكانت تغسل بعض الثياب بهذا الماء ، الذى كان لا يختلف فى لونه عن الشاى الثقيل .

وكان يجلس فى مقدمة المركب ثلاثة رجال يدخنون فى الغلايين . فسألناهم عما إذا كانوا يسمحون لنا بالصعود إلى المركب ، فأومأوا برؤوسهم بالقبول . ولم يكن من السهل فهم لهجة « شنغهاى » التى كانوا يتكلمونها ، ولكننا وفقنا إلى معرفة أن هذا المركب كان فى الأصل ملكا لأكبر هؤلاء الرجال سناً ، واسمه « وانج » ، ثم استولت عليه منذ عام « الجمعية الديمقراطية لعمال النهر » . وهذه شبيهة بنقابة من نقابات العمال ، تدير الشئون المالية بدلا من الملاحين وتنقدهم مرتباتهم ، وهى تبلغ حوالى ستة جنيهات استرلينية فى الشهر لكل منهم وتدفع للمالك السابق فوق ذلك علاوة قدرها عشرة فى المائة تقريباً من المرتب على سبيل التعويض .

فسألت : « هل هذا النظام خير من الحالة السابقة ؟ »

فجذب « وانج » نفساً من غليونه ثم قال : « إن ربحنا الحالى يقل عن عن سابقه ، ولكننى لم أعد أحمل شيئاً من المسئوليات » .

وتلاه رجل من الآخرين فقال إن الأفضل أن يكون المرء تابعاً للجمعية . فإنه عندما تكون زوجته فى حالة وضع ففى وسعها تمضية مدة الولادة بالمستشفى مجاناً . وللجمعية ناد يمكن فيه تناول وجبات الطعام بثمن زهيد . كما أن الإنسان لم يعد مهدداً بالخروج من عمله فى أوقات الكساد .

قلت : « وهل ما زال لمركبكم عينان ؟ » — وهذه عادة قديمة ، تقضى برسم صورة عين كبيرة بالألوان على كل جنبى مقدمة المركب ، إذ كان المزعوم بأنه يجب أن تكون المركب أيضاً القدرة على الأبصار .

فأجاب « وانج » بقوله : « نعم ، إن العينين ما زالتا هنالك ، ولـكننا نعلم الآن أن مثل هذه الأشياء خرافات ، لقد تعلمنا ذلك فى الاجتماعات ، وأن الآلهة لا تقرر مصير أعمالنا بل نحن السادة المسيطرون على مصيرنا » .

فشتان بين هذا و بين ما كان مشاهداً فى الأيام السالفة . فقد كان من المخرفين بوجه خاص أولئك الذين ترتبط أعمالهم بالنهر . وكان إذا سقط فى النهر أحد ممن لا يستطيعون العوم ، كان الأمل فى نجاته ضعيفاً ، إذ لم يـكن أحد يقدم على إنقاذه مخافة أن ينتقم منه النهر لحرمانه من فريسته وإذا جعلت مكافأة لإنقاذ الغريق ، كان الراغب فى نيلها يؤجل غالباً المشروع فى محاولته الإنقاذ إلى أن يوقن بأن الغريق التعس قد فارق الحياة فعــلا . وكان ذلك من وجهة النظر الصينية عملا جد حكيم ، لأن إله النهر فى هذه الحالة يكون قد حظى بفريسته ، وأقارب المتوفى قد أفلتوا من سخط الأسلاف بحصولهم على جسمه ، ومنقذ الجثة قد فاز بالمــكافأة .

وعندما غادرنا المركب جعل الأطفال يلوّحون لنا بتحية الوداع ، ولم نعد نستظل فى سيرنا بظل ناطحات السحاب ، إذ قد صرنا حيث المنازل قليلة الارتفاع وتعلوها السقوف الصينية ، ولم نلبث أن بلغنا أطراف « نانتاو » ، وهى مدينة الصينيين القديمة المقابلة لشنغهاى .

« ماذا ينتظر هؤلاء القوم يا ترى » ؟ ووجهت سؤالى هذا إلى « شريان » وأنا أشير لها إلى صف طويل من الناس يبلغ طوله بضع مئات من الأقدام . وكان الـكثير منهم يحملقون إلينا خلال سيرنا ، ولعل ذلك لأن يد كل منا كانت بيد الآخر ، وهذا أمر يندر أن يراه الإنسان فى الصين .

ونظرنا فى قمة الصف فرأيناهم يشترون ورق دورة المياه وكان لا يسمح لـكل فرد بأ كثر من ستة أفرخ كبيرة منه ، إذ كان هذا الورق قد شح وجوده فى ذلك الوقت ، على أن المعتاد فى الصين الحمراء أن الـكثير من الناس ينضمون

إلى أى صف يرونه من هذا القبيل ، ولا يسألون عن الصنف الجارى بيعه هنالك إلا بعد انضمامهم إلى الصف ، وذلك لوثوقهم تقريباً بأنه سوف يكون صنفاً مما يحتاجون إليه ، إذ أن العجز لا يفارق قط الأصناف اللازمة للمعيشة ، وفى مقدمتها المواد الغذائية . وليس من غير المألوف أن نرى ربات البيوت يستيقظن فى الساعة الثالثة أو الرابعة صباحاً للانضمام إلى صف من تلك الصفوف ، وإذا تأخرت إحداهن عن هذا الوقت فمن المحتمل أن تكون الأشياء التى تحتاجها قد بيعت كلها .

وتعامل الحوامل من النساء برعاية خاصة ، فلا يلزمن بالوقوف فى الصف بل تقضى لهن حاجاتهن فى الحال . غير أنه كثيراً ما يحدث أن يكون عددهن كبيراً ، وفى هذه الحال يعمل لهن صف خاص بهن .

وقد روت الصحف من عهد قريب أن امرأة وقفت فى الصف المخصص للحاملات ، وفجأة سقط منها « حملها » على الأرض وإذا به وسادة : وقد قالت الصحف وقتئذ إن هذا كان عملا منافياً للوطنية من أقبح ما يكون .

« هلو ، أيها السيد ! »

هكذا صاح بى بائع برتقال متجول ، ونطقها باللغة الإنجليزية . إن البرتقال زهيد الثمن فى الصين ، وهو من نوع كثير العصارة ، ويمكن الحصول عليه طوال السنة كلها تقريباً ، ويؤتى به بالقوارب فى نهر « يانجتزى » من « زيشوان » ، ذلك الإقليم الخصب العظيم ، الواقع فى الجنوب الغربى من بلاد الصين .

قال لى بائع البرتقال إنه سبق له أن عمل كغلام مساعد فى أسرة أجنبية ، وأبدى أسفه لرحيل الأجانب ، إذ كانت الأحوال وقت وجودهم هنا خيراً

مما هى الآن ، وأن بيع البرتقال لايدنى عمله السابق فى ربحه ، وهذا فضلا عما ضاقت به النفوس من كثرة السياسة فى هذه الأيام ، وقد عبر عن هذا الأمر الأخير بخليط من لغته الإنجليزية ـ الساحلية هكذا : « ذهاب إلى الاجتماعات فى كل وقت ، ثم كلام ، كلام ، ماوتسى تونج » .

فى « بكين » لم يكن أحد يجرؤ على إبداء مثل هذه الملاحظة . فقد كان الشماليون دائماً أكثر الصينيين انقياداً ، تعلموا من قديم كيف يعومون مع التيار ، فانحنوا فى صمت مرة بعد أخرى أمام الحكام الأجانب . وقد كانت جل الثورات التى وعاها تاريخ الصين من إشعال أهل الجنوب فى أول أمرها . كما أن الأغلبية العظمى لكبار القادة الشيوعيون من جنوبى الصين أيضاً .

ووقت أن كنا فى العاصمة ، لم يسمع قط ، حتى ولو على سبيل الإشاعة ، عن أية مقاومة منظمة للحكومة ، ولكننا قبيل وصولنا إلى « شنغهاى » رأينا إحدى الصحف المحلية تصرح بأن هنالك مقاومة متزايدة ضد أولى الأمر فى هذه المدينة الدولية السابقة . واسم هذه الصحيفة « هسين ون جيه باو » ، وقد نشرت فى عددها الصادر بتاريخ ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٥٦ مانصه ، « إنه فى مدة الشهر أو الشهرين الأخيرين ، ازداد باستمرار عدد العملاء السريين وتفاقمت أعمال التخريب ، فى المدارس والمصانع ، والشوارع والدروب . كما وزعت على الأهلين الخطابات الإرهابية والنشرات المطبوعة على الميوغراف » وكلها تعرب عن التذمر من الأجور ومن حالة الخدمات العامة والتموين ، فضلا عن اطراد الزيادة فى وقوع الجرائم الجسيمة بدوافع السياسة أو الانتقامات الشخصية ، وحوادث السرقات والاختلاسات الناجمة عن فساد الأخلاق والإسراف . وتقوم إدارة الأمن العام باستنهاض رجالها لمزيد من اليقظة والحذر .

وفى أوائل عهد تولى الشيوعيين الحكم ، أقلع صينيّو « شنغهاى » عن

تـكلم الإنجليزية . فـكان الأوربيون إذا طالبوا باللغة الانجليزية أحد عمال الحوانيت بشيء ما ، كان يتظاهر بعدم فهم كلامهم ، إذ كان الأهلون على علم بأن الحـكام الجدد متحاملون على الأمم الغربية وعلى لغاتها . وكان هذا هو الوقت الذى ابتدأ فيه كل إنسان تعلم اللغة الروسية .

على أن الحـكومة بدأت منذ بضعة أشهر فى السير على منهاجها الجديد « الحـر » ، فلم يعد الصينيون يعتبرون الدول الرأسمالية أعداء لهم — بل إن « ماوتسى تونج» شجع الطلبة على دراسة اللغة الإنجليزية .

وفى اليوم التالى لخطابه الذى أدلى فيه بهذا التصريح ، عاد عمال الحوانيت فى « شنغهاى » ، وهم يبتسـمون ، إلى مخاطبة عملائهم باللغة الإنجليزية .

وبمجرد أن دخلت أنا و « شى يان » دروب « نانتاو » الضيقة ، أدركنا فى الحال أن رؤية الأوربيين هنا أصبحت أمراً غير مألوف . وفى الأيام السالفة كانت هذه البلدة (التى كان يطلق عليها وقتئذ اسم « بلدة الصينيين ») يزورها وفير من الأوربيين حتى إنهم كانوا لا يكاد يلتفت إليهم أحد من الأهلين . وقد كان عـدد الأوربيين فى « شنغهاى » وقتئذ حول مائة ألف ، أما اليوم فهم لا يزيدون على الخمسمائة .

وأغلب الظن أن الـكثيرين من أطفال اليوم فى « نانتاو » لم يسبق لهم أن رأوا رجلا أبيض قط . فقد تجمع الأطفال حولى ، يشيرون إلى ويصيحون : «انظروا ـ ها هو ذا رجل أجنبى » وقد كان من المستحيل اختراق هذا السور الحى من الناس ، ولم يتسن لنا مواصلة المسير إلا بعد حضور أحد رجال الشرطة .

وقد سمعت قائلا يقول : « لا بد أنه من رجال السوفييت » . فرد عليه آخر بقوله « لا ، فإن ملابسه تختلف عن ملابسهم ، فإن سراويله ضيقة ، وهو أنيق فى ملبسه » .

فنظرت إلى زوجتى نظرة المنتصر ، ولكن من سوء حظى أنها لم تكن قد سمعت تلك الملحوظة ، لأنها طالما شكت من هندامى وقالت إنه يشبه زى المتشردين . وعلى كل حال فإن جميع رجال السوفييت يلبسون سراويل يشبه أسفلها شكل الجرس ، ولا بد أن هذا طراز روسى جديد .

ولا يلقى الروس السوفييتيون فى « شنغهاى » من التقدير فى أعين الناس مثل ما يلقونه فى سائر أنحاء الصين . فقد أقام الروس منذ عامين معارض عظيمة فى جميع المدن الصينية الكبرى ، فنالت المعروضات إعجاباً فى « بكين » ، ولكن أحد أصدقائى الصينيين أخبرنى أنه كثيراً ما كانت تسمع ملحوظات إنتقادية فى معرض « شنغهاى » ، وكان أهل « شنغهاى » الساخطون يقولون : « إن هذه أشياء لا تستحق أن تعرض على الناس ، لقد كان لدينا فى مخازننا قبل التحرير بضائع تفوق هذه بكثير فى دقة صنعها » .

وكانت الوجوه المتطلعة ترقبنى خلال سيرى ، من الأبواب والنوافذ . وقد راعتنى كثرة الناس فى البلدة . كان الشيوعيين قد عملوا لأسباب استراتيجية على نقص عدد السكان فى « شنغهاى » ، و إذا كان عدد سكان هذه المدينة فى أوائل عام ١٩٥٥ نحو ٦٠٠٠ر٠٠٠ نفس فقد بعثوا بثمانمائة ألف من أهلها إلى الداخل ، ولكن عند ما عمل تعداد آخر فى نهاية العام تبين أنه أصبح بالمدينة ٦ر٣٠٠ر٠٠٠ نفس !

فمن أين أتى كل هؤلاء ؟ لا أحد يعرف ذلك معرفة اليقين . ومن رأى أصدقائى أن معظم الوافدين الجدد كانوا مزارعين وضاقوا صدراً بسوء حالة المعيشة فى الريف .

وسمعت من داخل بعض النوافذ تلك الخشخشة المألوفة التى تحدثها لعبة « الماهجونج » (وهى لعبة صينية تشبة النرد) . وكان الشيوعيون قد حرموا

هذه اللعبة في أول الأمر ، على اعتبار أنها من آثار الماضي الأثيم ، ثم عادوا فأباحوها في العام الماضي ، على ألا تدخل النقود في لعبها .

ثم سرنا وأمامنا رجل الشرطة قاصدين إلى معبد « نانتاو » .

وكانت غالبية المعابد في « بكين » قد حولت إلى مدارس ، وما بقي منها ترك خالياً . والناس هناك في حذر ، فإذا عمد أحد منهم إلى إحراق البخور من أجل الآلهة اعتبر مخرفاً ورجعياً . ولكن معبد « نانتاو » القديم كان يعج بالنشاط والزحام ، حتى اضطر الناس إلى الوقوف في صف طويل انتظاراً لدورهم في أداء طقوس الخضوع أمام تلك الأصنام التي يعلوها الغبار . وحتى ذلك البهو الكبير المظلم الواقع في الدور الأول،والذي قلما كان يرده أحد في الأيام السالفة ، كان أيضاً غاصاً بالأهلين . وقد امتلأ الجو بالبخور والدخان الصاعد من تلك النيران الصغيرة الكثيرة العدد التي كانت يحرق فيها النقود الورقية ، حتى كادت العيون تلتهب من ذلك .

وقد أخبرنا أحد سدنة المعبد أن المعبد كانت تديره فيما سبق هيئة دينية ، أما الآن فتقوم بإدارته لجنة ينتخبها الشعب . وقد عهد إلى كل سادن بخدمة إله واحد أو مجموعة معينة من الآلهة . وعلى السدنة أن يحافظوا على نظافة المعبد . وينالون في نظير ذلك نسبة معينة من الدخل الذي يرد من بيع البخور والنقود الورقية .

وفي السنوات القليلة التي تلت التحرير ، لم يكن المعبد يأتي بربح يذكر وقد قال في ذلك صاحبنا السادن الوديد ، الممتلىء الجسم : « وكنت إذ ذاك لا أحصل على ما يكفيني من الأرز » فلم يكن يأتي إلى المعبد سوى المتقدمين في السن — ولعل خوفهم من الشيوعيين كان يقل عن خوفهم من عاقبة عدم تقديمهم القربان إلى الآلهة .

ثم حدث منذ نحو سنة أن علم عن طريق ما أن لا اعتراض على استئناف الذهاب إلى المعبد ، فصار الناس يأتونه زمراً ، وصارت جموعهم تزيد فى بعض الأعياد عما وصلت إليه فى أى وقت مضى قبل التحرير .

وسألت : « وما هو أحب الآلهة لدى الناس ؟ »

فأجاب السادن مبتسما : « إنه إله المدينة — مدينة « شنغهاى » ، وهذا من حسن حظى » ، وذلك لأن خدمة هذا الإله هى « نصيبه » من العمل وأخبرنا كذلك بأن إله الثروة هو أيضاً محبوب جداً .

ثم جعل يفرك يديه وقال : « لقد عدنا مرة أخرى إلى الرواج العظيم » وفى هذه اللحظة دق دف نحاسى فى دوى كبير . فأومأ إلينا برأسه مستأذناً ومضى مسرعاً إلى إلهه ليحرق له عوداً جديداً من البخور .

الفصل الخامس عشر
معامـــــة الفضيلة

كان « ماوتسى تونج » ينظر إلينا نظرة أبوية من مكانه المعظم التقليدى المقابل للمدخل . وفيما عدا ذلك لم تـكن هناك نسمة واحدة بقاعة الاجتماع ، فى الاستوديو ، حيث كنا على موعد لإجراء حديث صحفى . فجلست فى أحد المقاعد المريحة ، وكان قلبى يدق بشدة إذ كنا قد إضطررنا إلى الجرى اجتنابا للتأخر فى الوصول .

قلت لشى يان : « ألم أقل لك أن لا داعى للإسراع لأن كواكب السينما لا يحضرن قط فى الميعاد . إننى أعرفهن ، وقد نضطر إلى الانتظار عدة ساعات »

وفى هذه اللحظة بالضبط سمعنا وقع أقدام خارج القاعة . فنهضت واقفاً فى الحال ، وأصلحت رباط رقبتى ، ولـكن ما أن وقع نظرى على الفتاة التى أقبلت حتى عدت إلى الجلوس ، وفى نفسى شىء من الشعور بالخجل .

ثم قلت : « اننا فى انتظار « الآنسة شيه واى . »

فقالت : « أنا الآنسة شيه واى . »

وقد أخبرتنى « شى يان » فيما بعد أنه بدت على وجهى فى هذه اللحظة كل علامات الشعور بخيبة الأمل . ولا حق لأحد أن يلومنى على ذلك ، لأننى كنت فى الواقع أنتظر أن أرى نجمة صينية فى روعة « مارلين مونرو » ، ولـكن الفتاة التى رأيتها أمامى بحذائيها المنبسطين كانت أقرب فى منظرها إلى معلـمة أطفال خلعت نظارتها . ولم تـكن حتى المساحيق وأحمر الشفاه لتصلح شيئاً من صورة وجهها الشاحب . وإذا كان بجسمها شىء من القسمات المثـيرة ، فقد احتجبت تماما خلف ملابسها الفضفاضة المؤلفة من بنطلون وجاكتة زرقاوين .

قلت فى نفسى : « ليت شعرى ماذا أستطيع أن أكتب عنها . لقد بدت

لى ولا لون لها إطلاقاً ، وأظن أنه ما كان يضيرها كثيراً لو قلت ذلك عنها جهاراً.
ولم نكد نتحدث معها بضع دقائق حتى قالت إن الممثل لا ينبغي أن يكون له شخصية أقوى مما ينبغي ، وأضافت :

« إن المنظر البسيط المألوف يزيد فى سهولة اندماج الأهلين مع الممثل وإن الممثل كفرد من أفراد الناس لا يجوز أن يكون فيه مايجذب الأنظار فوق المعتاد ، كما أن الأدوار الفردية فى التمثيل لا يصح أن تغطى على رسالة « الفيلم ».

وكانت تجلس ويداها مضمومتان فى حجرها ، وقد ارتسمت على وجهها معالم الاهتمام والاتزان . وقد تمثل لى أن اسمها خير اسم انطبق على مسماه ، فهو « شيه واى » ومعناه « معلمة الفضيلة » .

فسألتها : « وما نوع الرسالة التى يجب أن يؤديها الفيلم ؟ » فأجابت بأنه يجب أولا وقبل كل شيء أن يؤدى إلى تقوية « الوعى الطبقى » فى الشعب ، بمعنى أنه « يجب أن يتبين مشاهدوا الفيلم فى وضوح الفرق بين أصدقاء الشعب وأعدائه . كما يجب أن يقوى الفيلم إيمان جموع الشعب بالمجتمع الجديد . وبغير ذلك لا يكون لوجود الفيلم أى مبرر .

وقد أخبرتنا الآنسة « شيه واى » بأنها تحضر هى وزملاؤها الاجتماعات السياسية مرتين فى الأسبوع ، وقالت : «إن هذه الإجتماعات هى منبع إلهامنا. ففيها نناقش خطط الحكومة ثم نسعى لإيجاد التنسيق الواجب بينها وبين عملنا ، ويجب على الإنسان أن يكون دائماً على اتصال وثيق بمشاكل الأمة » .

والمتبع الآن أنه عندما يتصور أحد الكتاب الصينيين خطة لفيلم ما ، فعليه أولا أن يناقشها مع الممثلين ، فإذا رأوا فيها الروح الصالحة ، من الوجهتين الأيديولوجية والسياسية ، خرجوا للاختلاط بالأهلين وعاشوا فى الأوساط التى يصورها الفيلم . وهم فى ذلك يبذلون جهدهم للعثور على « النماذج » الصحيحة التى تصورها الفيلم ويدرسونها عن كثب . وقد أقامت الآنسة « شيه واى » ذات

حيث مدة ستة أسابيع فى بلدة يعمل أهلها فى مناجم الفحم فى شمال الصين ، كما عاشت أيضاً بين المزارعين وعمال المصانع .

ثم نظرت فى إجلال إلى صورة « ماوتسى تونج » ونطقت بكلمته المأثورة « من الشعب إلى الشعب » .

وقلت لها إننى سمعت أنها قامت بدور إحدى فتيات الشوارع فى أحد أفلامها الأخيرة . فأومأت بالإيجاب .

قلت : « وكيف استطعت العثور على نموذج لذلك ، ما دام لم يعد فى الصين أحد من فتيات الشوارع ؟ »

قالت : « لم نجد نموذجا ، وكانت هذه مشكلة مستعصية ، إلى أن حصلت على شريط هزلى مما قبل التحرير فوجدت فيه النموذج المطلوب » .

وكثيراً ما يقول الشيوعيون إن من بين أهدافهم القضاء على كل تمييز طبقى بأن يتعلم كل إنسان ان يكون كالعمال فى شعورهم وتفكيرهم . والآنسة « شيه واى » هى برهان حى على نجاحهم فى ذلك فى بعض الحالات . فهى تقول عما تقوم به : « عملى » ، فى حين أن الممثلين الأوربيين كانوا يقولون فى مثل هذه الظروف : « فنى » . وهى تذهب كل صباح إلى « الأستوديو » فى الساعة الثامنة وتبقى فيه إلى تمام الساعة الرابعة ، ولا تتخلص من هذا القيد إلا مدة ساعة واحدة لتناول الغداء .

قلت : « ولكن ماذا يحصل عندما يكون هناك فيلم يراد إنجازه دون انتظار أما تمكثين إلى ما بعد ذلك الموعد ؟ »

« لا . إننا لا نعمل قط أكثر من الأوقات المقررة » .

وعلى الرغم من أنها تدعى بلقب « آنسة » فإنها متزوجة ولها ثلاثة أبناء منهم اثنان لا تراهما إلا فى أواخر كل أسبوع لأنهما فى دار حضانة حكومية أما الثالث فلم يتجاوز عمره سنة واحدة ويقيم معها هى وزوجها ، الذى هو من

موظفي الحكومة . وهي تطلق على زوجها لفظ « حبيبي » ، وهو تعبير استحدثه الشيوعيون باعتبار أنه « تقدمي » ويفضل من هذه الوجهة الطريقة العتيقة التي كانت المرأة تذكر بها زوجها من قبل . ومع ذلك فإننا لا نرى كثيراً من نساء الصين يستطعن النطق بلفظ « حبيبي » دون أن ينكمشن خجلا .

وقد علمنا أن ممثلي السينما الصينيين مقسمون إلى ست عشرة مرتبة ، تتفاوت مرتباتهم من تسعة جنيهات استرلينية إلى خمسة وأربعين جنيهاً في الشهر . وكانت الآنسة (شيه واي) في المرتبة العاشرة ، وتتقاضى مرتباً يزيد قليلا على عشرة جنيهات .

قلت : « وهل يمكن القول بأن هذا هو مقياس شهرة الممثل ومنزلته عند الناس ! »

« لا . بل إنه يتوقف أيضاً على الأقدمية والجهد معاً . واتجاهنا هو ألا نبني لبعض الكواكب شهرة شاسعة ، فإننا لا نريد أن يستأثر نفر قليل بكل التفات الناس ، فإن هذا مناف للديمقراطية »

كذلك يسعى الشيوعيون لتوزيع الكواكب اللامعة ، بمزيد من التساوي بين المسارح ، وفي ذات مرة علقوا أهمية عظيمة على تجربة في ذلك بأن يستبدلوا بممثل مشهور تلميذاً له في الفن دون سابق إعلان ، وكان غرضهم من ذلك أن يتعلم الجمهور تقدير المغزى من أية مسرحية أكثر من تقديره لكفاءة ممثل فردي .

ولكن الجمهور ثار لذلك . فإن ذلك « التلميذ » لم يكد يظهر على المسرح حتى أخذ الجمهور يبدي سخطه ويصفر ويطالب برد نقوده إليه ، ولم يجد في ذلك نفعاً ما قامت به الصحف من شن حملة على هذا « التشبث غير الديمقراطي في التمسك بالأفراد » ، واضطر أولوا الأمر في النهاية إلى العدول عن هذه الخطة .

وكانت الآنسة (شيه واي) في الثامنة والعشرين من عمرها ، ولم تمض في العمل بالسينما إلا بضع سنوات ، وكانت تعمل من قبل ممثلة في الأوبرات الصينية

وقد قالت إن ذلك عمل مرهق ، لأن التمثيل فيها كان يبدأ عادة فى الساعة الرابعة بعد الظهر و يستمر إلى منتصف الليل .

ومن الصعب على الأوربيين أن يروا سبباً لتفضيل غالبية الصينيين للأوبرا على السينما ، وقد قابلت أخيراً تاجراً دانمركياً حضر إلى الصين فى رحلة تتعلق بعمله ، ودعاه بعض معارفه الصينيين للذهاب معهم إلى الأوبرا ، فقال لى :

« إننى لم أر لا مناظر ولا أى شىء ، وكل ما كان هنالك ممثلون يهرولون فوق المسرح ، وهم يصرخون ويوهوهون ، والموسيقى من حولهم تخرج أصواتاً كدقات الصبية العنيفة على علب الصفيح ، ولم أشأ جرح إحساس مضيفى ولكننى بعد ساعة أو نحوها لم أعد أتحمل من ذلك مزيداً . لقد صُدعت أذناى بالألم » .

ولا عجب أن يكون للتمثيل كل هذه الضوضاء . إذ المفروض فى الواقع أن يجرى هذا التمثيل فى أماكن بلا سقف ولا جدران ترد الصوت على المستمعين ، فإن أول مرة عرضت فيها الأوبرا فى الصين كانت فى عهد « المغول » فى القرن الثالث عشر ، عندما لم يكن فى الصين شىء من دور التمثيل ، فجرى التمثيل إذ ذاك فى العراء ، ولذلك كان الممثلون يضطرون إلى الصياح حتى يتسنى سماعهم ومثلهم فى ذلك الموسيقيون فإنهم كانوا يعزفون على آلاتهم بغاية الشدة . والجميع لا يزالون محتفظين بهذه الطريقة .

ومما يلاحظ عن هذا التمثيل أنه عند أول دخول الممثل فى المسرح يعلن اسمه ودوره . وهذا فى الواقع لاداعى له ، لأن المستمعين يكونون قد عرفوا كل شىء عنه من ملبسه وتنكره (ماكياجه) . فإذا كان يحمل مروحة فهو طالب علم و إذا كانت فى قبعته ريشة ديك برى فهو قائد حربى ، والذين يلبسون السواد كاملا مفروض أنهم لا تراهم الأعين ، وموظفوا الحكومة الماكرون طليت وجوههم باللون الأبيض . كذلك كانت تدهن وجوه القواد الحربيين باللون الأحمر

وهذه عادة أخذت عن أسرة « سانج » ، حين كان قواد الحروب يصطنعون ذلك لإخفاء لونهم الشاحب الذى لا يتفق والمظهر الحربى .

وإنى ما زلت أذكر فى وضوح ما رأيته فى أول أوبرا صينية شاهدتها ، وكانت (شى يان) معى ، وقد وعدتنى من قبل بتفسير موضوع القصة التى يدور حولها التمثيل ، ولكننى بالرغم من ذلك لم أستطع فهم شىء يذكر .

وقد سألتها : « لماذا يطوح هذا الرجل بالسوط ! »

« لأنه راكب حصاناً »

« ولماذا عمد القائد فجأة إلى الوقوف فوق الكرسى ! »

« لأنه كان يتسلق سور المدينة » .

وبعد لحظة من ذلك جلس الممثلون على الأرض وأخذوا يعملون حركات مضحكة بأذرعهم . قلت : « وأى معنى فى الوجود لهذا العمل ! »

فقالت « شى يان » : « أما عندك شىء من التخيل ! فى وسع أى إنسان أن يدرك أنهم يجدفون »

ثم أخذ أحد المجدفين يلوح براية سوداء ، بها خطوط بيضاء ، فكان هذا تعبيراً عن أن الأمواج قد طغت عليهم ، وأنهم يغرقون — وقد فهم ذلك الجميع إلا أنا ، ولم أعد بعد ذلك أشعر برغبة فى الاستفسار ، اجتنابا لاتهامى بأنى عديم التخيل .

أنعم بالأوبرا الصينية : بفضلها صار أفقر مزارع صينى ملماً بالأحداث المثيرة فى تاريخ بلاده الطويل . وكنت خلال حديثنا مع الآنسة « شيه واى » قد سألتها عما إذا كانت جميع الأوبرات القديمة المحبوبة من الشعب ما زالت تمثل . فقالت : «لا ، فإنه بعد أن تولى الشيوعيون الحكم وزعوا على فرق الأوبرا كشفاً ببيان الأوبرات « المرغوب فيها » ، وقالت إيضاحا لذلك :

« إننا بالطبع لا نريد تمثيل مسرحيات وضعت بالروح الإقطاعية القديمة

فإذا اعتبر الخضوع والخشوع من الفضائل ، عاد ذلك على الناس بإفساد طرق تفكيرهم »

وقالت أيضاً إنه حتى الأوبرات (المعتمدة) قد أجرى فى بعضها قليل من التعديل ، بأن جعلت الشخصيات الخبيثة فيها أشد خبثاً والشخصيات الطيبة أكثر طيبة ، مخافة أن يكون من السهل وقوع المستمعين فى حيرة ، إذ الواجب أن تكون رسالة المسرحية فى غاية ما يمكن من الوضوح والبساطة .

ثم قالت : « لقد قمنا بإصلاح وتطوير مختلف الفنون القومية ، ولكن هذا الإرث القومى لا يمكن أن ينفع الناس إلا بعد أن يعاد وزنه من وجهة نظرنا الإيديولوجية الجديدة »

وكذلك حال المؤلفات الصينية القديمة ، فإن الكثير منها مصيره النبذ أو « التبسيط » . ومن ذلك أنه وقت أن تولى الشيوعيون الحكم كان لدى دار من أكبر دور النشر فى البلاد ثمانية آلاف وثمانمائة مؤلف ، فلما « أعيد تربية » مديرى الشركة طلب إليهم أن يقدموا كشفاً بالكتب التى تلائم الصين الجديدة ولأنهم أرادوا بالطبع أن يكون تصرفهم فى جانب السلامة ، فقد انتهى أمرهم بتقديم كشف لا يشمل سوى ألف ومائتى مؤلف . أما ما عدا ذلك من الكتب فقد بعث به إلى مصانع الورق لتحويله إلى ورق جديد .

ثم إن صحفياً يوغوسلافياً أعرفه أجرى أخيراً حديثاً صحفياً مع « لا وشيه » مؤلف كتاب « ساحب المركبة الصينية الصغيرة » . فلما أخبره بانه يود القيام بترجمة هذا الكتاب إلى لغة بلاده ، قال له ذلك المؤلف المسن الذائع الصيت :

«إن الأفضل أن تنتظر بضعة أشهر ، فسوف تظهر إذ ذاك طبعة جديدة من الكتاب باللغة الروسية » .

وقال إيضاحاً لذلك إن « بطل » القصة فى الطبعة القديمة لم يكن موقفه « إيجابياً » بالدرجة الكافية . فإنه كان يقابل متاعبه بالضحك بدلا من التشمير

عن ساعديه والنهوض للكفاح ، ولذلك أجرى المؤلف قليلا من التعديل فى شخصيته ، فيحسن بالصحفى اليوغوسلافى أن يتلقى الكتاب فى صورته الجديدة التى يتمثل فيها الوعى الطبقى .

ومن رأى الآنسة « شيه واى » أن إجراء مثل هذه التعديلات من صميم الصواب ، إذ أنها ترى أن الغرض الأساسى للفن هو خدمة الدولة . ويشاركها فى هذا الرأى غيرها من الشيوعيين الصينيين ، أو على الأقل هذا هو مايصرحون به . فالجميع فى ذلك سواء ، عدا شيوعياً واحداً .

هذا هو « هوفينج » . إذا ذكرت اسمه أمام الناس فى الصين رأيتهم يلزمون الصمت أو يبادرون إلى تغيير الموضوع . وفى ذات مرة سألت أحد موظفى وزارة الخارجية أن يذكر لى شيئاً عن « هوفينج » ، وكان فى العادة يبدى استعداداً كبيراً لمساعدتى ، ولكنه فى هذه الحالة أبدى نفوراً ، وقال : «لاتعليق»

و « هوفينج » هذا كاتب وناقد أدبى ، بنى لنفسه اسماً كبيراً بعد التحرير، وكان كل إنسان يعده شيوعياً صادقاً ، غير أنه قام منذ نحو عامين بكتابة مقال عن الرواية الصينية ذات المنزلة الرفيعة « حلم الحجرة الحمراء » ، أشار فيه إلى أنه قد تكون هنالك آراء أخرى عن الفن غير الرأى الماركسى المحض .

وقد أثار المقال ضجة فى الدوائر الأدبية فى كافة أنحاء البلاد ، إذ لم يكن أحد يجرؤ قبل ذلك على التصريح بهذا الرأى . وأصدر أولو الأمر أوامرهم إلى «هوفينج» بأن يكتب تفنيداً لنفس آرائه ، فقام بكتابة التفنيد . غير أنه اتضح أن معظم نقده الذاتى كان يحمل فى طياته دفاعاً عن الآراء الحرة وعن الحرية الفردية.

ولم يتبين للشيوعيين ما كان فى ذلك « النقد الذاتى » من خدعة إلا بعد أن تم نشره . والمعروف عن الصينيين دائماً أن لهم مقدرة خاصة على إخفاء ما يكن من للشاعر فى أعماق نفوسهم ، وأنهم رغم ذلك يومئون برؤوسهم

و يبتسمون عند الحاجة . ولعل مجرد العلم بذلك هو الذى يجعل للشيوعيين حساسية شديدة من جانب ما قد يكون هنالك من الخونة في نفس صفوفهم . وقد قبض على « هوفينج » وأثيرت ضده حملة قومية واسعة النطاق . وتمسك أولو الأمر بأن هناك مؤامرة فى جانب « هوفينج » من المثقفين ، فقبض على الالاف منهم .

وعندما درست كتابات « هوفينج » السابقة تبين أنها محشوة بالعبارات التى تحمل معنيين . ففحصت على إثر ذلك تراجم واعترافات عـدد كبير من الناس ، مخافة أن يكون بين سطورها أمثال هذه «المعرقلات الخفية» . كذلك قامت لجان من صميم الوطنيين ـ هى فى الصين بمثابة «لجان النشاط غير الأمريكى» بالولايات المتحدة ـ بفحص الصحف والمؤلفات التى تم نشرها بعد التحرير .

وقد أغلق خلال التحقيق الـكثير من المعاهد العامة أسابيع عديدة . وقد تناولت حركة التفتيش البحث عن « الخونة » ـ جامعتى القديمة نفسها « ينيشينج » ، فكان كل ما عثروا عليه فيها شعاراً مضاداً للشيوعية فى أحد المراحيض .

وحـدث أن طالباً اتهم بأنه من المعجبين سرا « بهوفينج » ، و بأنه تبادل المراسلات مع أناس مماثلين له فى العقلية . فلما أنكر ذلك قرر زملاؤه التقدميون اعتقاله فى حجرته إلى أن يعترف ، وقد مضت عليه ثلاثة أرباع عام قبل أن ينهار .

وقد أطلق أولو الأمر على « هوفينج » جميع الأسماء التى يخصون بها أعداء الشيوعية . ومع ذلك أدرك الـكثيرون مع مضى الوقت ماذا وقف نفسه عليه : إنه كان ضد التقليد الأعمى للاتحاد السوفييتى ، وكان يريد أن يرى شيوعية صينيه مستقلة ، مع المزيد من حرية الرأى العلمية .

ولابد أن أولى الأمر قد أدركوا فى النهاية أن الهجوم على « هوفينج » قد

أتى بعكس الأثر المقصود . وقد بلغنى أن الـكثير من الناس الذين لم يشعروا قط من قبل بنقص فى الحرية قد أخذوا يتشككون فى الأمور ، و يقولون إنه قد تـكون هناك قيمة لما قاله « هوفينج » ما دام الأمر قد أثار الناس جميعاً إلى هذا الحد ، ولعل الحالة تـكون خيراً مما نحن فيه لو سمح بالقليل من الحرية .

وقد رفعت الحملة ضد « هوفينج » بمثل السرعة الفجائية التى أثيرت بها ، و بعد أشهر قلائل من ذلك قامت الحـكومة بكثير من الإصلاحات التى كان ينادى بها بصفة غير مباشرة . فسمح للعلماء بنقد الأساليب والنظريات السوفيتية، وأعفى الأساتذة من حضور مثل ذلك العدد الـكبير من الاجتماعات ، وشجع الطلبة على دراسة غير الروسية من اللغات . ثم بدئت حملة لجعل الناس يصرحون بآرائهم دون خوف .

وكانت هذه الحملة فى إبان قوتها وقت وصولى أنا و « شى يان» إلى الصين، وكان شعارها « فلتزدهر مائة زهرة ، ولتصرح مائة أسرة مختلفة بما يجول بخاطرها » . فـكنا كلما قلنا لأحد من الشيوعيين ، إن هناك نقصاً فى الحرية ، بادر إلى إسماعنا شعار الزهرة .

وكنا ذات يوم نتحدث إلى أحد كبار رجال وزارة التربية والتعليم ، فقلت له إن الحـكومة صنعت خيراً ببدئها هذه الحملة ، ففى ذلك برهان على أنها تريد إعطاء المثقفين مزيداً من الحرية فى التعبير عن آرائهم .

فقال : « أجل ، ولـكن الحملة لم تكن فى الواقع لإرضاء المثقفين بقدر ما كانت نتيجة لتنبهنا إلى الركود الذى وقعنا فيه بسبب قلة الآراء الجديدة . فالهدف الحقيقى الذى ترمى إليه الحملة هو إحراز تقدم فى الآراء العلمية » .

فهل كان « هوفينج » هو السبب هذا التحول إلى الاستزادة من حرية الرأى فى الصين ؟ أم أن وفاة « ستالين » كانت هى السبب ؟ إن أغلب الظن

إنه مزيج من العاملين معاً . إن « هوفينج » ما زال معتقلا ، ولـكن المنتظر أنه سيطلق سراحه قريباً ، و بدور بعض الهمس بأن الشيوعيين قد قدروا الآن مواهبه ، وأنه سيقدم له منصب كبير بعد أن يكون الحادث قد تضاءل أثره فى أذهان الناس .

على أننى لم أفاتح الآنسة « شيه واى » فى موضوع « هوفينج » خلال حديثنا ، إذ قلت فى نفسى : « لماذا أحرجها ؟ إن الحكومة قد أمسكت عن مهاجمته ، ولـكنها لم ترده بعد إلى حظيرة رضاها ، فالناس الآن فى حيرة بشأن ماذا يرون فيه .

وقد قالت لى الآنسة « شيه واى » إننى بصفة كونى أجنبياً يصعب على فهم ما طرأ على الشعب الصينى من التغير منذ التحرير . فإن طريقة نظرهم إلى الحياة قد تغيرت ، ومما يمكن الاستدلال منه على ذوقهم الآن من جهة أفلام السينما .

وقالت : « إننا معشر الصينيين لم نعد نهتم بالترفيه المحض ، فالأفلام الأجنبية التى كانت تلقى إقبالا عظيما من الشعب قبل التحرير لا تقابل الآن بالتقدير ، وصارت من عناصر الماضى . وأصبح مطلوب الشعب الآن شيئاً أكثر إيجابية من ذلك » .

وفى طريق عودتنا إلى المنزل مررنا بإحدى دور السينما . فوجدنا خارجها أطول صف رأيته قط من المنتظرين . لقد كان فى البرنامج فيلم إنجليزى — هو أول ما عرض فى الصين من تلك الأفلام منذ جاء التحرير . فكان المعروف أن شباك التذاكر لن يفتح إلا بعد عدة ساعات ، ومع ذلك لم يكن على ما يظهر لدى الناس مانع من الانتظار .

الفصل السادس عشر

السيد « لين » يأكل الفلفل

كان الوقت مساء ، وكان السيد « لين» ، الذى يرتدى الملابس الأوربية ، قد بعد بكرسيه عن موضع المصباح ، فكان الإنسان لا يستطيع رؤية وجهه فى وضوح ، غير أن رأسه الأصلع كان يلمع فيما يشبه الظلام . وكان خلال كلامه يعبث بسلسلة ساعته ، وكانت يداه صغيرتين سمينتين — وهو أمر كان يعد فى الأيام السالفة من دلائل حسن الحظ ، ولعل ذلك لبدانة يدى إله الثروة .

وليس من المبالغة أن نقول إن السيد « لين » قد ولد وفى فمه ملعقة من فضة . فقد كان والده أول صينى أنشأ مصنع غزل فى « شنغهاى » وكان عند وفاته يملك خمسة مصانع كبيرة ، تركها لابنه .

حقاً إن هذه المصانع لم تعد ملكا للسيد « لين » ، إذ قد استولت عليها الدولة ، ولكنه أعطى عنها تعويضاً . وكان لا يزال ثرياً جداً ، حتى أن الصحافة كانت تسميه « المليونير الصينى الأخير » . وكان الشيوعيون يعرضونه على الزائرين بصفة كونه مثالا لامعاً لأثرياء الصناعة الذين انخرطوا فى سلك الإصلاح الجديد .

وقد أخبرنا السيد « لين » أنه كان فى الأيام السالفة منغمساً فى كثير من الرذائل ، فكانت له حظايا ، وكان يفرط فى الشراب والطعام ، كما أنه لم يسلم من المقامرة . وكان صوته ينم عن شعوره بوخز من الضمير ، ولكنى شعرت بطريقة ما أنه كان فى الواقع يلذ له التحدث عن إسرافه السابق .

وكان قبيل قدوم الشيوعيون إلى « شنغهاى » قد فر إلى « هونج كونج » ومعه مليون دولار أمريكى ، وهو يقول فى ذلك : « إن مجرد الإقامة فى الصين

بعد هذا لم تخطر لى ببال، إذ قد سمع إذ ذاك أن الشيوعيين يقتلون جميع الأغنياء .

إن « هونج كونج » من أجمل مدن العالم ، ولكنها أيضاً من أشدها تجرداً من العاطفة . ففيها ما يزيد على مليون لاجىء من الأرض الأم ، منهم بضعة آلاف يغمرهم المال ، والباقون يعيشون على شفا الموت جوعاً .

وكان السيد « لين » يشعر بأنه شبه غريب فى هذه المستعمرة المزدحمة . وقد خطر له أن يستثمر أمواله فيها ، ولكن بدا له أن كل شىء هنالك كان غير مأمون العاقبة ، وأن الشيوعيين قد يستولون على « هونج كونج » فى أى وقت يطيب لهم فيه ذلك .

وفى ذات يوم أطلع على خطاب ألقاه « ماوتسى تونج » . وهو يقول فى ذلك « إن الرئيس « ماو » طلب إلى جميع رجال الأعمال الصينيين الذين فروا إلى خارج البلاد أن يعودوا ، فإن الصين الجديدة فى حاجة إلى معونتهم ، وأننا سناقى هنالك معاملة عادلة ، وأننا إذا كنا قد حصلنا على ما لدينا من الأموال بطريقة شريفة فسيسمح لنا بالاحتفاظ بها » .

وقد قهقه أصدقاء السيد « لين » عندما أخبرهم بأنه يفكر فى العودة إلى « شنغهاى » ، وقالوا إنه مجنون ، وإنه لا ينبغى له أن يأمن « الحمر » وإنهم سوف يقدمونه إلى إحدى محاكم الشعب ويعدمونه رمياً بالرصاص .

وواصل حديثه معنا فقال : « إن ذلك بالطبع كان جائز الوقوع ، ولكنى كنت قد سئمت حياتى الفارغة فى « هونج كونج » واستولى على الملل، وكنت قد أشرفت على الستين من عمرى ، وأريد أن تكون وفاتى بأرض الوطن . وكذلك كان عندى شعور بأن « الرئيس ماو» لن يخلف وعده » .

وكان السيد « لين » إلى هذه اللحظة يتكلم بحالة طبيعية تماماً ، ولكنه استقام الآن فى جلسته بكرسيه ، وتنحنح واتخذ وجهه صورة جدية ، بل إنه أمسك عن النظر إلينا وجعل يتكلم كأنه يخاطب الحائط ، فقال :

« لقد تعلمت فى ظل « الجمهورية الشعبية الديمقراطية» كيف أستمتع بالعمل ويدى فى أيدى الشعب . إننى كنت فيما مضى رأسمالياً مستغلا ، ولذلك لم يكن لى الناس بالطبع سوى الازدراء . وبفضل الشيوعيين أدركت أن مسلكى هذا السابق كان غاية فى الانحطاط . فقد كنت محباً لذاتى وعشت لنفسى فقط، وإن هذا كان يجر على الاكتئاب . أما الآن وقد غيرت مسلكى ، فالناس يقابلوننى بأذرع مفتوحة . وإنه لمن المسرات أن يمشى الإنسان وسط العمال وهو يعلم أنهم يعدونه صديقاً لهم . وإنى فخور بقيامى بنصيب فى إعادة بناء الصين تحت القيادة الملهمة التى نجدها فى « الرئيس ماو » والحزب الشيوعى » .

وعند وصوله إلى الصين أعتبره الشيوعيين بمثابة « الابن الضال » . وقد كان فى وسعهم أن يعاملوا « أعداء الشعب » دون أدنى رحمة ، ولكن السيد « لين » أثبت بعودته إلى الوطن أنه ذو ميول « سليمة » ، فأطرت الصحف هذا المسلك الوطنى من جانبه . وسعادة المذنب تزداد فى الجنة .

وقد جرى فى شأنه تحقيق وجيز؛ أثبت أنه لم يكتسب أمواله عن طريق « مناف للأخلاق » ، فضلا عما كان معروفاً عنه من أنه كان من مناهضى « شيانج كاى شيك » . وعلى ذلك أعيدت إليه إدارة مصانعه . قال لنا بهذه المناسبة : « وقد أسندت إلى أيضاً رياسة جماعة من الرأسماليين التقدميين الذين عهد إليهم بالمعاونة فى تمهيد الطريق للإشتراكية فى الصين . . . . » وكنت على وشك سؤاله عما إذا لم يكن ذلك بمثابة حفر قبره بيده ، ولكنه مضى فى كلامه فقال إن الشيوعيين كانوا قد وضعوا خلال غيابه عن الصين نظاماً اقتصادياً جديداً مؤقتاً أسموه الدور الانتقالى » ، يقضى بأن يقسم صافى الأرباح فى الأعمال التى لها صفة الملكية الخاصة فى كافة أنحاء البلاد إلى أربعة أقسام متساوية : قسم منها للدولة ، وآخر للعمال ، وآخر يضاف إلى رأس المال المستثمر

والقسم الرابع للمالك . وهذا على أن يستمر العمل بذلك النظام إلى أن تصبح الصين متأهبة للاشتراكية » .

ولم يعد « لين » يدير المصانع وحده ، بل يشاركه فى المسئولية شاب شيوعى يرعى مصلحة الدولة والعمال ، وقد أخبرنا أنه سار دائماً فى العمل مع رفيقه الشيوعى على أحسن حال ، وكنا نحل جميع المشاكل بروح الإحترام والتفاهم المتبادلين » .

على أن أحد معارفى الصينيين من الأيام السالفة وهو من رجال الأعمال ، كان قد أدلى لى بوصف يخالف ذلك بعض الشىء ، للعلائق بين المالك و بين أولئك « المديرين السياسيين » الذين نصبتهم الحكومة فى جميع المؤسسات الكبيرة ، فقال « إنهم فى الحقيقة أشبه شىء بالجواسيس . وكان الشيوعيون فى مبدأ قدومهم لا يعرفون شيئاً عن إدارة هذه المؤسسات ، بل كانوا بطبيعتهم يعدونها من مضادات المجتمع . غير أنهم مالبثوا أن أدركوا ضرورة قيامهم بتعلم هذه الشئون منا . إذ لم يكونوا يستطيعون دون ذلك مواصلة الأعمال التجارية مع سائر بلاد العالم ، مع حاجاتهم إلى التجارة . وكنا نحن الرأسماليين فى نظرهم أشبه شىء بالحيوانات المستوحشة ، يجب دراسة أحوالها فى أثناء القيام بترويضها . وكان لهؤلاء المديرين السياسيين حق الإطلاع على جميع دفاترنا ، لذلك أمكنهم بالطبع تعلم طرق عملنا والوقوف على أسرارنا التجارية » .

ولم يكن السيد « لين » عند عودته إلى « شنغهاى » يعرف شيئاً عن « الماركسية » وهو يقول فى ذلك : « بل إنها لم تكن من الأمور التى أهتم بها كثيراً ، ولكننى ما لبثت أن أدركت أنه لابد من تعلمى شيئاً عنها ، وإلا لا يكون فى استطاعتى حفظ مركزى فى المناقشات التى تدور بينى و بين مندوبى النقابة وزملائى الشيوعيين . فشرعت فى حضور المحاضرات والاجتماعات السياسية

وقد وصلت قبل أن أنتهى من تعلمى إلى الاقتناع بروعة تلك المحاجات المنطقية المادلة التى كنت من قبل أعمل على تنفيذها » .

وشفع السيد « لين » كلامه بابتسامة دلت على عظيم إرتياحه إلى تلك العبارة الجميلة التى اختتم بها الكلام .

ومنذ نحو سنة اتخذ الشيوعيون خطوة حاسمة نحو هدفهم النهائى ، وهو اشتراكية الدولة . ذلك أن الحكومة استولت على جميع المؤسسات الصناعية والتجارية . ولكن مع بقاء ملاكها السابقين مديرين لها . ولم يعد يصرف لهم جانب من الأرباح ، إذ قد صاروا بذلك موظفين يتقاضون مرتبات ثابتة . وكان مرتب السيد « لين » خمسة وسبعين جنيهاً فى الشهر .

وهو يحصل أيضاً على مبلغ إضافى قدره ٢٥٫٠٠٠ جنيه فى السنة ، أى نحو خمسة فى المائة من قيمة المصانع التى كان يملكها ، و يستمر ذلك مدة سبع سنوات فيكون إذ ذاك قد حصل على ما يزيد قليلا على ثلث قيمة مصانعه . وسيصرف لجميع الرأسماليين السابقين دفعات سنوية من هذا القبيل . وهى نوع من التعويض يرمى إلى كسب صداقتهم .

وقد نجحت الحكومة نجاحاً مدهشاً فى إحراز تعاون رجال الأعمال السابقين معها . و يرجع بعض السبب فى ذلك إلى فساد حكومة «شيانج كاى شيك» فى أيامها الأخيرة ، إذ كانت فرضت على رجال الأعمال ضريبة ثقيلة جداً حتى كادوا لا يستطيعون معها البقاء ، واستفحل الفساد فى الموظفين حتى صارت الامتيازات التجارية ونحوها تعطى لمن يدفع لهم فيها أعلى جعل ، واصبح الناس يقولون إن « أى شىء » سيكون خيراً من « شيانج » .

والشيوعيون على الأقل أمناء ، وحتى الذين يكرهونهم من رجال الأعمال لا يسعهم إلا الإعجاب بهم . وليس من أحد يستطيع أن ينكر إجادتهم للتنظيم . وجميع الصينيين يحسون بالفخار إذ قد صار الآن فى استطاعتى الصين صنع

الكثير من المصنوعات « الاستراتيجية » التى منع وصولها إلى البلاد فى أيام الحرب الكورية .

والصينيون من أقدر التجار فى العالم . وقد سألت السيد « لين » : أما يخشى أنهم بالنظام الحالى يفقدون الوازع الذى يدفعهم إلى التحمس لعملهم ؟

فلما هز رأسه إيماء بالنفى ، قصصت عليه ما جرى لى أنا و « شى بان » فى ذلك اليوم نفسه ، وهو أننا دخلنا أحد المحال التجارية فى أحد شوارع « شنغهاى » الرئيسية ، فلم يحضر أحد للسؤال عن طلبنا . فتوجهنا إلى كاتب بالمحل كان يقرأ فى صحيفة ، وأبديت له أننى أريد شراء صدرية .

« ليس عندنا صدريات » .

« ولكننى رأيت لقوى واحدة فى واجهة المحل » .

« ليس عندنا مقاسك » .

« إنى أود أجربها ، إذ يدل مظهرها على ملاءمتها لجسمى » .

فقال : « إن ذلك يكون من العبث » ، ومضى فى القراءة .

وكنا كذلك قد سمعنا الكثيرين من الصينيين يشكون من أن الخدمة بالمحال التجارية ليست بالجودة التى كانت عليها من قبل . وفى بعض الحوانيت يقوم المستخدمون فى منتصف الشهر بعمل حساب عن دخل المحل ، فإذا كان الربح إلى ذلك الوقت يكفى لسد النفقات وصرف مرتباتهم ، لزموا الهوينا فى عملهم فى المدة الباقية من الشهر . وكان المرء من قبل يستطيع الحصول على بدلة فى ظرف يومين من وقت التوصية بصنعها ، أما الآن فإن ذلك يستغرق أشهراً — إذ أن الخياطين أيضاً قد أصبحوا من موظفى الحكومة . ومثل ذلك صحيح فى الصناع الفنيين . فإننا نعرف دبلوماسياً كان بمنزله صنبور لا يحكم حبس المياه ، ومضى على ذلك نحو نصف عام ولم يجد أحد وقتاً للحضور لإصلاحه .

ثم قصصت على السيد « لين » أننا « فى طريقنا إلى الصين زرنا

« يوغوسلافيا » . وكان اليوغوسلافيين أيضاً قد أدخلوا فى بلادهم نظام الإشتراكية فى أعقاب الحرب (العالمية الثانية) ، ولكنهم أقلعوا عنه بعد أربع سنوات أو خمس ، إذ وجدوا الإنتاج دائماً فى نقصان » .

قال السيد « لين » معترضاً : « آه ، ولكن الحال فى الصين تختلف عن ذلك . فإننا معشر الصينيين قد تشبعنا بالوطنية بعد التحرير أيما تشبع ، حتى أصبحنا لا نهتم بمكاسبنا الشخصية »

والظاهر أن ما بدا على وجهى من عدم تصديقى لهذا القول قد أقلقه بعض الشىء ، فشفع كلامه فى الحال بقوله « وبالطبع توجد بعض المصاعب فى البداية فإن الطريق إلى الاشتراكية ليس بالسهل ، ولكننا سوف نتغلب على جميع العقبات . وأنا الذى قمت بنفسى برجاء أولى الأمر أن يستولوا على مصانعى وكنت من أوائل الذين فعلوا ذلك . وأرجو ألا تنسى أن كل شىء فى الصين قد جرى بطريق الاختيار ، وأن الأمر كله مصدره إرادة الشعب » .

فاعترضت على أقواله ، وقلت إن الصينى الذى أعرفه لم يكن قط متحمساً لتسليم مؤسسته ، وقد قال لى فى هذا الشأن مانصه : « ولكن لم يكن هناك طريق آخر ، فإننا بغير ذلك لم نكن لنحصل على المواد الغفل (الخامات) من الدولة فإنها لا تمد بها إلا المتقدمين ، وهذا فضلاعن تشجيع العمال على الإضراب ضدنا ، وعن مضاعفة الضرائب كل يوم ، وتغريمنا عن أنوع شتى من المخالفات التى لم تكن تعد مخالفات وقت وقوعها ، وبعد أن تؤدى بنا الحكومة إلى حافة الخراب تتقدم هى كملاك للإنقاذ وتستولى على المؤسسات » .

فأجاب السيد « لين » بقوله إن مثل هذه المصاعب ربما لاقاها الرجعيون من رجال الأعمال وأصحاب المصانع ، « وأنا لا أعرف عن ذلك شيئاً ، أما فيما يختص بشخصى ، فليس لدى مما أشكو منه إطلاقاً ، وإنى سعيد حقاً باستيلاء الحكومة على مصانعى » .

وأضاف إلى ذلك أنه سبق له أن أجرى أحاديث مع كثيرين غيرى من الصحفيين الأجانب ، فكان من الصعب عليهم أيضاً أن يصدقوا أنه كان يعنى حقاً ما يقول . ثم قال وهو يطوح بديه السمينتين : « وما الفائدة من اقتناء الكثير من المال اليوم ؟ إن المرء ليس فى حاجة إليه ، فما من أحد يمارس الآن لعب « الماهجونج » أو الاحتفاظ بمحظيات ، أو أى شىء من هذا القبيل . فنحن نعيش فى الصين الجديدة عيشة طاهرة إسبرطية . لقد كان لى فيما مضى خمس سيارات أو ست ، أما الآن فليس لى سوى سيارة واحدة — وما حاجتى بأكثر منها ! إن الإنسان لا يستطيع أكل المال . لقد كنت من قبل سميناً ولم أكن فى صحة جيدة ، فكان قلبى معتلا وكنت لا أستطيع النوم إلا بالحبوب المنومة . أما الآن فلا أحمل شيئاً من المسئوليات ، ولا شىء يقلق بالى »

ثم أنزل يده إلى موضع حزامه وقال : « قد نقص وزنى ثمانية عشر رطلا منذ عودتى من « هونج كونج » انظر . إن بطنى قد اختفت تقريباً . إننى أنام بلا حراك كالطوبة ، و . . . . »

عند ذلك دق التليفون ، وتناول السيد « اين » السماعة ، وما لبث أن استأذننا فى الإنصراف لاضطراره إلى حضور إجتماع هام .

و بعد مغادرتنا المكان ، أنا و « شى يان » نظر كل منا إلى الآخر ، وقلت « إننى لا أستطيع فهم كنهه تماماً . إنه بلا شك كان يقصد بعض ماقاله ، ولكن إلى أى حد ؟ إنك صينية ، ولعل فى استطاعتك معرفة الحقيقة »

فكان جواب « شى يان » أن قصت علىّ قصة سمعتها منذ بضعة أيام ، وهى أن « ماوتسى تونج » استدعى إليه الرجلين اللذين يليانه فى القيادة ، وهما « ليوشاوشى » و « شو إن لاى » وسألهما : « كيف يستطيع الإنسان أن يجعل القطة تأكل الفلفل ؟ فأجاب « ليوشاوشو » ، الذى هو أعظم عالم بين الصينيين بالنظريات الماركسية ومن أكثرهم إعجاباً بشخصية « ستالين » ، وفى اعتقاد

الـكثيرين أنه هو الذى سيخلف « ماو » ، بأن قال : « إن الأمر سهل جداً .
فما على الإنسان إلا أن يكلف أحداً بالإمساك بالقطة ، ثم يحشى فمها بالفلفل
ويدكه بعود من عيدان تناول الطعام» . فرفع «ماو » يده هلعاً من هذا الرأى ،
وقال : « لا . لا . يجب ألا يستعمل العنف قط ــ فإن ذلك مناف للديمقراطية .
وكل شىء يجب أن يكون عن اختيار . ثم التفت إلى « شو إن لاى » وقال :
« وكيف تقوم أنت بذلك ؟» .

فأجاب رئيس الوزراء ذو البراعة الدبلوماسية ، بقوله : « إنى أحبس الطعام
عن القطة حتى تتضور من الجوع ، ثم ألف الفلفل بشريحة من اللحم ، فيدفعها
اشتداد الجوع إلى التهام الشىء بأكمله » .

فهز « ماو » رأسه مرة أخرى ، وقال : « وكذلك لا يصح استعمال الغش
ــ لاتخدعوا الناس أبدا» . فنظر إليه الرجلان مستفسرين ، وقالا : « إذن كيف
يستطيع الإنسان عمل ذلك ؟ »

فأجاب « ماو » بأن الأمر سهل جدا ــ ما على الإنسان إلا أن يدلك
مؤخر القطة بالفلفل دلـكاجيدا ، فإذا اشتدت عليها الحرقة أخذت تلعق الفلفل
بلسانها ، ويسعدها أن يسمح لها بمزاولة ذلك .

واختتمت زوجتى الـكلام بقولها : « وإنى أرى أن السيد « لين » قد
أكل نصيبه من الفلفل » .

الفصل السابع عشر

« واى تى » ضجرة

قبيل نشوب الحرب الأخيرة كنت أعمل مخبراً صحفياً فى جريدة تصدر فى « شنغهاى » باللغة الإنجليزية . وفى ذات يوم عدت إلى المنزل وأخبرت زوجتى فى انفعال بأن رئيس التحرير عهد إلى بمهمة عجيبة .

فقلت : « إننى سأقوم بكتابة سلسلة من المقالات بشأن الدعارة فى « شنغهاى » . وعندئذ فترت ابتسامتى ، إذ بدا على وجه زوجتى أنها لا تشاركنى هذا التحمس .

قالت « ولماذا اختارك بالذات لهذه المهمة ! وكدت أفشى نص الألفاظ التى فاه بها رئيس التحرير ، وهى « أظن يا « إسكلاند » أن هذا هو الشىء الذى يلائمك بالضبط » ، ولكننى أمسكت لسانى فى الوقت الملائم . فقد كان زواجنا حديث العهد ، وخشيت أن زوجتى ربما لا يعجبها هذا الكلام .

وظلت خلال الأسبوعين التاليين لا ترانى إلا قليلا ، وكانت كلما سأل أصدقاؤنا عنى تجيب فى إيجاز بقولها : «أظن أنه فى أحد بيوت الدعارة » وقد كان عزمى فى أول الأمر أن أزور جميع البيوت السيئة السمعة فى « شنغهاى » ولكننى عدلت عن ذلك حين علمت أنه يوجد بالمدينة ثمانمائة بيت مسجل للبغاء ، فضلا عن الكثير جداً من البيوت التى لم تحظ باعتراف أولى الأمر بها .

وقد قمت بإجراء أحاديث مع فتيات من جميع بقاع العالم . فكان معظمهن لاجئات فررن من شىء ما — كالبولشفيك ، أوهتلر ، أو القحط فى أنحاء الريف وإذا لم يكن من السهل عليهن العثور على عمل ما فى « شنغهاى » الشديدة الازدحام ، فقد كانت الحاجة تضطرهن إلى بيع الشىء الوحيد الذى يملكنه والذى كان يجد الراغبين فى دفع ثمنه .

قالت لى فتاة يابانية صغيرة : « كان أبواى مدينين » ، وقد تسلما أجر مكثها هنا وقدره خمسمائة « ين » أى ما كان يعادل ٤٠ جنيها فى تلك الأيام . وكانت مدة « العقد » الذى ارتبطت به خمس سنوات ، تستطيع بعدها العودة إلى اليابان وقد احمر وجهها خجلا وهى تفتح حقيبتها البالية التى تحتوى على ملابسها لتخرج منها صورة فوتوغرافية .

وقالت : « هذا هو خطيبى . إنه ما زال فى انتظارى » .

وهذا الإجراء ليس بالنادر فى اليابان ، إذ لا يرى الناس هنالك فى الدعارة ما يحط من القدر .

ثم إن فتاة صينية تبلغ من العمر خمس عشر سنة عرضت على أن نشترك فى شرب سجارة هيروين . وكانت تعلم أن هذا التدخين يهدم صحتها ، ولكنه كان يسهل مواجهتها لما كانت تقوم به . وكانت هى أيضاً ذات يوم مخطوبة لأحد الشبان ، ولكنها كانت تعرف أنه لا يكاد يكون هناك رجاء الآن فى عثورها على زوج . فإنه قل أن يوجد بين الصينيين من يقبل الزواج بعاهر .

وفى ساعة متأخرة من ذات مساء رأيت فتاة صينية من ذارعات الشوارع ، كانت قد عثرت على « عميل » ، وما أظن أنها كانت تتجاوز الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من العمر ، فأخذته إلى حجرة صغيرة يطل مدخلها على الطريق العام وقد دخلت فى أول الأمر وحدها ، وأيقظت أهلها ، فخرجوا جميعاً — والدها وأمها وجدتها لأمها ، ونحو أربعة أو خمسة من إخوتها الصغار بين بنين و بنات وظلوا فى الخارج ينتظرون . . .

والفتيات اللائى يعملن فى دور البغاء يعتبرن فى مرتبة أعلى نوعاً من ذارعات الشوارع . وفتيات هذا الصنف الأخير ترافقهن دائماً امرأة كبيرة السن تقوم بدور الوساطة ، إذ يخرج الفتاة أن تقوم بنفسها بالمساومة مع العميل — فإن الصينيين مهما نزلوا إلى الحضيض من الإنحطاط ، يحتفظون بشىء من الكرامة .

وكانت الشوارع الرئيسية لا تخلو قط من العاهرات ، فكنت ترى صفوفاً من بنات الريف يحاولن الإغراء بالابتسام من وجوه علتها طبقة سميكة من المسحوق الأبيض . وكل إذا قام البوليس الدولى بحملة تفتيش فجائية يهرعن إلى التشتت فى جميع الاتجاهات . وكان يقبض على قليل منهن وتفرض عليهن غرامة لعدم حصولهن على رخصة . ولا تكاد عربة الشرطة تختفى حتى تعود الفتيات إلى الظهور فى الشوارع .

وكنت قد قلت فى آخر مقال من تلك السلسلة : « أن لاحل لهذه المسألة » ، ولكن ها نحن أولاء قد عدنا إلى « شنغهاى » ، فذهلنا لعدم رؤية فتاة واحدة من ذارعات الشوارع، وأخبرنا كذلك بأنه لم يعد هنالك شىء من بيوت الدعارة .

فكيف نجح الشيوعيون فى القضاء على الدعارة فى هذه المدينة التى هى رابعة أو خامسة مدن العالم ! لقد كان هذا السؤال فى مقدمة الأسئلة التى وجهتها إلى الآنسة « ليو » إنها لابد تعرف ذلك ، لأنها مع كونها لم تتجاوز الخامسة والعشرين من عمرها ، كانت تشغل منصب مديرة « ملجأ شنغهاى لإيواء العاهرات » .

كنا نجلس فى قاعة الاجتماع ذات صفوف المقاعد الخشبية . وقد رأينا على سبورة بها شعارات وأبياتاً من الشعر ، كتبتها الفتيات إعراباً عن امتنانهن وولائهن للرئيس « ماو » وكنا نسمع عن طريق النافذة المفتوحة طقطقة بعض الآلات ، كان ذلك الصوت آتياً من المبنى المجاور ، حيث تباشر الفتيات أعمالهن.

وكانت الآنسة « ليو » خلال إجابتها على أسئلتى تعبث على الورق بقلم رصاص فى يدها ، فهيىء لى أنها كانت تكتب معادلة :

الدعارة = الإستغلال . الإستغلال = الخطيئة .

وكيف يستطيع أولو الأمر منع الناس من ارتكاب الخطيئة ! بتحريمها ، طبعاً وهذا ما قد حصل . فإنه بعد قليل من قدوم الشيوعيين صدرت الأوامر

بإغلاق بيوت الدعارة . وقد أذعن معظم ملاك هذه البيوت للأوامر، إذ كانت لديهم روح الطاعة المستنيرة للشيوعيين ، وأعيدت الفتيات إلى بيوتهن .

وظن نفر قليل من ملاك تلك البيوت أن الشيوعيين لم يكونوا جادين فى قرارهم ، وحاولوا الاستمرار فى ممارسة عملهن خفية ، فلم تغفل الحكومة أمرهم .

« وماذا جرى لهم ! »

« لقد أعدموا رمياً بالرصاص » . قالت ذلك الآنسة « ليو » وغرست بقلمها الرصاص نقطة وقف . وقد أرسلت فتيات هذه الطائفة من البيوت إلى هذا الملجأ وقد كان بعضهن فى حالة سبات شديد من أثر المرض والمخدرات ، حتى إننا كنا نضطر لشرح أى شىء لهن مراراً قبل أن يستطعن فهمه . وكانت بينهن واحدة لا يزيد سنها على اثنتى عشرة سنة .

« وكان بعضهن يخمشن بأظفارهن ويقاومن فى شراسة عند المجىء بهن وكنا نضطر إلى إمساكهن بالقوة عند إعطائهن حقن العلاج من الأمراض الجنسية . ولا عجب ، فإنهن لم يعرفن الحنان من قبل ، ولم يكن فى وسعهن أن يصدقن أن أحداً من الناس يريد مساعدتهن . بل الأغلب أن والديهن قابلوهن باللعنة من يوم مولدهن ، إذ كن بنات لا غلماناً »

قالت الآنسة « ليو » فى صوتها الرقيق : « إن قبل التحرير ، كانت حياة الكثير من النساء شنيعة » . فأومأت زوجتى برأسها إقراراً بذلك . إنها نفسها نشئت تنشئة غريبة تقريباً ، إذ كان والداها كلاهما قد تلقيا دراسة بالولايات المتحدة وصارت نظرتهما للحياة عصرية ، ولكنها عندما كانت تزور صديقاتها كانت ترى مبلغ ما قد تصل إليه النساء من الضيق فى الأسرات الصينية المتمسكة بالتقاليد العتيقة .

ففى تلك الأيام كان من المألوف أن يكون للرجال الأثرياء عدة زوجات وكانت جميع الظواهر تشير إلى أن الأحوال فى الأسرة سائرة على ما يرام ، إذ كان

لا يسمح بتسرب ما يقع من الخلاف إلى الخارج ، حرصاً على كرامة الأسرة ولكن الواقع أن الزوجة الأولى كانت تقع فى عذاب أليم من الغيرة عندما يأتى زوجها بإمرأة أخرى للعيش معها . وعندئذ يتحطم السلام فى المنزل ، فكانت كل من الزوجات تقف للأخرى بالمرصاد : من التى كانت منهن أقرب إلى قلبه وأبناء من منهن كانوا يحظون بأكبر جانب من محبته ! وكانت تبدو على مخاطبة كل منهن للأخرى مظاهر الأدب ، ولكن الواقع أن الكثير من عباراتهن كانت تحمل السهام فى طياتها .

وكان الواجب على صغرى الزوجات أن تطيع كبيراتهن . وكان هؤلاء يسعين لإلقاء أحط الأعمال المنزلية على عاتقها و يعملن على تحقيرها . ثم إن هناك الحماة ، فإنها كثيراً ما كانت فى غاية الخسة والدناءة ، إذ أنها عانت فى يوم ما آلام المعاملة السيئة من والدة زوجها ، فكانت تعمد الآن إلى الانتقام لنفسها .

وعندما تفقد آخرة الزوجات محبة الزوج ، يؤتى إلى المنزل بزوجة جديدة فكانت تقابل بسلام من الأخريات ، ولكنها لم تكن تلقى احتراماً من أحد — إلا عندما تموت الزوجات الأخريات ، فتتبوأ هى مركز الاحترام ، بعد أن تكون قد صارت إمرأة عجوزاً أنهكتها مرارة الحياة .

قالت الآنسة « ليو » : « إن الرجال والنساء قد أصبحوا اليوم متساوين فى الصين ، وصارت للنساء كرامة جديدة » .

عند ذلك أومأت برأسى إقراراً لكلامهما . فقد تذكرت ما قالته أخت زوجتى « لشى يان » فى أحد الأيام الأولى من وصولنا ، وهو : « أن الشيوعيين قد قاموا بعمل واحد سوف نذكره نحن النساء دائماً مع عظيم الامتنان . فإنهم قد قضوا على ما كان عندنا من الخوف ، فلم يعد هناك داع للقلق من احتمال قيام رجالنا بالعبث مع غيرنا من النساء » .

طبعاً إن الرجال المتزوجين فى الصين لم يفقدوا كلهم فجأة الرغبة فى الالتفات

إلى غير زوجاتهم من النساء ، ولـكن لم يعد أمامهم السبيل إلى ذلك . فقد صار من المحرم الآن أن يكون للرجل أكثر من زوجة واحدة ، وليس هناك أية عاهرات ، فيضطر الرجال إلى الرضا بالعفة . و إذا حدث أن رجلا متزوجاً أخذ يداعب إمرأة ما ، فإن النبأ سرعان ما يبلغ لجنة الحى ، وهذه تبعث بالخبر إلى « اتحاد النساء » فيقوم الاتحاد بإيفاد أحد من قبله للتحدث فى الأمر مع الزوج المذنب . فإن لم يرتدع بهذا الإنذار أبلغ الأمر إلى رئيس عمله .

ثم أخذت الآنسة « ليو » تطوف بنا بسائر أمـكنة الملجأ . فرأينا فى مبنى المصنع أكثر من مائة فتاة واقفات أمام أنوالهن . وقد بدا لنا فى أول لحظة أن شعرهن أبيض ، ولـكنه زغب القطن كان قد تطاير من سرعة حركة المكا كيك ونظرت الفتيات إلينا نظرة هيىء لى أنها عبوسة ، إذ لا يخفى أنه لم يكن من الهين الوقوف ثمانى ساعات فى اليوم أمام تلك الآلات الجهنمية الضخمة الشديدة الضوضاء ، غير أنه لم يكد يتبين لهن أن رجلا قد دخل المكان حتى بادرن إلى مس شعرهن ورد الخصلات الضالة منه إلى أماكنها ، ثم اعتدلن بقاماتهن وأخذن فى الإبتسام بل إن اثنتين منهن عمدتا جهراً إلى التدلل بحالة بعثت الإحمرار إلى وجهى . ومن الجائز أن الملجأ كان له فيهن تأثير حسن ، غير أنه بدا من حالتهن أن شفاءهن لم يتم على الوجه الأكمل .

ثم شاهدنا عنابر النوم ، والمطبخ الذى تقوم فيه الفتيات بطهو طعامهن بأنفسهن ، والمستشفى ، فكان كل شىء فيها على غاية ما يرام من النظافة وحسن الرونق . وقد قالت الآنسة « ليو » إن العمل هو أهم العوامل فى إصلاح شأن الفتيات ، لأنه يولد فيهن خليقة احترام النفس . وهن يتقاضين أجوراً تقل بقدر عشرين فى المائة عن المقرر فى المصانع النظامية ، غير أنهن لا يدفعن فى مقابل المأكل والمسكن سوى نحو شان واحد فى اليوم ، و بهذا يستطعن ، إذا أردن إدخار ما يقرب من خمسة جنيهات فى الشهر .

وتقوم الفتيات بعد أوقات العمل بتلقى دراسة لمدة ساعتين فى اليوم . وقد بلغت جملة من دخل منهن الملجأ منذ وقت التحرير ٥٠٠٠ر٥ فتاة ، منهن نحو ثمانين فى المائة كن أميات عند دخولهن ، ولما غادرن الملجأ كن جميعاً يعرفن القراءة والكتابة . وكان بعضهن يقضى بالملجأ ستة أشهر ، وبعضهن طالت مدته حتى بلغت عامين ، والمتبع هو أن يطلق سراحهن عندما يبرهن على أنهن نادمات على ما فرط من عيشتهن السابقة المرذولة ، وأصبحن « تقدميات » فى تفكيرهن .

قلت : « ومن الذى يحكم بأنهن قد نلن الإصلاح الكافى ؟ »

قالت : « إن الفتيات يقمن بذلك . فإنهن مقسمات إلى مجموعات يعهد إليها بالفصل فى الأمر » .

قلت : « وماذا لو تآمرت الفتيات على إخراج بعضهن بعضاً ؟ »

فتبسمت الآنسة « ليو » وقالت : « إننى أنا ومعاوناتى نشترك أيضاً فى التصويت ، ونحن لا نسمح بالطبع بأن تغادر إحدى الأخوات الملجأ إذا كنا نرى أنه يخشى عليها من نكسة . فإن مدينة كبيرة مثل « شنغهاى » مليئة بعوامل الإغراء » .

وعندما دخلنا قاعة التسلية والرياضة ، أقبلت فتاتان على الآنسة « ليو » وكانتا فى يوم راحتهما . فوضعت إحداهما ذراعها حول عنق الآنسة « ليو » كما لو كانت رفيقتها فى الدراسة وقالت : « إن كرة تنس الطاولة التى نلعب بها مكسورة ، فهل نستطيع الحصول على كرة جديدة ! »

« بالطبع » . قالت ذلك الآنسة « ليو » وهى تلمس بيدها شعر الفتاة المموج — والفتيات هنا لا يسمح لهن بتزيين الوجه بالمساحيق ونحوها ، وإنما يسمح بعمل التمويج الدائم فى شعرهن — ثم قالت لها : «هاهو ذا مفتاح الخزانة» عند ذلك أخذت أوجه بعض الأسئلة للفتاتين . كانت صغراهما تدعى

« واى تى » وتبلغ من السن خمسة عشر عاماً ، فسألتها لماذا هى هنا ؟

فقالت فى ضحكة متقطعة : « لقد كنت نشالة ، وكنت فى أول أمرى تابعة لعصابة » .

قلت : « وهل كنت فى حاجة إلى المال ؟ »

« لا — أبداً » . فإن أسرتها كانت فى حالة لا بأس بها من اليسر ، إذ كان أبوها رئيس عمال الموائد على ظهر باخرة نهرية ، وأمها كانت تعمل فى أحد المصانع . لكنها كانت دائماً وحدها بالمنزل ، وعلى ذلك — فى ظرف ما، أو لأمر ما ، انضمت إلى العصابة .

قلت : « وعلى ذلك قبضت عليك الشرطة فى نهاية الأمر » .

قالت : « كلا . إنه لم يقبض على بسبب السرقة . فإنى كنت نشالة ماهرة ، ولم يمسكنى أحد قط فى النشل » وكان صوتها وهى تقول ذلك يشعر بالافتخار . وواصلت كلامها فقالت: «ثم بدأت فى فعل ذلك الشىء الآخر وقبض على بسببه»

وهنا أوضحت الآنسة « ليو » أن علاقات وثيقة كانت قد نشأت بين « واى تى » وبين أكثر من اثنى عشر رجلا ، تعرفت بهم عن طريق رئيس العصابة .

وقلت : « وهل كانوا ينقدونك أجراً على ذلك » .

قالت : « لا . أبداً . بل إننى لم يكن لى ميل خاص لفعل ذلك » .

قلت : « إذن لماذا كنت تفعلينه » .

فقطبت جبينها ، وأطلت من النافذة ، وفجأة ظهرت ابتسامة على وجهها المستدير الذى تغمره الطفولة ، وقالت :

« لأننى كنت ضجرة جداً من الحياة » .

ثم قالت الآنسة « ليو » إنه لم يبق الآن بالملجأ سوى مائتى أخت ، لايكاد يكون بينهن من كن يحترفن الدعارة . ومعظمهن من سن « واى تى » أو

يكبرنها بقليل . وكن يقترفن مثل ما كانت تقترفه — من أعمال العبث المتناقضة ـ والسرقة ، والعمل مع عصابات الخطف المتشردة .

وكان يطلق على أعضاء هذه العصابات « آ ـ فيس » ، والترجمة الحرفية لهذا الاسم : « الذى يطير » . والسبب فى إطلاقه عليهم أن الصبيان منهم كانوا يرجلون شعورهم إلى أعلى فى وضع شارد متموج .

فسألت هل كانت هناك دلائل أخرى يعرف بها أعضاء « الآفيس » . فقالت « واى تى » : « نعم ، فإن الصبيان منهم والبنات على السواء كانوا يحبون لبس السراويل الضيقة جداً ويطوون أطرافها إلى ما يقارب الركبتين . ولهم لغة عامية سرية ، ويحبون الرقص وخاصة على موسيقى « الجاز » . » .

فقالت الآنسة « ليو » : « إنها على كل حال مشكلة جديدة مؤقتة » — وفى أملها أنها سوف تختفى من تلقاء نفسها متى استكمل الشيوعيون تنفيذ جميع إصلاحاتهم الاجتماعية .

على أننى سمعت صينيين آخرين يقولون : إن نفس هذه الاصلاحات هى سبب من أسباب ظاهرة الشرود الجديدة . فقد بذل الشيوعيون غاية وسعهم لتقويض ما لجيل الكبار فى السن من السلطة على الشباب . فلم يعد للآباء السلطة التامة على أبنائهم ، وقد نشرت صحف « شنغهاى » أخيراً أن بعض الأبناء الصغار جروا أباهم إلى مركز الشرطة لأنه حاول ضربهم . فقيل للأب أن لاحق له فى ذلك ، فإنهم أبناء «الرئيس ماو » وموضع أمل الصين الجديدة .

كذلك ضاع ما كان لمعلمى المدارس من الاحترام . فإنه قبل وصولنا إلى « شنغهاى » ببضعة أشهر روت الصحف حادثاً عن قيام بعض تلاميذ مدرسة ثانوية بضرب مدرسهم ، فلما جاء ناظر المدرسة ضربوه أيضاً . فلما استدعى إلى المدرسة اثنان من رجال الشرطة ، لم يكن نصيبهما خيراً مما سبق . وأخيراً

جاء رئيس الشرطة وحاول إقناع أولئك الصغار الغضاب بالحجة ، فطردوه طرداً. ولم يكن إخماد ثورتهم إلا بعد المجيء بفرقة كاملة من الشرطة المسلحة بالمراوات .

والشاهد أنه مع مايعمد إليه الشيوعيون من منتهى الشدة فى معاملة المذنبين السياسيين ، فإنهم يعاملون الشباب بلين قد يصل إلى درجة مدهشة . ذلك أنهم شديدو الرغبة فى كسب مساندتهم لهم ، ولهــذا يعطونهم أقصى ما يستطاع من الحرية ـ ولـكننى أظن أنهم أخذوا يدركون أن هذه الحرية تتناقض مع الشيوعية.

وقد سمعت فى « بكين » عن إصلاحية للبنين ، كان الـكثير منهم من فريق « الآفيس » . وكانوا يثورون مرتين فى كل أسبوع بلا إنقطاع ، فكانوا يكسرون عيدان تناول الطعام ويهشمون آنية الأرز ، وقد ضاق المدرسون بهذه الحال إلى أقصى درجة ، إذ كان المفهوم لديهم ألا يستعملوا القوة ، ولم تـكن ثمة فائدة من المحاجة أو الإقناع .

وكان نحو أربعين فى المائة من هؤلاء الصبية من أسر « تقدمية » . وكان آباؤهم من الموظفين فى وظائف ثابتة وأمهاتهم يعملن فى أعمال خارج المنزل ـ على الطريقة الواجبة فى الصين الجديدة ، وهى التى تقضى بأن يكون لـكل إنسان عمل ما ، حرصاً على تنمية اقتصاد البلاد ورفع مستوى المعيشة فيها .

ولـكنهم بذلك كانوا يتركون أطفالهم وحدهم مدة أطول مما ينبغى ، بل إن الأطفال كانوا يبقون وحدهم فى المساء أيضاً لإضطرار والديهم لحضور الاجتماعات : ومن هنا كانت « واى تى » ضجرة .

وكان وقت الظهر قد أتى ، وأطلقت جميع مصانع « شنغهاى » صفاراتها . فانطلق باب مصنع النسيج بالملجأ مفتوحاً على مصراعيه ، وأخذت الفتيات يخرجن منه فى سيل متصل . فقمنا نريد الانصراف ، لـكن رفيقة « واى تى » استوقفتنا لنسمع كلمة تريد قولها .

فقالت : « إنه فى المجتمع الرأسمالى لا يعمل شىء ما لأمثالنا من الفتيات ، بل يدسن بالأرجل كما تداس الزهور (الذابلة) ، ولكننا هنا فى جمهورية الشعب الديمقراطية ... »

فقاطعتها « واى تى » بقولها : « كفى عن هذا الكلام وأبقيه للاجتماع السياسى الليلة . أما الآن فهيا بنا نتناول طعام الغداء » .

الفصل الثامن عشر

إرادة الشعب

« أما تذكر « ونج هينج لى » ؟ »

سألنى صديقى الصينى هذا السؤال وهو ينظر إلى مستفسراً، وقد كان دعانى للغــذاء معه فى الخارج ، وكنا قد فرغنا من تناول الطعام وأخذنا فى تسليك أسناننا على نحو ما يفعله الصينيون بعد الطعام .

« كلا . لا أظن أننى أعرف أحداً بهذا الاسم » .

« أنت تعرفه لامحالة. لقد كنت منذ سنوات كثيرة تلعب معه التنس،وكان له فى تلك الأيام عدد يذكر من الأصدقاء الأجانب وكانوا يسمونه « هنرى » .

« آه — « هنرى ونج ! » نعم لقد تذكرته الآن : ذلك الشاب الصينى الممشوق الجسم الذى يعادلنى فى السن ، وكان بأســنانه الأمامية الــكثير من « الحشو » الذهبى الذى كان يلمع فى الشمس عندما كان يبتسم فى خجل عبر شبكة التنس . وكان كثير الاعتذار لأنه كان دائمـاً هو الفائز فى اللعب ، وكان يحاول فى بعض الأوقات أن يكون هو المغلوب، لــكنه قلما كان ينجح فى ذلك» .

وواصل صديقى الــكلام فقال : إن له رغبة شديدة فى مقابلتك »، ولــكنه هز رأسه عندما اقترحت أن يحضر « هنرى » لمقابلتى فى الفندق ، وقال : « إنه لا يستطيع دخول الفندق دون أن يخبر حارس البــاب باسمه وعنوانه . لقد لقى « هنرى » كثيراً من المتاعب من أولى الأمر ، ومن الأفضل ألا يعلموا شيئاً عن مقابلته لك . أما تستطيع أن تمر عليه أنت بمنزله ؟ »

« ولــكن فى هذه الحالة يرانى جيرانه و يبلغون عن الأمر » .

« ليس له جيران ، فإنه يقيم فى منزل صغير خارج المدينة ، وتجده بالمنزل فى جميع الأوقات تقريباً » .

وفى صباح اليوم التالى خرجت لزيارة « هـــنرى » . فركبت إحدى السيارات المشتركة ، وبقيت فيها لآخر الخط ، فلم أكد أمشى قليلا حتى وجدتنى قد جاوزت جميع المساكن وصرت فى الخلاء . وقد كان الهواء صافياً نقياً ، وقد تمثل لى السكون فى أروع ما يكون بعد أن تركت ضوضاء المدينــة من ورائى .

ثم وصلت إلى بيت ريفى صغير . وكان ورق نوافذه ممزقاً ، فتسنى لى أن أرى من داخلها هيكل الحيطان المتخذ من الغاب الهندى وكان قد سقطت عنه الطبقة الطينية التى كانت تكسوه . فأخذت أقول فى نفسى إن من المستحيل أن يكون هذا هو مسكنه ، وبينما أنا كذلك إذا بى أرى بالباب رجلا طويلا ، بجسمه شيء من الانحناء ، فبادرنى بقوله : « أهلا . . . يا كارل » .

وكانت صورته فى ذهنى أنه شاب أنيق فى ملبسه يرتدى الملابس الأوربية ، وإذا بى أراه الآن فى الثياب القطنية الزرقاء ، وقد لحقهــا كثير من التجعد ونظافتها على غير ما يرام . وقد شد على يدى ، وخبطنى على كتفى . ولمحت فى الحال « حشو » أسنانه الذهبى يلمع فى فمه .

ثم قال : « سأعد لك فنجاناً من الشاى » ، وأنتحى جانباً لإشعالى موقد البترول « البريموس » ، وكان خلال معالجته للموقد لا يتوقف عن الــكلام عن الأيام الماضية ، وكان يبدو فى ذلك منهمكا مستعجلا كأنه يخشى مرور الوقت .

وأخذت أسرح نظرى فى الحجرة الصغيرة ، فرأيت التراب قد تراكم فى بيوت العنكبوت التى تكونت تحت إفريز السقف . وكان بالحجرة سرير صغير « سفرى » وكرسيان ومكتب مهشم . ورأيت فوق كداسة من الــكتب درعا من الفضة ، وكان لونه قد أغبر ، حتى إننى اضطررت لرفعه فى يدى لأتمكن من

قراءة ما عليه من النقوش، فإذا بها: «الجائزة الأولى فى مباراة الرجال الفرادى — أغسطس سنة ١٩٤١ » .

وأخيراً بدأ موقد « البريموس » فى هسيسه . فجلس « هنرى » على السرير السفرى وقال : « إنى لا أخالك تعرف مبلغ سرورى برؤياك . إننى قلما أستطيع التحدث إلى أحد ، فهل أنت فى عجلة ؟ » .

وكان ينظر إلى فى قلق وهو ينتظر جوابى ، وكانت خطتى أن أمكث هنا فترة يسيرة ، ولكنى هززت رأسى إيمــاء بعدم تمجلى . فابتسم « هنرى » ابتسامة من جاءه الفرج، ومضى فى الكلام. فسألنى أما زالت أذكر « جاك » ذلك اللاعب الأعسر ؟ و « هنريخ » الألمانى الدائم الاكتئاب ؟ ذلك المساء الذى رقصنا فيه ؟ .

عندئذ أخذ الماء يغلى ، وبعد أتم صب الشاى جلس ليواصل كلامه ، وقد شبك يديه حول ركبة واحدة ، فقال : « لقد قرأت فى الصحف أنك عازم على وضع كتاب عن الصين ، فكم من الوقت مضيت هنا ؟ »

« ثلاثة أشهر » .

« وما رأيك عن الصين الجديدة ؟ »

فترددت وشعرت بصعوبة التعبير عن مشاعرى . لقد كانت خليطاً امتزج بعضه ببعض ، فقلت : « إننى فى لحظة ما أشعر فى تحمس بالأعجاب بما قام به الشيوعيون : فقد أختفى المتسولون ، وتحسنت حال العمال ، وزال الفساد ، وتقدمت الصناعة تقدماً لا يكاد يصدق . ولكن سرعان ما تأتى لحظة أخرى أشعر فيها بأن هذا الاصلاح قد دفع فيه ثمن فاضح : قد ألبست الصين ثوباً جامداً من الخوف ، فلم يعد أحد فيها يتكلم بحرية ، ولا يكاد الناس يجرؤون على التفكير . ولم أشعر قط فى أى مكان آخر بمثل ماشعرت به هنا من الانقباض ، وإن كنت أظن أن هذا الشعور نفسه لابد أن يعترى جميع الوافدين من البلاد

الغربية . وإنى أتطلع فى شوق إلى اليوم الذى أغادر فيه البلاد . ومثلى فى ذلك زوجتى » .

فأومأ « هنرى » برأسه إقراراً لكلامى ، وقال : « إنك بصفة كونك أجنبياً يصعب عليك حتما الوقوف على حقيقة ما هو جار فى البلاد » .

قلت « نعم ، ولكن لا لأن الشيوعيين قد وضعوا أية عراقيل فى طريقى فإنى أستطيع التجوال فى البلاد بحرية ، ومن السهل الحصول على الإذن بأية جولة ما دمت أقدم عن ذلك طلباً فى الوقت الملائم ، كما أنى أستطيع التحدث إلى أى إنسان أريد التحدث معه . ولكننى مع ذلك أشعر دائماً بأننى لا أرى إلا جانباً واحداً من الصورة ، فإن الناس الذين أقابلهم ينطقون دائماً بالشىء بعينه ، وكل ما أسمعه مديح فى مديح . . »

فقطع « هنرى » على حديثى وقال : « وماذا تنتظر غير ذلك ؟ إن الشيوعيين لا يطلعونك إلا على الجانب الذى يريدونك أن تراه ، وهو نفس الجانب الذى يطلعون عليه جميع الوفود الأجنبية التى تأتى فى زيارة قصيرة » .

ثم أخبرنى أن صديقاً له كان بين جماعة ندبت لمرافقة وفد أجنبى ، وقال : « إنهم بدأوا قبل كل شىء بعمل تجربة لمهمتهم ، فكانوا يحاولون تخيل الأسئلة التى ينتظر أن يسألها الضيوف الأجانب ، ثم يتفقون على الإجابات الملائمة لها وكانت الجماعة مؤلفة بالطبع من أفراد عرف عنهم جميعاً الإخلاص للحكومة » .

قلت : « وهل هنالك أناس لا يحبون الحكومة ! »

فرفع « هنرى » كتفيه وقال : « لا أعرف . فإن الذين فى صدورهم شىء ضد الحكومة يبقون أفواههم مغلقة ، ولا أحد يتناقش فى السياسة إلا فى الاجتماعات السياسية النظامية . وقد يجر على حديثى مثلك بعض المتاعب ، ولكننى أردت أن أوقفك على ما هو جار هنا ، فإن هنالك الكثير من الغش والنفاق ، مما يكفى لجلب النقمة » . وعندئذ بصق على أرض الحجرة ، ثم قال : « وإذا

كتبت عن ذلك شيئاً فاستوثق من أن تكتبة بطريقة لا يعرف منها المصدر الذى استقيت منه هذه المعلومات . يجب أن تعدنى بذلك يا « يا كارل » .

« هو كذلك بالطبع » .

« والعجيب فى الموضوع يا صاح أننى لا أحمل فى الواقع ضد الشيوعيين شيئاً كثيراً ، بل إننى معجب بهم من وجهات كثيرة ، وإن معظم ما قاموا به كان ضروريا للصين . فقد كان المجتمع القديم بؤرة من العفن » .

لقد كان « هنرى » من ألد أعداء « شيانج كاى شيك » ، وإنى ما زلت أذكر ما كان يفعله أحياناً أثناء لعبنا التنس ، حين كان يطوح مضربه بشدة كانت تجعلنى أظن أنه سيقذف بالكرة إلى أبعد مدى ، ثم يسفر الأمر عن ضربة خفيفة جداً تجعل الكرة تسقط بجوار الشبكة ، فلم تكن لى بذلك أية فرصة لإدراكها ، وحينئذ كان يبتسم ابتسامة عريضة ويقول : « إنها كانت حركة غشاشة ، مثل « شيانج كاى شيك » .

وواصل كلامه فقال : « لقد شعرت بالسرور عند قدوم الشيوعيين ، ومع أنه كان فى استطاعتى الذهاب إلى « هونج كونج » فى يسر ، فقد فضلت البقاء . وذلك لا لأننى متعلق بالمثالية بل لأننى أردت أن أشترك فى إعادة بناء الصين » .

وكان « هنرى » فى ذلك الوقت يقوم بعمل تجارى مع شريك أمريكى فكانا يستوردان الأغذية المحفوظة فى العلب ومستلزمات دورات المياه ، ومعظم ذلك من الولايات المتحدة الأمريكية . ولما أصبح الشيوعيون على مقربة من المدينة غادرها ذلك الأمريكى وتولى « هنرى » أمر المحل ، وسار العمل بالمحل عقب التحرير مباشرة سيراً حسناً رابحاً . حقاً إن الاستيراد كان قد وقف تقريباً ، ولكن المحل كان عامراً بالبضائع المخزونة ، التى كفلت الاستمرار فى حركة البيع .

وفى ذات يوم دعى « هنرى » لحضور أحد الاجتماعات السياسية . وكان بين الحاضرين عدد من رجال الأعمال الذين يعرفهم . فقـام أحد الموظفين

الشيوعيين بإلقاء محاضرة فى موضوع الواجبات الوطنية التى يجب أن يرعاها رجال الأعمال . ثم هاجم الأمريكيين وسماهم أسماء شنيعة . والصينيون لا يحبون سماع أمثال هذه المهاترات ، و يرون أنها لا تتفق والكرامة ، ولكن رجال الأعمال ظلوا يستمعون لها دون تأثر . فإنهم كانوا قد ألفوا شتائم الشيوعيين ، يقرأونها فى الصحف و يسمعونها فى الراديو كل يوم .

ولما انتهت المحاضرة صفق الحاضرون ، أداء للواجب ، ونهضوا للانصراف فقال الشيوعى : « دقيقة واحدة » ، وطلب إليهم الجلوس من جديد ، ثم قال : « إن بعض الحاضرين هنا كانوا فيما مضى يتعاونون مع الأمريكيين » .

ثم نظر إلى « هنرى » وقال : « إنك على ما أعلم كان لك شريك أمريكى فهل هذا صحيح ! »

« نعم » .

« إذن نرجوك أن تخبرنا عن الجرائم التى ارتكبها هذا الأمريكى ضد الشعب الصينى » . ثم أوضح أنه سنشن حملة تقريباً للكشف عن أوجه النشاط الإجرامى الذى كان يقوم به رجال الأعمال الأجانب . « إذ الواجب أن يدرك الناس أن مصدر غشهم واستغلالهم لم يكن منحصراً فى حكومة « شيانج كاى شيك » ، بل كان أيضاً يشمل الاستعماريين الأجانب . وعلى ذلك يستطيع الرفيق « وونج » أن يبدأ بالكشف لنا عن أعمال شريكه السابق » .

فاحتج « هنرى » على هذا القول وقال : « ولكنه لم يقم بأى عمل غير سليم فقد كان رجل عمل أميناً فاضلا » .

فابتسم الشيوعى ابتسامة ساخرة وقال : « إنه كان استعمارياً أمريكياً ، فلابد أنه كان عدواً للشعب . و إنى أنصح لك أن تخبرنا بكل شىء عن أوجه نشاطه الرجعية ، فإن هذا يهون الأمر عليك عندما يأتى الدور لاستقصائنا عن ماضيك أنت . سيعقد اجتماع آخر بعد غد ، فإلى أن يحين ذلك الوقت نرجو أن يكون

قد تم لك إعداد تقرير صادق عن الموضوع » .

ثم وجه نظر رجال الأعمال أيضاً إلى حضور الاجتماع الحاشد الذى سيعقد بعد ظهر اليوم التالى فى أحد المتنزهات العامة ، فإنه سيكون مشهداً لأول محاكمة عامة كبيرة يصفى الشيوعيون فيها الحساب عن أعمال الماضى .

وقد حدثنى «هنرى» عن ذلك الاجتماع الحاشد ، فقال: «كان المكان غاصاً بالناس » وكان قد نبه على لجان الأحياء بأن تستوثق كل لجنة من حضور جميع أهل الحى فى الاجتماع . وكانت الأعلام ترفرف فى أنحاء المكان ، ومكبرات الصوت تدوى بالأناشيد الحماسية واحداً بعد الآخر ، وبائعو الفاكهة والحلوى بلغوا ذروة نشاطهم وضجيجهم ، فكان كل ما فى ذلك المشهد يذكر الإنسان باحتفال الربيع السنوى .

ثم جىء بمائتى متهم شدت أيديهم إلى ظهورهم وسيقوا إلى منصة فى المكان ، فوقفوا مطأطىء الرؤوس بينما كان العمدة يعدد مساوئهم ، وقد استغرق خطابه ساعتين .

وعندما بلغ « هنرى » هذه النقطة من حديثه إلىّ ، قام إلى مكتبه وهو يقول «وإنى مازلت محتفظاً بقصاصة من إحدى الصحف تحوى وصفاً لتلك الإجراءات». فأخرج قصاصة من المكتب وقال « ها هى ذى » ، وأخذ يترجمها لى :

« . . . وكانت كل كلمة تشعل حقد الجماهير المتقد إلى أقصى درجات الالتهاب وأخيراً أشار العمدة إلى السجناء وقال : « أيها الرفاق ، ماذا نفعل بهؤلاء المجرمين من اللصوص ، والعملاء السريين ، وأشرار ملاك الأراضى ، ورؤساء ومنظمى الطوائف الدينية الرجعية ؟ » فهدرت الجماهير فى صوت واحد : « أعدموهم رمياً بالرصاص » فقال العمدة : « إننا هنا نمثل الشعب ، وواجبنا العمل بمقتضى إرادة الشعب . فلينفذ حكم الشعب » .

وقضى « هنرى » لحظة وهو ينظر إلى ، ثم طوى القصاصة وأعادها إلى مكانها ومضى فى حديثه :

« وفى اليوم التالى انعقد الاجتماع الخاص برجال الأعمال . فبدأه الشيوعى بالتكلم فى صميم الموضوع ، فقال : « هل عزم الرفيق « وونج » بصفة كونه صينياً وطنياً على كشف الستار عن جرائم شريكه الأمريكى السابق ! أم أنه اختار أن ينحاز إلى أعداء الشعب الرجعيين ! »

فأجاب « هنرى » بقوله : « قد كان بودى أن أقول كل شىء أعرفه ولكن كيف أتهمه بشىء لم يفعله ! »

« أنت وشأنك . ولعل من الحاضرين هنا من يفضلون اتخاذ موقف أكثر إيجابية من موقفك »

وهذا هو ما كان فعلا . فإن عدة من رجال الأعمال كانوا قد أحضروا معهم اتهامات كتابية ضد زملائهم السابقين من رجال الأعمال الأجانب . فقرئت بصوت عال . فدوى صدى الاتهامات فى قاعة الاجتماعات دوياً مروعاً — الفساد الغش ، التواطؤ مع عملاء «شيانج كاى شيك» وسرقة أسرار الدولة ، والتجسس .

وفى صباح اليوم التالى رأى « هنرى » صورته فى الصفحة الأولى من جميع الصحف ، وقد كتب فوقها بالخط العريض « الكشف عن نمر كبير » ، وهذه هى العبارة التى كانت تطلق على من يستغلون الجماهير ، إشارة إلى أنهم كالنمر فى شراهته ودهائه .

وقالت الصحف إذ ذاك إن «هنرى» كان متواطئاً مع رجل أمريكى اغتصب مبالغ طائلة من الشعب الصينى عن طريق الخداع ، وأن هذا « النمر الكبير » يحاول بالطبع إخفاء ما اقترفه من الجرائم ، ولكن أولى الأمر قائمون الآن بجمع الأدلة ضده ، وأنه فوق كل هذا تحوم حوله الشبهة بأنه كان هو وشريكه الأمريكى من عملاء دولة استعمارية أجنبية .

ولما أدار « هنرى » الراديو فى ذلك الصباح سمع فيه القصة بعينها . ثم إنه عندما ذهب إلى عمله اشتم فى الحال رائحة التغير بين مرءوسيه . فكلهم تحاشوا النظر إليه ، ثم وجد على مكتبه قراراً موقعاً عليه من جميع الموظفين بهذا النص : لامناص من إدانتنا لموقفك المنافى للوطنية . . فإن أعداء الشعب أعداؤنا . . . ولا يمكن إخفاء الحقيقة عن الشعب .. وإننا ننصح لك بالاعتراف بكل شيء».

وكان هنرى عادة يتناول طعام الظهر بمطعم مجاور مع اثنين تربطه بهما صداقة عمل ، ففى ذلك اليوم لم يحضرا المطعم . وعندما دخل المطعم توقف جميع من كانوا فيه عن الكلام . وأخذ الناس يتهامسون وينظرون إليه من طرف خفى ثم جاء عامل المائدة ، وكان فى العادة يمزح معه ، فبدأ فى ذلك اليوم وكأنه يكاد يبكى ، ولما أحضر له الطعام همس فى أذنه بأنه اطلع على قصته ، وقال له : « إنى متألم لموضوعك ، والأفضل أن تعترف » .

وبعد ظهر ذلك اليوم حضر إلى مكتبه وفد من رجال الأعمال ، وألحوا فى النصح له بأن يتعاون مع أولى الأمر . فأعاد عليهم « هنرى » القول بأنه يود ذلك ، لكنه لا يستطيع قول شيء غير صحيح .

فقال أحدهم : « إن المسألة لا تتطلب أن يكون لدى الإنسان أدلة ، ويكفى أن يكون لديك مجرد شك ، فما عليك إلا أن تقول فى كتابتك إنه من المحتمل أن شريكك السابق كان يفعل أفعالا سيئة كثيرة من وراء ظهرك ، وسيكتفى أولو الأمر بذلك . إن الزمن قد تغير ، ولابد من أن نتغير نحن أيضاً . وفوق كل هذا وذاك ، لا يمكن أن يلحق الأمر بشريكك السابق أى أذى لأنه قد غادر البلاد فعلا » .

فأجاب « هنرى » بأنه لا يستطيع ذلك . ولما انصرفوا جلس وحده بالمكتب ولم يستطع القيام بعمل ما ، إذ ظلت أفكاره تشرد وتعود به إلى الاجتماع الحاشد الذى شاهده فى الحديقة العامة .

ولم تكن زوجته بالمنزل عندما عاد إليه . ولم يلبث أن سمع التليفون يدق ، وإذا بالمتكلم الموظف الشيوعى . فقال لهنرى إنه لم تعد هناك أية فائدة الآن من إخفاء شيء ما ، فقد ذهبت زوجته إلى مركز الشرطة واعترفت بكل شيء ، وهذه هى آخر فرصة لقيام « هنرى » بالاعتراف .

وقال لى « هنرى » : « لقد جلست إذ ذاك وقتاً طويلا وسماعة التليفون فى يدى ، فقد كان الأمر صدمة لى واستولى على الفزع . ومع كل ذلك بقيت غير قادر على القيام بما أرادوا أن أعمله » .

قلت : « وهل صحيح ما قاله الموظف الشيوعى عن زوجتك ! »

فقال : « لا أدرى تماما . إنها كانت قد وقعت تحت تأثير بعض صديقاتها من الصنف « التقدمى » اللاتى أخذن فى إقناعها بأننى رجل سيء النزعة ــ بمعنى أننى رأسمالى واستغلالى ، وهلم جرا . وقد تركتنى فعلا ، ثم كتبت إلى بعد ذلك تقول إنها لم تعد تريد المعيشة معى لأننى دافعت عن أمريكى استعمارى . ثم تم الطلاق بيننا » .

وفى المساء استدعته لجنة الحى ، وكانت قد عقدت اجتماعاً خاصاً للنظر فى مسألته . وقد أجلس « هنرى » فى وسط قاعة الاجتماع . ثم أخذ جيرانه يوجهون إليه التهم : إنه كثيراً ما كان يفد على بيته زوار أجانب ، وأنه فى ساعة متأخرة من إحدى الليالى رآه الناس يحمل هو وصديقه الأمريكى صناديق خفية ويدخلانها فى شقة سكنه . فماذا كان فى هذه الصناديق ! هل كان مافيها شيئاً من النوع الذى لا يصح للخدم الوقوف على أمره !

قال لى « هنرى » وهو يذكر ذلك : « إنها كانت بعض صناديق « وسكى » اشتراها لى شريكى ذات مرة بثمن بخس ، ولكن لم يصدق ذلك أحد ، وتمسكوا بأنها كانت جهاز إرسال لاسلكى وبعض الوثائق السرية ، وقد عرضت عليهم مع الترحيب أن يقوموا بتفتيش شقتى ، ولكنهم قالوا أن لا حاجة لهم بذلك ،

وإننى بالطبع قد محوت كل الآثار التى تنم عن الأمر، « إذ أننى عدو خطر ماكر ».

ثم انتهى الأمر باختيار لجنة للبحث فى ماض « هنرى » ، مؤلفة من شيوعى واحد وثلاثة من « التقدميين » ، وقد مضى الأسبوعان التاليان دون أن يذوق « هنرى » طعما لراحة البال ، فكان ذلك التحقيق المضنى يبدأ بعد ظهر كل يوم، ويستمر فى بعض الأيام إلى ساعة متأخرة من الليل . وكان عليه أن يقول كل شيء يستطيع تذكره عن ماضيه ، وكانوا طوال الوقت يحاولون إيقاعه فى الشرك.

قال لى « هنرى » : إن العضو الشيوعى لم يكن بغيضاً جداً . فقد كان مؤدباً ، ومع تعصبه الطبيعى لمذهبه لم يكن متعسفاً فى غير ما يمس ذلك . أما الأعضاء « التقدميون » فكانت حالهم لاتطاق ، إذ كان كل مأربهم أن يثبتوا شدة وطنيتهم ، فكان كل قول أقوله يلوونه ويحورونه ليكون دليلاً ضدى . وكان من العبث مجادلتهم ، وكانوا كثيراً ما يستفزوننى لدرجة جنونية ، ولكنى بالطبع كنت أتمالك نفسى » .

وكان عليه أن يذهب كل يوم فى الصباح إلى مكتبه ، ليقوم بفحص دفاتر المحل مع موظف شيوعى شاب . « وكان هذا الموظف فى الثانية والعشرين من عمره ، وكان يعرف الكثير عن « الماركسية » ولكنه لا يعرف شيئاً عن هذا العمل . وكان فى كل مرة يرى مبلغاً مقيداً بصفة « عمولة » يعتبر المبلغ رشوة . ثم استشاط غضباً عندما تبين له أن شريكى السابق أخذ معه مبلغ ٥٠٠٠٠ دولار أمريكى عند مغادرته البلاد . وقد أوضحت له أن هذا الأمر لم يكن فى ذلك الوقت غير مشروع ، ولكنه تمسك بأنه كان عملا خاطئاً « من الوجهة الخلقية » ، وأنه كان يجب على أن أعرف أن ذلك المال هو من دم وعرق الشعب الصينى ، فأنا بذلك شريكه فى الجريمة » .

وقال الشاب الشيوعى أيضاً إنه كان من العار على « هنرى » أن يختار مثل هذه المهنة ، فلا بد أنه ذو شخصية غثة ، وإلا كان اختار عملا يخدم به مصلحة

من مصالح الشعب — عملا إنشائياً مثمراً، بدلا من انخراطه فى هذا العمل التجارى.
وكانت الحياة التجارية فى المدينة قد كسدت خلال هذه المدة أيما كساد حتى كادت تنعدم،. ووجهت تهمة الفساد إلى عشرات الألوف من الناس، وشجع الأهلون على إبلاغ أولى الأمر عن أى أمرىء يشتبهون فيه، ووضعت بجميع مكاتب الحكومة والمبانى العامة صناديق خاصة تودع فيها رسائل التبليغ عن الناس، ووضح للجميع أن الذين يعاونون أولى الأمر بأعطاء المعلومات عن غيرهم سيلقون معاملة لينة إذا تبين أن فى ما ضيهم شيئاً من المساوىء.

وكان الشيوعيون يتظاهرون بأنهم ليسوا من وراء هذه الحركة، ويقول « هنرى » فى ذلك : « إن هذه لازمة معروفة عنهم، فهم يتركون الإجراءات القذرة للجان و « التقدميين »، ثم يبرزون بعد ذلك ويقولون إنها إرادة الشعب ».

وكانت المحاكمات العامة تجرى كل يوم تقريباً فى الحدائق العامة، وكانت إجراءات المحاكمة تذاع فى الراديو، ويعاد ترديدها من مكبرات الصوت العامة، فكان الإنسان يسمع فى كافة أنحاء المدينة صراخ المدعى وهو يقول : « عدو الشعب — خائن »، ثم يتلوه هدير الجماهير وهى تزعق : « اقتلوه — اقتلوه ». وبين الضجتين تسمع صفارات عربات الإسعاف، فقد كانت لا تنتهى لها حركة، نهاراً أو ليلا، من كثرة إنشغالها بنقل جثث الذين لم يتحملوا وطأة الحالة فآثروا الانتحار.

« ولست أعرف عدد الذين قضوا على حياتهم بأنفسهم، فلم تذكر عن ذلك كلمة واحدة فى الصحف، ولكن لا بد أنه كان يعد بالألوف، فإن الناس لم يجترئوا على المشى فوق أفاريز المشاة — إذ كانوا لا يعرفون متى يقذف أحد بنفسه من نافذة من النوافذ فيسقط فوقهم. وقد مررت ذات صباح وأنا فى طريقى إلى المكتب بثلاثة جموع مختلفة احتشد الناس فى كل منها حول جثة كان صاحبها قد رمى بنفسه من فوره ».

ثم وقف « هنرى » وأخذ يذرع أرض الحجرة وقال : « لقد كانت الحال أشبه شيء بكابوس جثم على الصدور . والعجيب فى الأمر أن الذين قضوا على حياتهم لم يكونوا هم الجناة ، بل كانوا أولئك الذين بلغت بهم الحساسية مبلغاً لم يستطيعوا معه تحمل ذلك الضغط . فقد كنت أعرف ممرضة ، شريفة النفس ، ذات ضمير حى : سئلت هل أرتكبت أى خطأ فى حياتها الماضية ، فقالت نعم ، إذ حدث مرة أن مريضاً أجنبياً فى أحد المستشفيات التى كانت تعمل بها نسى دولارين فى أحد الأدراج ، فحاولت أن تتصل به من أجل ذلك ، لكنه كان قد غادر الصين . فماذا كان مصير المبلغ ؟ لقد احتفظت به ، إذ لم تكن تعرف ماذا تصنع به فى هذه الحال » .

« فقالوا عنها إنها لصة كسائر اللصوص ، لأنها مادامت قد أستطاعت أن تعمل عملا كهذا فلا بد أن هناك جرائم أخرى تحبسها فى ذهنها . فبكت ، وأ كدت لهم القول بأنها لم تقترف أى شيء آخر ، لكنهم لم يصدقوها ، وقالوا أن الأولى بها أن تعترف : فلم يسعها فى آخر الأمر سوى أن تقذف بنفسها من الدور الثالث » .

«وقد طلب من كل إنسان أن يكتب تاريخ حياته . وفى ذلك يقول «هنرى» « إننى لا أذكر عدد المرات التى اضطررت فيها إلى كتابة تاريخ حياتى ، فكان ما أكتبه يرفض المرة بعض الأخرى ؛ بحجة أننى غير صريح ، وأننى ذو ميول ضد المجتمع ، وأننى لم أعترف بكل شيء . وكان كل إنسان يعرف أن الشيوعيين لا يقتنعون مالم يعترف المرء بشيء ما . فكان الناس يسألون بعضهم بعضاً : ماذا يكون اعترافى ؟ وكان الكثيرون يخترعون مخالفات صغيرة حتى لا يستمر تكليفهم بإعادة كتابة تاريخ حياتهم » .

ولم تكن لجان الأحياء تمل تنظيم الاجتماعات السياسية ، وكان يحتم على كل إنسان الاشتراك فى هذه الاجتماعات . ومن ذلك نجد أن أحد رجال الأعمال

المشهورين سار على رأس موكب وهو يحمل علماً و يهتف بالشعارات الوطنية » و بعد الإنتهاء من ذلك عاد إلى منزله وأطلق على نفسه الرصاص .

و بعد أن مضى أسبوعان والمحاكمات العـامة مستمرة ، ألقى القبض على « هنرى » . وهو يقول فى ذلك : « لقد ألقوا بى فى حجرة سجن مظلمة مع نحو خمسين آخرين . فكنا ننام على الأرض ، وكان الطعام الذى يقدم لنا فظيعاً ، والمكان مملوءاً بالهوام . وأدهى وأمر من ذلك أنه لم تكن لنا دورة مياه ، فكان يؤتى لنا فى كل صباح بدلو (جردل) لهذا الغرض ، يستعمله كل منا مدة دقيقة واحدة يعدها علينا الحارس المختص بذلك . ومع ذلك كله كنت أفضل على تلك الحالة التى كنت فيها من قبـل ، اذ أننى على الأقل قد ارتحت من شر أولئك « التقدميين » الملاعين الذين قطعوا أنفاسى وأنا حر طليق .

وفى كل صباح تقريباً كان يسحب عدد من بين السجناء و يساقون إلى المحاكمة العامة ، ولم يكن أحد منهم يعود ثانية ، ولـكن سرعان ما كانت أماكنهم تملأ بآخرين ــ جميعهم من الطبقة المتعلمة .

وكان « هنرى » يستجوب مرتين فى كل أسبوع ، وهو يقول فى ذلك : « إننى لم أخف عنهم شيئاً ، ولـكن كان من الصعب جداً أن أقنعهم بصـدق قولى ، فظلوا يرموننى بأننى رأسمالى ، مستغل للشعب ، وفوق هذا وذاك ، صلب الرأى ، ولابد أن هناك شيئاً يحبسه ضميرى عنهم . على أنه قد استحال عليهم أن يجدوا أى تضارب فى أقوالى ، فضلا عن أن دفاتر عملى كانت على أتم نظام . وقد ذهلوا عندما تبين لهم فى النهاية أننى لم أحاول غشهم ، وعندئذ أطلقوا سراحى » .

وكان إذ ذاك قد مضى عليه فى الاعتقال أكثر من خمسة أشهر ، ولم يعترفوا بأنهم بالقبض عليه قد ارتـكبوا خطأ ما .

و بعد ذلك بقليل اضطر إلى تصفية أعماله ، إذ كانت الدولة قد وضعت أمر التجارة كلها فى يدها . وإذ كان هو لا يزال فى نظرها من الرجعيين فإنها لم

تدخله معها فى عمل ما . كما أن معظم المبالغ التى حصل عليها من التصفية اضطر إلى دفعها فى سداد ما طلب منه من الضرائب والغرامات .

قال « هنرى » : « مع ذلك ما يزال معى قليل من المال — يكفينى مدة سنة أو سنتين ، فإننى كما ترى أعيش الآن عيشة متواضعة » .

قلت : « وماذا تصنع عندما يفرغ ما عندك من المال ؟ » .

قال : « ألتحق وقتئذ بعمل ما ، فليس من الصعب لمن كان فى مثل درجتى من الثقافة أن يجد عملا ، ولكن . . . » وفى هذه اللحظة عاد إلى الجلوس ، وقد بدا فى حالة إعياء شديد ، ثم استأنف قوله : « ولكن يجب على أولا أن أغير من ماضى ، وهذا ليس بالسهل . أجل ، يجب أن أغير طريقة تفكيرى الحالية وبغير ذلك لا أجد من يلحقنى بعمل عنده » .

وقد أدرجه الشيوعيون (فى تصنيفاتهم) فى صف « المثقفين الرجعيين » وكان « هنرى » يحضر فى كل أسبوع ثلاثة اجتماعات مع نحو عشرين آخرين ، يتلقون فيها منهجاً « لإعادة تربيتهم » .

وقد قال فى ذلك : « إن رئيس مجموعتنا هو بالطبع من « المتقدمين » ونقوم فى هذه الاجتماعات بتحليل الأخبار . فلا يتكلم الرئيس كثيراً ، ويقتصر على الاستماع وهو جالس فى مكانه ويدون كل كلمة تقال . ولكننى أستطيع دائماً أن أتبين تغير وجهه إذا وقع فى أقوالى شىء من الخطأ (من وجهة نظره طبعاً) ، وهذا هو ما يحصل على الدوام تقريباً عندما أفتح فمى الكبير وأنطلق فى الكلام . ولا يكفى أن يقول الواحد منا إنه موافق على ما تفعله الحكومة ، بل يجب عليه أن يثبت أن الشيوعيين لا يفعلون إلا الأمر الصحيح ، وأنهم دائماً يفكرون فى مصلحة الشعب . فإذا كان لدى أحد منا أى شك فى ذلك ، فإن الرئيس « التقدمى » للمجموعة لا يحمده . وقد مضى على نحو ثلاث سنوات وأنا أواصل الذهاب إلى هذه الاجتماعات ، ولكننى أخشى أنى لم أتقدم كثيراً » .

وقد نوقشت فى هذه الاجتماعات كل حملة جديدة ظهرت فى البلاد . وما أكثر هذه الحملات الجديدة — فمن حملة على مناهضى الثورة ، إلى حملة ضد « البيروقراطية » إلى أخرى ضد الإسراف ، إلى أخرى ضد العصافير لأكلها مالا يجوز من الحبوب التى تنتجها « جمهورية الشعب » ، وقد مرت فترة كانت فيها الأسرات تخرج بأكلها فى أيام الأحد لصيد العصافير ، إذ كان ذلك يعد عملا وطنياً . وقد شنت حملة على الحشرات الضارة ، وأعلنت الحكومة بعد انتهائها أنه قد أبيد فيها ٥٠٠ و١٨ بليون ذبابة وبعوضة ، كان القضاء على معظمها بالأيدى البشرية ، إذ كانت الحكومة قد زودت الأطفال بمذبات لقتل الذباب فى كافة أنحاء البلاد .

واستأنف « هنرى » الكلام يقال : « كذلك شنت حملة ضد الإفراط فى شن الحملات . وتجرى الآن حملة أخرى لحمل الناس على التكلم بحرية » .

قلت : « حقاً ، لقد سمعت بذلك » .

قال : « هنالك بعض من الناس يجرؤون على إبداء قليل من النقد ، ولعلك قرأت فى الصحف بعض الخطابات المرسلة لرئيس التحرير فى هذا الشأن . فمن ذلك أن أنابيب معجون الأسنان عديمة النفع ، وأن أجهزة إشعاع الحرارة فى مساكن العمال الجديدة ترشح ، وهكذا ، أما المشاكل الحقيقية التى تحز فى نفوسنا فلا أحد يجرؤ على الكلام فيها ، حتى ولا مع أعز الأصدقاء ، إذ لم يعد من الممكن معرفة من يستطيع الإنسان أن يأتمنه » .

قلت : « أما تستطيع الرحيل ! »

« ماذا تقصد ! »

« أن ترحل عن الصين وتذهب إلى هونج كونج » . فهز رأسه وقال : « إننى أولا وقبل كل شىء ، لا أستطيع الحصول على الإذن اللازم لمغادرة البلاد ، وحتى لو تمكنت من الوصول إلى « هونج كونج » فإن الناس هنالك سوف يشتبهون

فى أمرى و يظنوننى من عملاء الشيوعيين . كلا « يا كارل » ، لن أرحل فإنى مضطر إلى البقاء هنا . وسوف أضطر إلى تعلم ما يسمونه « التفكير الإنشائى » وأظن أننى أستطيع ذلك — ولعل أمره يسهل على عندما تفرغ مئونتى فلا أجد طعاماً أطعمه » .

و بعد أن قضينا عقب ذلك فترة فى الكلام نهضت للانصراف . فرافقنى شطراً من الطريق ، حتى إذا قاربنا أول منزل من المنازل وقف ومد يده إلى وقال « مع السلامة يا « كارل » . أشكرك على زيارتك » .

فرددت عليه : « مع السلامة . . . » و كم كان بودى أن أزوده عند رحيلى بكلمة تشجيع ، ولكن ماذا كنت أستطيع قوله ! فأضفت إلى كلمتى السابقة كلمة أخرى عرجاء ، فقلت : « حظاً سعيدا » .

ثم افترقنا .

مطعم فى الهواء الطلق فى بكين

كلب خرافي يحرس مدخل المعبد

٢٠ ج

دار الفكر العربي
القاهرة

Bibliotheca Alexandrina
0240196